297.2088
K45fA
C.1

هذه سبيلي

أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني :

الفن القصصي

في القرآن الكريم

تأليف

محمد أحمد خلف الله

الطبعة الأولى

١٩٥٠ — ١٩٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)

كنت أريد أن أقف فى هذا الموطن لأبين فى وضوح وجلاء العلل والأسباب التى دفعت بالجامعيين من أصحاب الهوى والغرض إلى هذه المواقف:

(ا) التقوّل على رسالة « الفن القصصى فى القرآن الكريم » والادعاء عليها بما ليس فيها وبما لا يمكن أن يخطر ببال صاحبها ، وتحريف نصوصها تحريفاً يمكن من استثارة الجماهير ضد الرسالة وضد صاحبها فى سهولة ويسر.

(ب) قبول الأستاذ أحمد بك أمين أن يكون عضواً فى رسالة يشرف عليها الأستاذ الخولى مع تحاشيه مثل ذلك من قبل لما بين الأستاذين من خصومات . وبخاصه إذا كان هذا القبول قد تم بعد أن نشأت المسألة الدينية وبعد أن اعتذر الأستاذ عبدالوهاب حموده .واعتذار الأستاذ حموده لم يكن إلا ليحل محله الأستاذ أحمد أمين ، ولم يكن إلا بعد أسابيع ثلاثة من تكوين لجنة الفحص ومن قبول الأستاذ حموده عضوية اللجنة .

حرص الأستاذ أحمد بك أمين على أن يجنب صديقه السنهورى باشا كل مايعكر عليه صفو الحكم وملذاته ، ولذا نراه ينصح عميد الآداب ومدير الجامعة بالنيابة الدكتور عبد الوهاب بك عزام بأن يأخذ فى هذه الرسالة رأى المسئولين قبل أن يأخذ رأى العلماء وبعبارة أخرى ينصحه بأن يأخذ رأى السنهورى باشا ومن هنا نستطيع أن نقول بأن الأستاذ أحمد أمين قد كتب تقريره على الأساس السياسى لا على الأساس العلمى ولا على الأساس الدينى.

بل لعل الأستاذ أحمد أمين بك لم يقبل عضوية اللجنة إلا ليؤدى هذه المهمة . ومن هنا نراه يصمت بعد ذلك فلا يرد على تقرير الأستاذ الخولى

وإنما يترك مهمة الرد للأستاذ الشايب ولا يدفع عن نفسه ذلك الاتهام الفاضح الذى نشرته جريدة « أخبار اليوم » ولا يجيب عن ذلك التحدى العلنى الذى نشرته جريدة « الاخوان المسلمون » .

(حـ) إصدار الأستاذ الشايب أحكاما ثلاثة فى شأن هذه الرسالة .

فهى عنده حسنة إلى الحد الذى يجعله حريصا على أن يشرك الأزهر فى مناقشتها ليتبين الأزهر بنفسه الجهود الحسنة التى يبذلها فى سبيل الدراسات الإسلامية أبناءُ الجامعة .

وهى عنده لابأس بها وإنه إنما ينصح بتعديل بعض فصولها قبل تقديمها إلى المناقشة .

وهى عنده سيئة جداً . سيئة إلى الحد الذى يجعـــله يقرر بأن أقل ماتستحقه هو الرفض التام .

ثم إرساله بعد كل هذا خطابا إلى المشرف يسحب فيه بعض صفحات التقرير الثانى لأنه قد كتب ماكتب قبل أن يرجع إلى كتب التفسير .

وأخيراً التقاؤه مع الأستاذ أحمد أمين فى الحرص على سلامة الحكومة وهو نفسه الذى يدلنا على أنه قد تحدث مع العميد فى شأن الضجيج السياسى الذى تعانيه الحكومة وأنه يريد برفضه هذه الرسالة أن يجنب الحكومة أى ضجيج دينى[1] .

لقد بدأ الأستاذ الشايب مساوما . رسالة برسالة . رسالة خلف الله برسالة المحاسنى . ثم ثنّى مدافعا عن الدين والقرآن الكريم . ثم ثلّث مدافعا عن الحكومة لأنه الرجل الذى يريد أن يجنّبها أى ضجيج .

(ى) موقف الدكتور عبد الوهاب عزام بك عميد الآداب ومدير

(١) ص ١٣ من التقرير الثانى .

الجامعة بالنيابة . وكيف أحدث هذه الأزمة باستماعه إلى وشايات الدكتور شوقى ضيف [1] .

ثم كيف أنه لم يسلك السبيل العلمية الجامعية مع هذه الرسالة فلم يجمع لجنة الفحص لتضع تقريرها عن الرسالة ، ولم يعرض المشكلة على مجلس الكلية ليرى رأيه فى النزاع القائم . وإنما سلك سبيلا سياسة ملتوية .

فهو أولا : يبلغ الطالب أن اللجنة المكونة لفحص الرساله قد قررت أنها غير صالحة للمناقشة مع أن اللجنة لم تجتمع حتى هذه اللحظة ولم تضع من باب أولى مثل هذا التقرير .

وهو ثانيا : ينشر بيانا فى الصحف يذيع فيه أن الجامعة قد رأت أن هذه الرساله لاتستحق أن يمنح عليها صاحبها درجة علمية جامعية . مع أنه يعلم العلم كله بأن الأستاذين اللذين قد اعتمد عليهما فى تنفيذخطة السياسيين قد فشلت الفشل كله حين ادعت على الرسالة وحين حرفت نصوصها وحين ثبت هذا التحريف فى محضر قام بعمله رجال ثلاثة هم الدكتور الشرقاوى بك والدكتور زكى حسن بك والأستاذ عبدالوهاب خلاف بك .

ثم هو ثالثا : لم يقبل تكوين لجنة جديدة لفحص هذه الرسالة يكون مفتى الديار المصرية عضوا فيها . ويكون أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق عضوا ثانيا ويكون المشرف عضوها الثالث على ما هو القانون ونص اللائحة .

(هـ) موقف الجامعة . وكيف أنها ناقضت نفسها بنفسها فى كثير من تصرفاتها حتى إنها دافعت عن الطالب فى الرد على السؤال وهاجمت الطالب فى الرد على الاستجواب ولم يكن ذلك إلا لرفض الطالب فكرة المساومة .

---

(١) نقد صاحب الرسالة فى التمهيد بحوث الأستاذ شوقى فأحفظه ذلك وبدأ هجومه على صاحب الرسالة واتخذ عن المسألة الدينية ميدان هذا الهجوم .

(و) تصرفات معالى وزير المعارف وأحاديثه مع الطالب ومحاولاته إخفاء نفسه فى كل تصرف حتى لكأن الجامعة هى التى تتصرف وحرصه الشديد على إنقاذ الأستاذ أحمد بك أمين بعد أن ورّط نفسه فى سبيله .

كنت أريد أن أقف عند كل هذه المسائل لأفسرها وأشرح العلل والأسباب التى أدت إليها وكيف أن الهيئات الدينية قد استُغِلتْ حتى لا ينكشف أمر السياسيين ومن اعتمدوا عليهم من الجامعيين . ولكنى آثرت أن أترك ذلك إلى ساحة أخرى تستطيع أن تأخذ المذنب بجريرته وتحمله أضرار اخطائه المتعمدة وتلك هى ساحة القضاء .

(٢)

وكنت أريد أن أقف أيضا لأحدد المخالفات التى لم تصدر عن هوى وغرض وإنما صدرت عن بطء فى الادراك وسوء فى الفهم وعن عدم بصر بالنظرية وبما يمكن أن تؤديه للإسلام من خدمات . وأرد على هذه المخالفات واحدة واحده . ولكنى آثرت أن أشرح النظرية بتفصيل فأوضح المبهم وأفسر المشكل وأترك الأمر بعد ذلك للقارىء ، فإن شاء آمن بها وقال للمخالفين من الجامعيين « أَفَمَنْ يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّى إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونْ »

وإن شاء أعرض عنها وقال معهم « قلوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِى آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ »

إنها إن تكن الثانية فليس لى معه ومعهم إلا قوله تعالى « هَذِهِ سَبِيلِى أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِى وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ »

(٣)

بقيت كلمة صغيرة أقولها لهؤلاء الذين جعلوا من أنفسهم أبطالا فى سبيل الدين وفى سبيل القرآن الكريم من الجامعيين وغيرهم . كلمة أقولها

لهم جميعا هى أنهم حتى فى هذا الموقف الذى ينشدون فيه البطولة الدينية قد أعرضوا عن الإسلام وتعاليمه وعن هدى القرآن الكريم ، وأقبلوا كل الإقبال على تلك الخطة التى كان الجاهليون فى وثنيتهم الأولى يحاربون بها النبى عليه السلام ويعارضون بها القرآن الكريم .

أعرضوا عن الإسلام وتعاليمه لأن القرآن الكريم ينصح النبى عليه السلام وينصح جماعة المسلمين بأن يجروا مع مخالفيهم فى الرأى والعقيدة على سنة المجادلة والمجادلة بالتى هى أحسن « وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » . وليس يخفى أن هذه السنة كانت تحتم عليهم أن يقدموا الرسالة للمناقشة .

وأقبلوا كل الإقبال على الخطة الجاهلية لأنهم اعتمدوا فى كسبهم للخصومة فى الرأى على استثارة الجماهير . وذلك هو ما صوره القرآن الكريم عن خطة الجاهلين (لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ)

يا أيها المخالفون . إن كنتم حريصين حقا على الإسلام وعلى القرآن الكريم فقارعوا الحجة بالحجة وأبطلوا الدليل بالدليل . أما استثارة الرأى العام وتحريك عواطف الجماهير فأمر لا يليق بالعقلية الإسلامية ولا يليق بأبناء القرن العشرين .

إن لكم فى تعاليم الإسلام وهدى القرآن الأسوة الحسنه . وإن لكم فى مسلك سعادة عبد الحميد بدوى باشا لقدوة يجب أن تتبع إن كنتم حقا من المسلمين . وكنتم حقا من العلماء العاملين [١] .

---

(١) كانت بعض المشاكل قد أشكلت على سعادة بدوى باشا فطلب عنها إيضاحا يجده القارىء فى الصفحات التالية :

سعادة الأستاذ الكبير الدكتور عبد الحميد بدوى باشا

تحدثت إلى السيدة ابنة الشاطىء طالبة أن أوضح لسعادتكم موقفى من هذه الآيات التى يصف فيها القرآن القصص بأنه الحق مع ما أذهب اليه من قول بفنية القصة القرآنية . ولقد ذكرت لى السيدة آيتين كريمتين نطقتم بهما فى معرض الحديث هما قوله تعالى : ان هـــذا لهو القصص الحق . وقوله تعالى : نحن نقص عليك نبأهم بالحق .

واخبر سعادتكم أولا وقبل كل شىء ان هـذه المسألة من المسائل التى التفت اليها المفسرون ، والتفتوا اليها لانها جاءت مع الامثال فى قوله تعالى (ان الله لا يستحى ان يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون انه الحق من ربهم ... الخ » والامثال لا يلزم ان تكون من الحقائق الثابتة فقد تكون من المتخيلات ومن الاساطير والاوهام .

ولقد اجاب هؤلاء عن هـذه المسألة وكانت اجابتهم ان المثل يوصف بالحق لانه شارح للحق ومبين له ولانه مقرر للحق ومؤكد له .

واستطيع ان اضع بين يدى سعادتكم هذا النص الذى يشرح به صاحب المنار الدور الذى يلعبه المثل فى تقرير الحقيقة والذى يفسر به صاحب المنار معنى الحق مع المثل . جاء فى جـ ١ ص ٢٣٦ من تفسير المنار ما يلى « والمثل فى اللغة الشبه والشبيه ، وضربه عبارة عن ايقاعه وبيانه ، وهو فى الكلام ان يذكر لحال من الاحوال ما يناسبها ويشابهها ، ويظهر من حسنها أو قبحها ما كان خفيا ، ولما كان المراد به بيان الأحوال كان قصة وحكاية . واختير له لفظ الضرب لأنه يأتى عند ارادة التأثير وهيج الانفعال كأن ضارب المثل يقرع به اذن السامع قرعا ينفذ أثره إلى قلبه ، وينتهى إلى أعماق نفسه ، ولكن فى الكلام قلبا حيث جعل المثل هو المضروب وانما هو مضروب به . هذا ما قاله الاستاذ الامام . »

وجاء فى ص٢٣٧ من نفس الجزء . « ثم ذكر تعالى ان الناس فريقان . فأما الذين آمنوا فيعلمون انه الحق من ربهم . لانه ليس نقصا فى حد ذاته ، وقد جاء فى كلامه تعالى : فهو ليس نقصا فى جانبه وإنما هو حق لأنه مبين للحق ومقرر له وسائق الى الاخذ به لما له من التأثير فى النفس وذلك ان المعانى الكليه تعرض للذهن مبهمة فيصعب عليه ان يحيط بها وينفذ فيها فيستخرج سرها والمثل هو الذى يفصل اجمالها ويوضح ابهامها فهو ميزان البلاغة وقسطاسها ومشكاة الهداية ونبراسها . ورحم الله تعالى عبد القاهر الجرجانى امام البلاغة والواضع الأول لعلمى المعانى والبيان ومؤلف اسرار البلاغة ودلائل الاعجاز لتحقيق اعجاز القرآن . حيث قال فى كتابة الأول واعلم ان مما اتفق العقلاء عليه ان التمثيل إذا جاء فى اعقاب المعانى أو برزت هى باختصار فى معرضه ونقلت عن صورها الأصليه إلى صورته كساها ابهة وكسبها منقبة ورفع من اقدارها وشب من نارها وضاعف قواها فى تحريك النفوس لها ودعا القلوب اليها واستثار لها من اقاصى الافئدة صبابة وكلفا وقسر الطباع على ان تعطيها محبة وشغفا .. » الخ

هذا الذى يقال فى المثل يقال فى القصة لا لأن المثل قد يكون قصة أو ان القصة قد تجىء مثلا فحسب بل لأن هذا الذى يقال فى التمثيل من حيث شرح المسائل والتمكين لها فى الانفس يقال مثله وأكثر منه فى القصة . ولقد صرح القرآن الكريم فى كثير من المواطن بأن أخبار الانبياء والمرسلين أو اقاصيصهم لم ترد فى القرآن إلا على أساس انها من الأمثال . قال تعالى . واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ... الخ . وقال تعالى ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ... الخ . وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون ... الخ .

وعلى هذا الاساس جاء تعريف الرازى للقصة عند تفسيره لقوله تعالى

ان هذا لهو القصص الحق . كما جاء تعريفه للحق عند تفسيره لقوله تعالى : وكلاً نقص عليك من انباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى .. إذ نراه يقول عند تفسيره للأولى: والقصص هو مجموع الكلام المشتمل على ما يهدى إلى الدين ويرشد إلى الحق ويأمر بطلب النجاة كما تراه يقول عند تفسيره للثانية أما الحق فهو اشارة إلى البراهين الدالة على التوحيد والعدل والنبوة . وأما الذكرى ... الخ .

ومما يؤكد هذا الذى يذهب اليه المفسرون ان القرآن الكريم قد جرى فى اقاصيصه على هذا الاساس أساس أن القصة إنما توصف بالحق لأنها تشرح الحق وتقرره لا لأنها فى ذاتها حقيقة ثابتة . وليس ادل على هذا من قصة أصحاب الكهف تلك القصه التى وردت فيها الآية الكريمه « نحن نقص عليك نبأهم بالحق » اذ الذى نطمئن اليه والذى قال به بعض الاقدمين من المفسرين ان القرآن الكريم لم يذكر فى هذه القصة الحقيقة التاريخية . وإنما ذكر ما كان يعرفه اليهود وأهل الكتاب عن عدد الفتية وعدد السنين . والاستاذ النجار انما يعتمد على هذا القول ويرفض ما عداه فى تعليقه على مادة أصحاب الكهف من الترجمـــة العربية لدائرة المعارف الاسلامية على انا نستطيع ان نشرح المسألة بايجاز فنقول .

يذكر الدارسون للقرآن والشارحون لأسباب النزول ان قصة أصحاب الكهف إنما نزلت إجابة عن أسئلة توجه بها المشركون من أهل مكة بأيعاز من اليهود إلى النبى عليه السلام ليعرفوا امن الانبياء هو أم من المتنبئين ؟ ويذكر الدارسون والشارحون ان المشركين حينما رجعوا من المدينة أو من عند اليهود إنما رجعوا ومعهم المقياس الذى يقيسون به صدق نبوة النبى وصحة رسالته ولم يكن هذا المقياس إلا الاجابة عن الاسئلة .

هنا نستطيع ان نسأل هذا السؤال . ما الاجابة التى يتوقع المتوقع انه

ينزل بها الوحى من السماء ليثبت نبوة النبي وصدق رسالته . اهى الحقيقة التاريخية من أمر أصحاب الكهف . أم هى الاجابة التى ذكرها اليهود من أهل المدينة المشركين من أهل مكة وجعلوها المقياس الذى يقاس به أمر النبي عليه السلام ؟.

اعتقد انك قد فطنت إلى ان الاجابة الثانية هى المطلوبة لانها وحدها المقياس الذى وضعه اليهود فى يد المشركين ولانها التى تثبت حقا ان الوحى ينزل من السماء لأن معرفة ما قاله اليهود للمشركين قد تكون اشق واعسر من معرفة الحقيقة التاريخية من أمر أصحاب الكهف لأن المعرفة الأولى معرفه الخبايا والاسرار والمعرفة الثانية معرفة الوقائع البشرية التى يسجلها التاريخ والتى يتناقلها الرواة والافراد .

هذا الذى نقول به هو الذى يتضح تماما من فن بناء هذه القصة فى القرآن. لماذا ردد القرآن الكريم عدد الفتية من أصحاب الكهف بين الثلاثة الرابعهم كلبهم والخمسة السادسهم كلبهم والسبعة الثامنهم كلبهم ؟ لماذا ردد ولم يذكر العدد الحقيقى لكل هؤلاء ؟.

ولماذا لم يذكر القرآن الكريم العدد الحقيقى للسنين ؟ لماذا قال ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا ثم اعقبه بقوله قل الله أعلم بما لبثوا ؟ لماذا كل هذا ؟

لا نستطيع ان نتصور ان هناك من يدعى ان المولى سبحانه وتعالى كان يجهل العـــدد الحقيقى من أمر هؤلاء الفتية فالله يعلم السر واخفى والله يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور وحاشا للمولى سبحانه وتعالى الا يتعلق بعلمه أمر ما فى الأرض أو فى السماء .

ان الترديد فى العدد وان التجهيل فى أمر السنين لم يكن إلا لحكمة يريدها

المولى وليست الحكمة فيما نرى إلا أن ينزل القرآن بما قالته اليهود المشركين ومن هنا كانت أيضا هذه النصائح التي يذكرها في القصة القرآنية الكريم .

لقد كانت اجابات اليهود غير موحدة ومن هنا كان ما ترى في القصة من تجهيل وترديد . فن بناء القصة في القرآن يشعر بما نذهب اليه من ان صفة الحق في هذا الموطن لم تطلق على النبأ من حيث هو حق في ذاته وإنما اطلقت عليه من حيث هو شارح للحق ومبين له . ولا نريد في هذا المقام ان نتعرض لما يقوله الكثيرون من ان هذه القصة ليست إلا اسطورة من الاساطير الرومانية لأن هذا التعرض لا يليق بهذا المقام . وقد يكفي في هذا الموطن ان نحيلك إلى دائرة المعارف لترى مايذكره الذاكرون هناك .

* * *

والشارحون لمعنى كلمة الحق في القرآن الكريم من أمثال الراغب الاصفهاني في كتابه المفردات في غريب القرآن يذهبون إلى ان الحق كلمة او صفه يوصف بها في بعض الاحيان الفعل أو العمل الذي يجيء على مقتضى الحكمة . كما قد تجيء وصفاً للفعل أو القول الذي يكون بحسب ما يجب وفي الوقت الذي يجب .

وعلى الاساس السابق لاستعمال لفظة الحق في القرآن الكريم لو انك قصصت قصة خيالية على طفل صغير أو انسان كبير تقصد بها ردعه وزجره أو تربيته وتهذيبه أو حتى ادخال السرور على قلبه وتنشيط همته واحدث القص ما اليه قصدت فهذه القصة حق . هي حق لا من حيث الاحداث والاشخاص فهما كما ذكرنا من نسيج الخيال وانما من حيث الأثر النفسي الذي تحدثه القصة أي من حيث الوصول إلى الهدف وتحقيق المقاصد والاغراض . هذا الذي نقول به على هذا الوجه هو الذي التفت اليه القاضي

عبد الجبار عند حديثه فى كتابه تنزيه القرآن عن المطاعن عن قصة المباهلة وإليك أولا ما قال .

يقول القاضى الفاضل فى ص ٦٢ من كتابه ما يلى (مسألة . وربما قيل فى قوله تعالى فمن حاجك فيه من بعد ماجاءك من العلم فقل تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم .

كيف ترفع محاجة النصارى فى عيسى إذ قالوا انه الله . وانه ابن الله . ومحاجة اليهود اذ كذبوا بولادته من غير ذكر بالمباهلة التى ذكرها الله ؟

وجوابنا ان الحجة فى ابطال قولهم اذا ظهرت ولم يقع القبول وعلم الله تعالى ان فى المباهلة مصلحة لم يمنع ذلك . ومعلوم ان عند المباهلة والملاعنة يخاف المبطل فربما يكون ذلك من سبب تركه الباطل اما ظاهرا واما باطنا ولذلك قال تعالى بعده « ان هذا لهو القصص الحق » لأن ما ينذر ويخوف يوصف بذلك . » انتهى

وواضح من قول القاضى عبد الجبار ان المباهلة لم تكن إلا للتخويف وان الخوف من العوامل التى تدعو الانسان الى ترك الباطل وان ما يبعث الخوف يوصف بالحق .

١ القصة التى تبعث الخوف وتدفع الى ترك الباطل توصف بانها حق . توصف بهذه الصفة لا من حيث وقوعها أو عدم الوقوع وإنما من حيث بعثها للخوف واستثارتها له لأن ما ينذر ويخوف يوصف بذلك .

المسألة على هذا القول فى غاية الوضوح ولا تحتاج الى دليل أو برهان .

على اننا نستطيع ان نفسر المسألة من وجهه نظر اخرى هى التالية :

يذهب بعض المفسرين الى التفرقة بين الحكاية أى بين جسم القصة أو هيكلها وبين ما فيها من توجيهات دينية أو اجتماعية . ويذهب هؤلاء الى

ان الجسم أو الهيكل غير مقصود وان المقصود من عمليه القص القرآنية ليس إلا هذه التوجيهات . ليس إلا مافى القصة من المعانى الدينية والخلقية والقيم الاجتماعية والنفسية : ويذهب هؤلاء أيضا الى ان المشركين قد ضلوا السبيل حين اعتقدوا ان المقصود من عملية القص القرآنية هو الحكاية وانه من هنا ذهبوا الى ما ذهبوا اليه من عد القصص القرآنى من الاساطير وها هى بعض العبارات من كتب هؤلاء المفسرين .

جاء فى الرزاى ح ٤ ص ٥٩١ عند تفسيره لقوله تعالى : بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ما يلى ، الأول انهم كلما سمعوا شيئا من القصص قالوا ليس فى هذا الكتاب إلا أساطير الأولين ولم يعرفوا ان المقصود منها ليس هو نفس الحكاية بل أمور اخرى مغايرة لها .

وجاء فى النيسابورى ح ١١ ص ٨٥ هامش الطبرى عند تفسيره للآية السابقة مايلى . وذلك انما حملهم على التكذيب أولا وآخراً وجوه منها انهم وجدوا فى القرآن أقاصيص الأولين ولم يعرفوا المقصود منها فقالوا اساطير الاولين وخفى عليهم ان الغرض منها بيان قدرة الله تعالى على التصرف فى هذا العالم ونقل الأمم من العز الى الذل وبالعكس ليعرف المكلف ان الدنيا ليست مما يبقى فنهاية كل حركة سكون وغاية كل سكون الا يكون ، كقوله عز من قائل لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب .

ويمضى الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده إلى ابعد من هذين حين يقول عند تفسيره لقصة هاروت وماروت من سورة البقرة مايلى فيما نقل عنه صاحب المنار ح ١ ص ٣٩٩ ، قال الاستاذ الامام ما مثاله . بينا غير مرة ان القصص جاءت فى القرآن لاجل الموعظة والاعتبار لا لبيان التاريخ ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيات الأخبار عند الغابرين وإنه ليحكى من عقائدهم الحق

والباطل ومن تقاليدهم الصادق والكاذب ومن عاداتهم النافع والضار لأجل الموعظة والاعتبار فحكاية القرآن لا تعدو موضع العبرة ولا تتجاوز مواطن الهداية ولابد أن يأتى فى العبارة أو السياق وأسلوب النظم مايدل على استحسان الحسن واستهجان القبيح .

وقد يأتى فى الحكاية بالتعبيرات المستعملة عند المخاطبين أو المحكى عنهم وإن لم تكن صحيحة فى نفسها كقوله « كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » وكقوله « بلغ مطلع الشمس » وهذا الأسلوب مألوف فاننا نرى كثير من كتاب العربية وكتاب الأفرنج يذكرون آلهة الخير والشر فى فى خطبهم ومقالاتهم لاسيما فى سياق كلامهم عن اليونان والمصريين القدماء ولا يعتقد أحد منهم شيئا من تلك الخرافات الوثنية ...

إذ الواضح أن الأستاذ الإمام يجيز أن يكون فى التعبير القرآنى قصصاً وغير قصص أثر للأساطير إجراء للعبارات على تلك الظواهر الخرافية لأنه يحكى من عقائدهم الحق والباطل كما يجيز أن يكون القرآن قد أجرى أساليبه كما هو المعروف عند الأدباء بجعل الخرافات الوثنية اداة للتعبيرات البلاغية .

يجيز الأستاذ الإمام هذا كله إلى جانب نصه الصريح الواضح على أن التاريخ غير مقصود .

والآن إذا كانت المعانى التاريخية غير مقصودة فهل يجىء من يقول بأن صفة الحق إنما تنصب على هذه المعانى ؟ أعتقد أن لا .

المقصود بالصفة هو الهدف الذى يقصد إليه القرآن من القصص فالحق هنا ليس المعانى التاريخية وإنما هى المعانى الدينية والخلقية ، الخ . تلك التى قصد إليها القرآن من عملية القصص .

* * *

هذه تفسيرات مختلفة لهذة الصفة لك أن تقبل منها ما تشاء . وأن ترفض ما تشاء ولك أن تفهم إلى جانبها أن القصة الفنية قد تختار احداثها وأشخاصها من التاريخ ومن واقع الحياة وليس يلزم حتما حين تقول بأن القصـــة فى القرآن عمل فنى أن نقول إن فنية القصة فى القرآن إنما تجيء من أن عناصرها من نتاج الخيال .

لا يلزم هذا ويجب الا يفهم قولى على اطلاقه وإنما هى الحلول التى نضعها لنفسح مجال القول أمام الدارسين ونمكن العقل الإسلامى من أن يفهم القصص القرآنى على أسس أدبيه ، أسس لم نجيء بها من عندنا وإنما وقفنا عليها من ملاحظة الظواهر الفنيةوالأدبيةالتى تجرى عليها عملية القص فى القرآن

وفى الختام أرجو أن أكون قد قدمت ما فيه الخير .

والسلام عليكم ورحمة الله .

القاهرة　　　　　　محمد احمد خلف الله

تمهيد

أريد أن أوضح فى هذا التمهيد شيئين . الأول منهما الأسباب التى دفعتنى إلى اختيار هذا الموضوع موضوع الفن القصصى فى القرآن الكريم والثانى المنهج التى سرت عليه فى دراسته .

أما الأسباب التى جعلتنى أعنى بالدراسة الأدبية وأجعل من القرآن ميدان أبحاثى فيها فترجع قبل كل شىء إلى نوع من الاستهواء عمل على إذاعته فى نفسى درس أستاذنا الخولى عن المنهج الأدبى فى فهم القرآن وتفسيره فقد كانت تلك اللفتات تستقر فى نفسى استقرارا يجعلنى أتخيل أنى أستطيع تمثل هذا المنهج والسير عليه فى تفسير كتاب الله .

ساعد على هذا التخيل ونماه فى نفسى تلك التربية الدينية التى لاحقتنى صغيرا والتى جعلتنى أومن إيمانا قويا بأن العقلية الاسلامية الحقة إنما تظهر سافرة مشرقة فى الجانب الدينى والتشريعى من جوانب الثقافة الاسلامية . ومن هنا كنت أعتقد أنى من أحق طلاب قسم اللغة العربية بكلية الآداب وأجدرهم على السير فى هذه السبيل والضرب فيها بخطا ثابته .

وكان منهج الأصوليين فى البحث فى المقدمات اللغوية وفهم النصوص القرآنية حين يستخرجون الأحكام ويضبطون أمور التشريع من العوامل التى تغرينى أيضا فعقدت العزم على أن أصنع صنيعهم فى القرآن فى غير باب التشريع . عقدت العزم على أن أجمع الآيات المتعلقة بجزئيه من الجزئيات أو مسألة من المسائل فأرتبها الترتيب التاريخى وأفهمها الفهم الذى يساعدنى على استخلاص الحقائق وتوضيح ما تشتمل عليه من أفكار وآراء

دفعتنى كل هذه الأشياء إلى القرآن فطاوعتها وأخذت موضوعى الأول « جدل القرآن الكريم » موضوعا لدراسة الماجستير .

اخترته وما كنت قد تبينت تماما ذلك المنهج الأدبى فلم تكن أصوله قد استقرت فى نفسى استقرار الحقائق الواضحة وما كنت أطمع فى أكثر من دراسة القرآن على منهج الأصوليين فى الدرس فان انحرفت فاستجابة لشىء مبهم لم يتضح بعد الوضوح الكافى .

لكنى ما لبثت أن تبينت حقيقة ذهلت لها أول الأمر فقد تبينت أن القرآن نفسه اعتمد على ما يعتمد عليه أصحاب الدعوات من عوامل وأنه صور العوامل النفسية للدعوات ولفت الذهن إلى الفاعلية القوية التى تكمن فى الألفاظ وعرف للدعاية والرقابة سلطانهما ففرضهما على النبى عليه السلام وعلى المؤمنين بالقدر الذى كانت تسمح به الظروف فى هاتيك الأيام .

ومضيت فى الدرس فاستقر فى نفسى شىء آخر هو أن تلك الآراء التى يثبتها المفسرون على أنها متعارضة وتلك المذاهب العديدة التى توزعتها الفرق الدينية المختلفة لعلها قامت على غير أساس . قامت لأن قصد القرآن من استعمال الألفاظ لم يفهم تماما . وقامت لأنه استقر فى ذهن المؤمنين بها أن المطلوب من وراء الألفاظ ليس شيئا غير المعانى . وقامت لأن هذه الفرق قد حددت المعنى حيثما استقر فى ذهن أصحابها من وراثة أو تلقين . وعلى الجملة قامت لأن هذه الجماعات كانت تفرض آراءها ومعتقداتها على القرآن ولم تفهم القرآن الكريم فهما سديدا قائما على أسس سليمة من الدرس والفهم والتى من أولها ألا نفرض ثقافتنا وعلمنا وفلسفتنا على النصوص التى أمامنا وإنما نحاول جاهدين الوقوف على ما فى هذه النصوص من قيم ومن آراء ومعتقدات ومن أفكار علمية واجتماعية يدل عليها النص

نفسه ويوحى بها ويشير إليها حتى ولو لم تتفق هذه الأفكار وما به ندين .

وإذا اردنا أن نضع بين يديك ألوانا من هذه المثل فلن نجد خيرا من هذين المثلين .

(١) فى تفسير المفسرين لقوله تعالى « يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم تنزيل العزيز الرحيم لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » نجد كثيرا من الآراء المتعلقة بالمشكلة الفلسفية مشكلة القضاء والقدر وخلق الأفعال هى التى تملى على المفسرين أقوالهم فى الآية حتى لنرى الطبرى — وهو أبعد المفسرين عن حشو كتابه بآراء الفرق الدينية — يقول « يقول تعالى ذكره وسواء يا محمد على هؤلاء الذين حق عليهم القول أى الأمرين كان منك إليهم الانذار أو ترك الانذار فأنهم لا يؤمنون لأن الله قد حكم عليهم بذلك » وهو قول يدعو إلى العجب من غير شك إذ الناظر فى هذه الآيات وفى أمثالها يرى أنها وصف أدبى دال يعبر أقوى تعبير عن حال اولئك الذين أثقلتهم التقاليد وطال عليهم الأمد فقست قلوبهم . وأولئك الذين تمكنت منهم العقائد الباطلة حتى لينظرون إلى الوجود من خلالها . ولم يرد القرآن الكريم فيما نرى تلك الأشياء التى وقف عندها المفسرون وبخاصة الرازى من أدلة الفرق الدينية وجدلها العقيم فأطالوا الوقوف وذكروا منها ما يباعد بين المرء وبين الفهم السديد للقرآن الكريم . بل ذكروا ما يفسد ذوقه الأدبى وحسه بوقع الألفاظ على النفس الانسانية وما يلفت الذهن إلى قضايا عقلية كان من الخير له وللقرآن الاعراض عنها .

إن ختام هذه الآيات يشرح لنا ما يريده القرآن أجمل شرح ويوضح لنا ظاهرة اجتماعية تحدث مع كل دعوة وتوجد فى كل زمان ومكان إذ نفوس النـــاس مختلفة واستعداداتهم متفاوتة وقدرتهم على التخلص من القديم والاستجابة للجديد تتوقف إلى حد كبير على ما يحيط بهم من ظروف وما يلم بهم من أحداث وما يعده الزمن للمستقبل من رجال أحرار يحاولون النهوض بأمتهم والأخذ بيدها فى طريق التقدم والرقى ومن هنا نرى القرآن الكريم يقابل فى الآيات السابقة بين صنفين من الناس . صنف عدم القادة فأثقلتهم التقاليد وتمكنت من نفوسهم العقائد وهؤلاء هم الذين وصفهم القرآن الكريم بقوله تعالى « لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون » . وصنف استعدت نفوسهم وتهيأت لأمثال هذه الدعوات وهم الذين قال فيهم « إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب » .

ونستطيع أن نمضى مع هـــذه الآيات وكثير غيرها فترى أن القرآن الكريم يقصد إلى هذه الظاهرة فيصورها ويصور استعدادات النفوس فأن اختلاف التصوير فلأمر يقصد كأن يكون القصد التسرية عن النبى عليه السلام وإزالة الهم والغم عن نفسه . أو يكون تنفير هؤلاء وأمثالهم من ذلك الموقف الذى يحيط به الجمود من كل النواحى . كما قد يكون غير هذين من أمور يستطيع الباحث الوقوف عليها . ولكن لن يكون منها فيما نعتقد ذلك الذى ذهب إليه المفسرون من أن المولى سبحانه وتعالى قد حكم عليهم بعدم الايمان فى المستقبل ولسنا بحاجة إلى القول بأن كثيرا من هؤلاء الذين وصفهم القرآن الكريم بهذه الصفات قد آمنوا عام الوفود وعام فتح مكه فهذه أمور قد تكفل بها التاريخ .

(١) وفى تفسير المفسرين أوفى محاولاتهم للتوفيق بين ألفاظ الجان والثعبان والحية من قصص موسى نراهم يهتمون بالمعانى ويعرضون عما

تثيره الألفاظ من انفعالات وأحاسيس ومن هنا لا يوفقون إلى الفهم الصحيح فيما نعتقد . يقول صاحب الكشاف فى تفسيره لقصة موسى من سورة طه « فأن قلت كيف ذكرت بألفاظ مختلفة بالحية والجان والثعبان قلت . أما الحية فاسم جنس يقع على الذكر والأنثى والصغير والكبير وأما الثعبان والجان فبينهما تناف لأن الثعبان العظيم من الحيات والجان الدقيق وفى ذلك وجهان أحدهما أنها كانت وقت انقلابها حية حلا لها تنقلب حية صفراء دقيقة ثم تتورم ويتزايد جرمها حتى تصير ثعبانا فأريد بالجان أول حالها وبالثعبان مآلها . والثانى أنها كانت فى شخص الثعبان وسرعة حركة الجان والدليل عليه قوله تعالى فلما رآها تهتز كأنها جان . وقيل كان لها عرف كعرف الفرس وقيل كان بين لحييها أربعون ذراعا » .

وصاحب الكشاف ومن تابعه يعتقدون أنهم بهذا القول قد خرجوا من تناقض وأن القرآن قد سلم من اعتراض وإنه لتناقض دفع إليه الوهم وساعد عليه ما فى قصة الخروج من الجنة من اختلاف بين التوراة والقرآن فقد ساعد على خروج آدم من الجنة إبليس فى القرآن والحية فى التوراة ووفق الموفقون بين القولين وانتهو إلى أن الجان نوع من الحيات .

إن القوم لو تدبروا قليلا لما احتاجوا إلى مثل هذه الوقفة فالقرآن فى استعماله لهذه الألفاظ إنما يقصد إلى ما تثيره الألفاظ من انفعالات وما توحى به من عواطف وهو فى هذه الآيات إنما يستعمل لفظ الجان حين يقصد إلى الحديث عن موسى عليه السلام لتصوير عاطفة الخوف وغريزة الهرب وذلك عند رؤيته العصا تتحرك ولذا نراه يقول بعد لفظ الجان « ولى مدبرا » والجان فيما نرى مثير للخوف ينفر منه الناس ويولون ما أسعفتهم أرجلهم . ويستعمل القرآن لفظ الثعبان أو الحية حين يقصد

إلى تصوير ما حصل بين موسى والسحرة أو موسى وفرعون وبعبارة أخرى حين لا يقصد إلى تصوير خوف موسى حين رأى العصا تهتز .

ثم مضيت وكلما ازددت مضاء استقرّ المنهج الأدبي في نفسي فازددت تعلقا بالقرآن ودرسه وتنبه ذهني إلى كثير من موضوعاته التي يمكن أن يكون منها موضوع رسالة الدكتوراه .

كان القصص القرآني من الموضوعات التي اتجه إليها ذهني منذ اللحظة الأولى وكان السبب في ذلك أن القصص كان من أهم العوامل النفسية التي لجأ إليها القرآن في الجدل والحوار وفي البشارة والأنذار وفي شرح مبادىء الدعوة الاسلامية والتمكين لها وفي تثبيت قلب النبي عليه السلام وقلوب من اتبعه من المهاجرين والأنصار .

اتجه ذهني إلى القصص القرآني ولم أكن قد قدرت بعد سلطان القصة في الجزيرة العربية في ذلك الوقت ولم أكن قد عرفت بعد أنها الوسيلة التي كانت تلجأ إليها المعارضة حين تحاول الكيد للنبي عليه السلام والتحدى للقرآن الكريم . ولم أكن قد وقفت بعد على ما يروونه عن النضر بن الحارث وكيف كان يجلس إلى الناس كما كان يجلس محمد عليه السلام وكيف كانت قريش تستملح حديثه حتى لتنصرف عن النبي إليه حين يقص على الجماعات أخبار فارس وقصص رستم واسفنديار .

لم أكن قد وقفت على شيء من هذا ولذا لم أكد أقف عليه وأتأمله حتى قرّ في نفسي أن يكون « الفن القصصي في القرآن الكريم » موضوع رسالتي المقبلة رسالة الدكتوراه .

على أني لم ألبث أن تبينت أسبابا أخرى أكدت في نفسي ما سبق فقد لاحظت أن أئمة الدين والتفسير يعدون القصص القرآني من المتشابه

وأن الملاحدة ومن نحا نحوهم من مبشرين ومستشرقين قد وجدوا منه الثغرة التي ينفذون منها للطعن على النبي وفي القرآن الكريم .

هنا حلا لي الوقوف فأطلت وإليك ماعن من ملاحظات .

لاحظت أن السبب في موقف أولئك وهؤلاء من القرآن يرجع في جملته وفي تفصيله إلى ذلك المنهج المنحرف الذي جرى القوم عليه والذي دفعهم إلى دراسة القصص القرآني كما تدرس الوثائق التاريخية لا كما تدرس النصوص الدينية والنصوص الأدبية البليغة أو المعجزة ومن هنا وقفت لأدرس القصص القرآني على منهج الأصوليين واللغويين والأدباء عسى العقد أن تحل وعسى المشكلات أن تزول وعسى هذا الباب الذي يلج منه الملاحدة والمبشرون أن يوصد إلى غير رجعة إن شاء الله .

ولاحظت أن الوحدة القصصية في القرآن الكريم لا تدور بحال من الأحوال حول شخصيات الرسل والأنبياء عليهم السلام وإنما تقوم قبل كل شيء وبعد كل شيء على الموضوعات الدينية والأغراض القصصية من اجتماعية وخلقية ومن هنا تبينت لماذا عدَّ القدماء من المفسرين القصص القرآني من المتشابه .

ولاحظت أن القرآن لم يقصد إلى التاريخ من حيث هو تاريخ إلا في النادر الذي لا حكم له وأنه على العكس من ذلك عمد إلى إبهام مقومات التاريخ من زمان ومكان ومن هنا تبينت أن القوم قد عكسوا القضية حين شغلوا أنفسهم بالبحث عن مقومات التاريخ وهي غير مقصودة وأهملوا المقاصد الحقيقية للقصص القرآني . ولو أنهم شغلوا أنفسهم بتلك المقاصد الحقة لأراحوا أنفسهم من عناء كبير ولأبرزوا الجوانب الدينية والاجتماعية من القصص القرآني إبرازا ملموسا يهز المشاعر والعواطف ويؤثر في

العقول والقلوب وعند ذلك كانوا يمكنون للدين وقضاياه ويسيرون وهدى القرآن الكريم .

ولاحظت أن القوم أعرضوا عن الوقوف عند الأحداث والأشخاص من حيث تصويرها تصويرا معجزا رائعا ووقفوا عندها من حيث هي أداة من أدوات التاريخ ومن هنا أخذوا يسألون أنفسهم أسئلة عقدت القصص القرآني أمامهم فكانوا يسألون مثلا عن الحادثة أوقعت أم لم تقع ؟ وإذا كانت قد وقعت فمن الذي أوقعها ؟ واين ومتى ؟ إلى غير ذلك من أسئلة حالت العناية بها بينهم وبين الوقوف على القصد الذي يرمى إليه القرآن من تصويره للأحداث من حيث هي أدوات ترغيب وترهيب وموعظة وعبره وهداية وإرشاد ولو أن القوم درسوا الصيغ المعبرة عن الأحداث على هذا الأساس لأراحوا واستراحوا وفطنوا إلى أمور كثيرة من أسرار الأعجاز ولعرفوا الفاعلية القوية لسحر الألفاظ .

ولاحظت أخيرا أن المستشرقين قد عجزوا عجزا يكاد يكون تاما عن فهم أسلوب القرآن الكريم وطريقته فى بناء القصة وتركيبها وعن الوحدة التى يقوم عليها فن البناء والتركيب ومن هنا ذهبوا إلى ذلك الرأى الخاطىء القائل بتطور الشخصية فى القرآن الكريم . كما رأيتهم قد عجزوا عن فهم طبيعة المواد القصصية فى القرآن وعن اسرار اختيارها ومن هنا ذهبوا إلى ذلك الرأى الذى سبقهم إليه المشركون من أهل مكة والملاحدة من المسلمين من القول بأن الذى يعلم محمدا بشر وأن بالقرآن أخطاء من أخطاء التاريخ . ولو أنهم فهموا أسرار القرآن لما كان منهم ذلك القول الذى يدل على جرأة على الحق وبعد عن روح العلم وهى مما لا يحب العلماء أن تكون من صفاتهم .

لاحظت كل هـذه الأشياء فأكدت فى نفسى كما قلت عوامل اختيـار الفن القصصى فى القرآن الـكريم ومنيت النفس بحل المشكلات وإزالة الشبه وإنى لأعتقد أنك سترى من ذلك ما يعجبك وما يرضيك .

وهنا جد فى الأمر جـديد هو من الخطورة بمـكان . هو أن القصص القرانى يحقق غرضا منهجيا فى الدراسة الأدبية الجامعية . غرضاً منهجياً حادت عنه كليتنا أو قسمنا على أقل تقدير مع أنه المنهج السليم فـيما أرى واليك البيـان .

كنت قد أحسست بحاجتى الملحة إلى الإطلاع على ما يفعله علماء الغرب حين يدرسون الأدب وتاريخـه فاستجبت لهـذا الإحساس وقرأت بعض الـكتب التى تعالج هذه المسائل وكان مما قرأت تلك المجموعة من الأبحاث التى قام بها الأدباء وعلماء الأدب من الانجليز وأخرجتها جامعة اكسفورد على أساس من الدراسة فريد فلقد قامت دراسة هؤلاء على أن الأدب تجربة وتقليد وأن الدراسة التاريخية له على هذا الأساس يجب أن تبدأ معـه وهو وليد .

وقامت هـذه الدراسة أيضا على أساس أن كل لون من ألوان الأدب يكتب فى تاريخه إثنان مؤرخ للأدب وأديب فيكتب فى الشعر مؤرخ للشعر وشاعر ويكتب فى القصة مؤرخ للقصة وقصاص وفى النثر الفنى مؤرخ للنثر وكاتب وهكذا .

ثم كان مما قرأت أيضا ذلك البحث القيم الذى كتبه عن المنهج الأدبى لانسون وعربه مندور قرأت هذه الـكتب فانتهت بى القراءة الى الإحساس بالمفارقة العجيبة التى توجد بين ما تصورته للدراسة الأدبية من منهج وما علية نسير .

تصورت أن القوم يفرقون بين دراستهم للنصوص دراسة أدبية وبين قراءة هذه النصوص للاستمتاع واللذة وترضية العواطف والشعور .

وتصورت أنهم حين يدرسونها دراسة أدبية يعنون العناية التامة بالتفرقة بين ما فيها قيم عقلية وما فيها من قيم عاطفية وأخرى فنية أو بلاغية .

وتصورت أنهم لايصدرون حكما من الأحكام الأدبية على شاعر أو مدرسة أدبية أو مذهب فنى أو حتى على عصر من العصور وبيئة من البيئات إلا بعد استكمال الوسائل التى تمكنهم من الحكم على هذا أو ذاك .

وتصورت أن أولى هذه الوسائل هى الوقوف على المواد التى يجب درسها قبل اصدار الحكم ومن هنا رأيتهم حينما يحاولون اصدار حكم أدبى يتطلبون استكمال هذه المواد .

أولا — النصوص الأدبيه فيجمعونها ويحققونها ويدرسونها دراسة أدبية عميقة توضح الظواهر العقلية والعاطفية والفنية وتفسرها تفسيراً واضحا مقبولا .

ثانياً — وهم ثانيا لا يفسرون خصائص الأديب الشاعر أو الناثر كما لا يفسرون خصائص المدرسة أو المذهب والعصر أو البيئة الا على أسس ثابتة .

فالخصائص التى لا يشرك الأديب فيها غيره هى خصائصه المميزة والخصائص التى يشركه فيها غيره هى خصائص المدرسة أو المذهب فان كانت من الخصائص العامة التى تعم البيئة أو تجاوزها فهى خصائص العصر أو البيئة وهكذا .

ثالثاً — وهم ثالثا لا يستطيعون الحكم الأدبى على عصر من العصور أو مدرسة من المدارس ويتبينون خصيصته المميزة إلا بعد الوقوف على الخصائص المميزة لكل عصر من العصور السابقة .

انهم يتطلبون فى الدراسة القيمة للتاريخ الأدبى أن تسير سيرا منطقيا مسلسلا وأن تبدأ مع الأدب فتخطو معه خطواته الأولى وتشركه فى الحياة منذ أن تدب فيه .

انهم يسلسلون التيارات الأدبية ويحللون ما فيها من قيم ويصورون لنا الحياة العقلية بما فيها من فلسفة وعلم والحياة الفنية بما فيها من مذاهب وصور للتعبير .

وفرق كبير بين ما عليه هؤلاء وما عليه تسير وإنه لفرق يشعرنا بالنقص الذى يجب علينا أن نتداركه وإلا ضاعت قيمة العلم والتعليم وتستطيع أن تفكر معى فى هذا المثال .

هذان بحثان أخرجهما زميل من الزملاء هما الفن ومذاهبه فى الشعر وقد كان رسالة لنيل درجة الدكتوراه والفن ومذاهبه فى النثر وقد خرج بعد الأول بثلاثة أعوام فهل نستطيع أن نتصور أنهما أخرجا إخراجا علميا سليما؟

إن اخراج هذين يحتاج الى درس نستطيع أن نعده فى حكم المستحيل من حيث ما يتطلبه من دقة علمية واستقصاء فى البحث ذلك لأن هذا الإخراج يتطلب قبل كل شىء الوقوف على المواد الأدبية أو على النصوص وتصور معى طول الزمن واتساع الرقعة فهذا الأدب العربى يطول ويطول حتى يطوى خمسة عشر قرنا أو تزيد . وهذه الرقعة تتسع وتتسع حتى لتجاوز القارة الواحدة الى القارات فانها تشمل بلاد العرب بما فيها الحجاز واليمن

وتشمل بلاد الشام بما فيها سوريا ولبنان وفلسطين وشرقى الأردن وتشمل العراق . ثم هى تنتقل من آسيا الى إفريقية فتشمل مصر وشمال افريقية طرابلس وتونس والجزائر ومراكش . ثم تنتقل الى القارة الأوروبية فتشمل بلاد الأندلس

ثم تصور معى الى جانب طول الزمن واتساع الرقعة ما تراكم فيها من تراث فهناك الشعر العربى كله وهناك النثر العربى كله بمـــا فيه من خطب ومقالات ورسائل وحكايات وكتب مختلفة الألوان وقصص ومقامات .

تصور كل هذا ما طبع وما لايزال مخطوطا وقل لى هـــل استطاع صاحبنا جمع هذا التراث والوقوف عليه فى دقة واستقصاء ؟ واذا كان فهل استطاع أن يدرسه حقا ؟ واذا كان فهل استطاع من هذه الدراسة الوقوف على كل ما فيه من ظواهر عقلية وأخرى عاطفية وثالثة فنيـة أو بلاغية ؟ واذا كان فهل استطاع أن يفسر هذه الظواهر تفسيراً سليما ؟ واذا كان فهل استطاع أن يسلسل الصور التعبيرية من استعمال للألفاظ وبناء للجمل والتراكيب والرسائل والقصص والمقامات ...الخ ؟ واذا كان فهـــل اقام الفروق فى كل هذا على الخصائص المميزة لكل من الأديب ثم المدرسة والمذهب ثم العصر والبيئة ؟ . ان قلت نعم فانى اقول كلا والف مرة كلا اللهم الا اذا كان صاحبى ممن يصنعون الخوارق وممن تجرى على ايديهم المعجزات .

ان اختيارنا لأمثال هذه الموضوعات يباعد بيننا وبين الدرس العلمى الصحيح ومن هنا يكون كل مانصنعه أننا نقرأ ما كتب عن هذه النصوص نفسها وأنا نسجل من الأحكام الادبية قضايا عامة لم تمحص ولم تدقق ومن هنا يكون العلم منها براء .

ان الخطة العلمية الجامعية عندنا تسير على غير هدى وبينه ومن هنا نعرض كثيرا عن الجزئيات ونجرى سراعا الى الامور العامة وهـــذا هو البلاء .

اننا فى حاجة الى أن نبدأ أمع الادب وهو وليدو نسايره فى النمو حتى تكون الاحكام صادقة ويكون الدرس العلمى منتجا وتسدد فى كليتنا الخطوات

هذا هو الجديد الذى قوى فى نفسى اختيار الفن القصصى فى القرآن الكريم فقد رأيت هذا الموضوع يحقق هذا المنهج من حيث أن القصص القرآنى نقطة البدء فى دراسة القصة العربية عامة والدينية بصفة خاصة ولا اخالك فى حاجة الى أن أدلك على أن ما سبق القصص القرآنى من قصص عربى لا يصلح أن يكون مادة للدراسة الادبية للقصة بحال من الاحوال وليس ذلك الا لانه لم يصلنا سليما وكل ماحوفظ عليه فيه هو قيمته الفكرية وأنه من هنا يصلح لدراسة التيارات العقلية ولا يصلح لدراسة التيارات الفنية

ان القصص القرآنى هو القصص الذى وصلنا سليما وهو الذى نثق به ونطمئن اليه ومن هنا نستطيع أن نعتبره الصورة الاولى للقصة العربية .

هذه الامور مجتمعة هى التى دفعتنى الى اختيار هـــذا الموضوع وإنى لأرجو أن أكون فى درسه من الموفقين .

المنهـــج

وأستطيع الآن أن أوضح المنهج وأن اصور الخطوات التى سرت عليها أثناء الدرس لهـــذا الموضوع . وهى خطوات قد تعتبر جديدة بالنسبة لموضوعنا هذا فلم يسبق أن درس القصص القرآنى على هذا الأساس الأدبى الذى يصور ما فيه من ظواهر أدبية هى سر قوته واعجازه . ثم هى جديدة أيضا إذا فهمنا أن ليست هناك مناهج عامة تصلح لكل شىء اذ لكل مشكلة حلها الخاص بها ومنهجها الذى تعالج أو تدرس بمقتضاه والسبب فى ذلك سهل يسير فنحن نعرف أن لكل مشكلة ظروفها المحيطة بها ولكل مسألة أدبية أو بلاغية عواملهـــا الخاصة التى لعبت دورا مهما فى تكوينها والتى لاتحل المشكلة حـــلا دقيقا أو سليما إلا إذا نظرنا فى بحثها إلى أثر تلك الظروف أو هذه العوامل .

وهذه الخطوات ذاتها قد تعتبر قديمة اذا نظرنا اليها على أنها مستقاه من كتب المناهج أو من الواقع العملى لما يفعله النقاد وكبار رجال الأدب حين يدرسون الآثار الأدبية والفنية ولقد مكنتنى متابعتى لما يفعله هؤلاء من الوقوف على أساليب مختلفة فى تسجيل الظواهر بعد الوقوع عليها وفى تفسيرها تفسيرا أدبيا معقولا كما علمتنى كيف اتذوق تذوقا أدبيا عميقا .

ولعل أهم ما أفادتنى هذه الخبرة هو أن القصد من أى بحث يلعب دوراً كبيراً فى تشكيل منهجه وفى رسم خطته ومن هنا كان من الحتم أن نلتفت سويا إلى الوراء وأن نذكر الأسباب التى دفعنى الى اختيار هذا الموضوع اذ

منها يتبين القصد .

والآن نستطيع أن نعرض عليك الخطوات :ـ

أولا - جمع النصوص ١ - اذا كانت معرفة نص ما تستلزم حتما وجوده كانت أولى الخطوات من غير شك هى الوقوف على النصوص وجمعها وانى لأعترف بأنى لم أجد فى موضوعى هذا من حيث هذه الناحية عناء يذكر . ذلك لأن القصص القرآنى موجود فى القرآن والقرآن قد جمع فى المصاحف أصدق جمع وأدقة بالنسبة لما عاصره من نصوص حتى بالنسبة لأحاديث الرسول عليه السلام . ومن هنا لم يكن عملى فى هذه المرحلة إلا الرجوع الى المصحف وقراءة القرآن الكريم للوقوف على ما فيه من أقاصيص .

وأنى لأعترف هنا أيضا بأنى قد اكتفيت فى استخراج الأقاصيص القرآنية بحد للقصة غير جامع ولا مانع إذا كان لابد من الحدود الأدبية للقصة القرآنية وهذه هى موطن البحث والدرس والا لزم الدور .

اكتفيت إذا بحد اللغويين والمفسرين للقصة حين هممت بالجمع والتسجيل وأرجأت الحد الأدبى إلى ما بعد الدرس والبحث . وسنقف على هذا التعريف الأدبى فى الفصل الأول من الباب الثانى إن شاء الله .

ثانياً — الترتيب التاريخى للنصوص . وهذا الترتيب يدل الباحثين على التطور فى الفنون والآداب ويستوى فى ذلك عندهم التطور الداخلى والتطور الخارجى . ونقصد بالأول أن يدلنا هذا الترتيب على تطور ذوق الكاتب وأفكاره أو ميادينه الفنية ونشاطه النفسى . ونقصد بالثانى دلالة النص على التطور العام لتاريخ الآداب والفنون من حيث صلته بالسابق واللاحق

والدور الذى لعبه النص فى الحياة الأدبية ومجراها العام .

وانى لأعترف هنا أيضا بأن هذه الخطوة وان تكن أشق من الأولى وأعسر الا انى لم أبذل فيها جهداً يذكر ذلك لأنى اعتمدت فى هذا الترتيب التاريخى للقصص القرآنى على المصحف الملكى وان كنت أعلم أنه ليس بالترتيب التاريخى الدقيق لكن ليس فى الإمكان أبدع مما كان .

ولكنى اعترف الى جانب هذا بأن ذلك الترتيب كان عظيم الفائدة فى دراسة القصص القرآنى وصلته بالبيئة و نفسية النبى وتطور الدعوة الإسلامية فلقد كان مرآه صادقة لكل ما يصادف الدعوة من عقبات كما كان الصورة الصادقة لما يعانيه النبى عليه السلام من أزمات نفسية وعاطفية .

وعلى كل فقد أفادنى هذا الترتيب التاريخى فيما يخص القصص القرآنى بدراسه التطور الداخلى لهذا القصص وشرحت ذلك فى فصلين هما تطور الفن القصصى فى القرآن . القصص القرآنى ونفسية الرسول عليه السلام .

أما التطور الخارجى فقد حالت بينى و بينه عقبات . منها أن الوقوف على النصوص السابقة للقصص القرآنى من أقاصيص الجاهليين لاسبيل اليها ومنها أن صلة القصص القرآنى باللاحق يتوقف أولا على صلته بالمعاصر من أحاديث الرسول وهـــذه من الأمور التى سأفرغ لهـا بعد بحثى هذا إن شاء الله .

وقفت من هذه الخطوة إذاً عند الفائدة التى تجنيها من التطور الداخلى وحسبى هذا فى هذا الموضع . ونظره إلى ميسرة .

ثانيا — فهم النصوص :— وهنا لابد من التفرقة بين نوعين من الفهم الأول الفهم الحرفى وهو الذى يقوم على دراسة معنى الالفاظ والتراكيب

والجمل كما يقوم على توضيح العلاقات الغامضة والإشارات التاريخية وكل تلك أمور تتوقف إلى حد كبير على ثقافة الدارس تلك الثقافة التى شرطها بالنسبة لموضوعنا هذا المفسرون للمفسر والتى حدد ميادينها الاصوليون فى مقدمات كتبهم وانى لاعترف هنا بأنى قد وقفت على الكثير من هذه الامور من كتب التفسير المختلفة وكان الجهد الذى ابذله يقوم على المقارنة والترجيح والوقوف عند بعض اللمسات التى تفتح افاقا واسعة أو تصحح اخطاء بعض الاقدمين وذلك أمر ليس باليسير فيما اعتقد . الثانى . الفهم الادبى . وهو ذلك الفهم الذى يقوم على تحديد مافى النص من قيم عقلية وعاطفية وفنية فنقف على مافى النص من صور وأراء ونبحث عما خلف هذه الصور وهذه الآراء من أخرى لم يشعر صاحب النص بالحاجة الى التعبير عنها إما لانه كان يفهمها فى نفسه وإما لان المعاصرين له كانوا يفهمونها عنه .

وأعتقد أن هذا الصنيع فى الفهم الأدبى كان جديداً بالنسبة لموضوعى هذا اللهم الا فى القليل النادر فما فى القصص القرآنى من قيم عقلية وعاطفية وما فى القصص القرآنى من ظواهر أدبية وفنية لم يدرس ولم يعرض بالصورة التى عرضتها فيه هنا . وذلك أمر لم يكن سهلا ولا يسيراً .

رابعاً — التقسيم والتبويب . عند ما يصل الباحث إلى هذا الحد من الفهم الأدبى يكون قد أقام من العلاقات ما تسمح له بأن يقسم بحثه أبوابا وفصولا يقيم كل واحد منها على نوع من العلاقات التى يوحى بها المنهج أو القصد من الدراسة . فقد تجمع النصوص لما بينها من علاقات فى الموضوع وقد تجمع لما بينها من علاقات فى الصياغة وقد تجمع لما

يتسلط عليها من مقاصد وأغراض . وهذه كلها أشياء قد وقفت عليها وأقمت عليها أساس التقسيم فى موضوعى هذا وهى التى انتهت بى إلى ذلك التقسيم الذى ستراه فى هذا البحث فهى التى دفعتنى إلى أن أجعله بابين كبيرين هما باب القيم العقلية وباب القيم الفنية أو الظواهر الأدبية ، وهى التى دفعتنى إلى أن أجعل فصول الباب الأول هى القيم التاريخية والقيم الاجتماعية والنفسية والقيم الدينية والخلقية وهى التى دفعتنى الى أن أجعل كل واحدة من الفصول فقرات .

أما الباب الثانى فقد قسمته الى الفصول الآتية :—

القصة الأدبية وألوانها الوحدة القصصية فى القرآن الكريم . الموضوعات والأغراض . المواد القصصية وأسباب اختيارها . العناصر القصصية وتوزيعها ، الأشخاص ، الأحداث، الحوار ، المناجاه . تطور الفن القصصى فى القرآن الكريم . القصص القرآنى ونفسية الرسول عليه السلام . وقسمت كذلك كل واحد الى فقرات .

خامساً — الاصالة والتقليد :— وهذه مسألة من أهم المسائل عند الدراسين لحياة العلوم والفنون وعند من يريدون الفهم الدقيق العميق للمسائل العلمية والأدبية . ذلك لأنها هى التى ستدلنا على المواد التى تكون منها النص وعلى كيفية تكوينه . وعلى أى منها من عند الأديب وأيها سبق اليه أو بعبارة أخرى أيها اهتدت اليه فطرته وأيها من رواسب الأجيال السابقة .

وهنا اعترف بأن هذا البحث فى موضوعنا هذا من العسر والمشقه بحيث يعرض الإنسان لشر عظيم الخطر ولست أخفى أنى لقيت عناءاً كبيراً ولست

أخفى بأنى أخشى ضرراً عظيما لكن ما حليتى والعلم يقتضينى أن أستوفى هذا الموضوع حقه .

لقد درست هذه المسائل وكانت لها نتائج قيمه بعضها يخص إثبات التجديد فى الحياة المكية الأدبيه وذلك كمسألة القصة الاسطورية ووجودها فى القرآن الكريم . وبعضها الآخر يخص القوة القادرة على تحويل المواد من تاريخية الى أدبيه أو الى قصصيه حتى لتصبح سحراً من السحر أو أشد . وهذه مسائل قد عرضتها فى فصل خاص بها هو فصل المـــواد القصصية وأسرار اختيارها .

ولعل من المسائل ماوقفت فيه بين بين فلم أعرف أهو من التجديد القصصى فى القرآن أم هو من الاستعمال العادى المألوف عند العرب وذلك كرسمه للأشخاص وتصويره للأحداث .

. . .

تلك هى الخطوات المنهجية التى سرت عليها والتى انتهى بى الى هذا البحث الذى سأعرضه عليك منذ الآن .

الباب الاول

المعانى والقيم التاريخيـــة والاجتماعية
والخلقيـــة والدينيـــة
التى وردت فى القرآن

الفصل الأول

المعـــانى التاريخية

ليس القصد من هذه الوقفة حصر المعانى التاريخية أو الأحداث القصصية التى وردت فى قصص القرآن الكريم وإنما القصد منها البحث عن قيمة هذه الأحداث القصصية فى المجالات التاريخية . فهل هى من الوقائع التاريخية أو هى من الأحداث القصصية التى لم يقصد منها إلى التاريخ ؟

والوصول إلى ما نعتقد أنه الحق فى هذه المسألة يتطلب منا أولا درس هذه المسألة فى العقلية الاسلامية والوقوف على التيارات المختلفة التى لعبت دورها فى تكوين هذه الآراء التى نراها فى العقلية الاسلامية والتى احتفظت بها كتب التفسير ذلك لأن هذا الدرس هو سبيلنا الوحيدة إلى تكوين الرأى السديد فى هذه المسألة الشائكة .

وتاريخ هذه المسألة إنما يرجع إلى عصر البعثة المحمدية أو قبله بقليل . ذلك لأنه يرجع إلى ذلك الرأى الدينى الذى كانت تقول به يهود والذى يجعل لهم الحق فى معرفة الصادق والكاذب ممن يدعون النبوة ويذكرون للناس أن الوحى ينزل عليهم من السماء فلقد كان من مقاييس هؤلاء فى التفرقة بين النبى والمتنبى أن النبى يعلم الغيب وأن من علوم الغيب معرفة أخبار السابقين من الرسل والأنبياء ومن خفيت على الناس أمورهم .

هذا المقياس واضح كل الوضوح من هذه الحادثة التى يقص أخبارها المفسرون والباحثون فى أسباب النزول والتى وردت فى أسباب النزول

للنيسابورى بعبارة هذا نصها . (وذكر محمد بن اسحاق سبب نزول هذه القصة — قصة أصحاب الكهف — مشروحا فقال : كان النضر بن الحارث من شياطين قريش وكان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم وينصب له العداوة وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث رستم واسفنديار وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جلس مجلسا ذكر فيه الله وحدث قومه ما أصاب من كان قبلهم من الأمم فكان النضر يخلفه فى مجلسه إذا قام . ويقول : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثا منه فهلموا فأنا أحدثكم بأحسن من حديثه ثم يحدثهم عن ملوك فارس . ثم إن قريشا بعثوه وبعثوا معه عقبه ابن أبى معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة وقالوا لهما سلوهم عن محمد وصفته وأخبروهم بقوله فأنهم أهل الكتاب الأول وعندهم من العلم ما ليس عندنا من علم الأنبياء فخرجا حتى قدما إلى المدينة فسألوا أحبار اليهود عن أحوال محمد . فقال أحبار اليهود : سلوه عن ثلاث: عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان من أمرهم فأن حديثهم عجب وعن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه وسلوه عن الروح ما هو فان أخبركم فهو نبى وإلا فهو متقول ...)[1] فأن هذا النص كما ترى يدلنا على أن اليهود هم الذين كانت بأيديهم المقاييس التى يفرقون بها بين الصادق والكاذب من النبيين والمتنبئين . ثم هو يدلنا على أن معرفة أخبار السابقين من هذه المقاييس .

على أن القرآن نفسه قد اعتمد على هذا المقياس فى الايحاء بنبوة محمد عليه السلام وصدق رسالته حين ختم بعض الأقاصيص القرآنية بآيات يستفاد منها أن الأخبار الواردة فى هذه الأقاصيص من أنباء الغيب وأنها

---

(١) أسباب النزول سورة الكهف .

قد أوحيت إلى النبى عليه السلام . قال تعالى عقب قصة مريم « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون »[١] . وقال عقب قصة يوسف وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون . »[٢] . كما قال فى قصة موسى « وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون . »[٣] . وقال فى ختامه لقصة نوح « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين . »[٤] .

والظاهرة التى يحسن بنا الالتفات إليها فى هذا المقام هى أن القرآن حين جعل هذه الأخبار من آيات النبوة وعلامات الرسالة جعلها أيضا مطابقة لما فى الكتب السابقة أو لما يعرفه أهل الكتاب من أخبار حتى ليخيل إلينا أن مقياس صدقها وصحتها من الوجهة التاريخية ومن وجهة دلالتها على النبوة والرسالة ان تكون مطابقة لما يعرفه أهل الكتاب من أخبار . قال تعالى بعد ذكره لقصة يوسف « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل

---

(١) آل عمران ٤٤

(٢) يوسف ١٠٢

(٣) القصص ٤٤ — ٤٦

(٤) هود ٤٩

كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون »[١] . وقال تعالى بعد ذكره لقصة موسى وفرعون « فأن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين »[٢] .

واعتماد القرآن على هذا الرأى الدينى اليهودى أو على هذا المقياس خلف فى الجوّ فى عصر النبوة وما تلاه رأيين مختلفين .

(١) الرأى الأول رأى المشركين والكفار من أهل مكة فأن هؤلاء مع معرفتهم لهذا المقياس عن طريق وفدهم إلى أحبار اليهود بالمدينة لم يستطيعوا التسليم بما ترتب عليه من نتائج فلم يؤمنوا بصدق النبى عليه السلام أو بصحة رسالته اعتمادا على هذه الأخبار الواردة بالقصص القرآنى وليس يرجع ذلك إلى أن هذه الأخبار لا تتفق ومعارفهم التاريخية فيظهر أنها كانت تتفق وما يعرفون أو تجرى وهذه المعرفة فى نسق . وإنما يرجع ذلك فيما هو الواضح من آيات القرآن الكريم إلى أن المشركين كانوا يعتقدون أن الوقوف على أمثال هذه الأخبار الواردة فى القصص القرآنى ليس شاقا ولا عسيرا فضلا عن أن يكون مستحيلا حتى يصبح معجزا ومن هنا ذهبوا إلى أن محمدا عليه السلام يكتتب هذه الأخبار وأنها ليست من الوحى وأن الذى يعلمه إياها بشر . قال تعالى « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا »[٣] وقال تعالى « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى

(١) يوسف ١١١
(٢) يونس ٩٤
(٣) الفرقان ٥

مبين »[١] بل ذهبوا إلى أبعد من هذا فذهبوا إلى أنهم يستطيعون الأتيان بمثل هذه الأساطير . ولقد صور القرآن قيلهم وصور صنيعهم . فقال تعالى مصورا هذا القيل « وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين . »[٢] . وقال تعالى مهددا أولئك الذين يعارضون النبي والقرآن . « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله . . . »[٣] . « ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم »[٤] .

ويفهم المفسرون هذا الصنيع من المعارضة وإنهم ليذكرون لنا أن قريشا كانت تستملح هذه الأحاديث حتى لتنصرف عن النبي عليه السلام إلى النضر بن الحارث وأضرابه . جاء فى الكشاف بصدد حديثه عن الآية السابقة . [وقيل نزلت فى النضر بن الحارث وكان يتجر إلى فارس فيشترى كتب الأعاجم فيحدث بها قريشا ويقول إن كان محمد يحدثكم بحديث عاد وثمود فأنا أحدثكم بأحاديث رستم وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن][٥] .

كان المشركون فيما هو الواضح من النصوص السابقة يستبعدون أن

---

(١) النحل ١٠٣
(٢) الأنفال ٣١
(٣) الأنعام ٩٣
(٤) لقمان ٦، ٧
(٥) الكشاف ص١٩٣٠ جـ٢

يكون هذا الذى يأتى به محمد من عند الله ومن هنا كانوا يسخرون . فاذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين(١) . وكانوا يطلبون من العلى القدير أن ينزل عليهم العذاب إن كان الذى يأتى به محمد هو الوحى وهو الحق . وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم(٢) .

وكان المشركون يعتقدون أن هذه الأخبار التى يجيئهم بها محمد ليست إلا أساطير الأولين ومن هنا لم يؤمنوا ولم يكن لذلك المقياس الذى اعتمد عليه القرآن الكريم فى الايحاء بنبوة النبى عليه السلام وصدق رسالته وهو الأتيان بأخبار السابقين كبير قيمة عندهم .

مضى هؤلاء وجاء من بعدهم قوم لم يقفو بالمسألة عند حد القدرة على الأتيان بمثل هذه الأخبار وإنما حاولوا مستعينين بمعلوماتهم ومعارفهم الطعن فى النبى عليه السلام وفى القرآن الكريم وذلك باتخاذ التاريخ مقياسا تقاس به هذه الأخبار وببيان وجه المخالفة بين الأقاصيص القرآنية وبين ما يعرفون من تاريخ ونستطيع أن نعرض عليك فى هذا الموقف بعض المسائل التى وقف عندها الملاحدة أو اليهود والنصارى أو المستشرقون والمبشرون .

(١) يقول الرازى عند تفسيره لقوله تعالى ويكلم الناس فى المهد . . من سورة مريم ما يأتى [واعلم أن اليهود والنصارى ينكرون أن عيسى عليه السلام تكلم فى زمان الطفولة واحتجوا عليه بأن هذا من الوقائع

---

(١) النحل ٢٤
(٢) الأنفال ٣٢

العجيبة التى تتوافر الدعاوى على نقلها فلو وجدت لنقلت بالتواتر ولو كان ذلك لعرفه النصارى لاسيما وهم من أشد الناس غلوا فيه حتى زعموا كونه إلها ولا شك أن الكلام فى الطفولية من المناقب العظيمة والفضائل التامة فلما لم تعرفه النصارى مع شدة الحب وكمال البحث عن أحواله علمنا أنه لم يوجد . ولأن اليهود أظهروا عداوته حال ما أظهر ادعاء النبوة فلو أنه عليه السلام تكلم فى زمان الطفولية وادعى الرسالة لكانت عدواتهم معه أشد ولكان قصدهم قتله أعظم فحيث لم يحصل شىء من ذلك علمنا أنه ما تكلم . . .][1]

(٢) ويقول عند تفسيره لقوله تعالى ياهامان ابن لى صرحا . . . من سورة المؤمن ما يلى [. . المسألة الرابعة . قالت اليهود أطبق الباحثون عن تواريخ بنى إسرائيل وفرعون أن هامان ما كان موجودا البتة فى زمان موسى وفرعون وإنما جاء بعدهما بزمان مديد ودهر داهر فالقول بأن هامان كان موجودا فى زمان فرعون خطأ فى التاريخ . وليس لقائل أن يقول إن وجود شخص يسمى بهامان بعد زمان فرعون لا يمنع من وجود شخص آخر يسمى بهذا الاسم فى زمانه . قالوا لأن هذا الشخص المسمى بهامان الذى كان موجودا فى زمان فرعون ما كان شخصا خسيسا فى حضرة فرعون بل كان كالوزير له ومثل هذا الشخص لا يكون مجهول الوصف والحلية فلو كان موجودا لعرف حاله . وحيث أطبق الباحثون عن أحوال فرعون وموسى أن الشخص المسمى بهامان ما كان موجودا فى زمان فرعون وإنما جاء بعده بأدوار علم أنه غلط وقع فى التواريخ . قالوا ونظير هذا أنا نعرف فى دين الاسلام أن أبا حنيفة إنما جاء بعد محمد صلى الله عليه

---

(١) الرازى جـ ٥ ص ٣٥ ،

وسلم فلو أن قائلا ادعى أن أبا حنيفة كان موجودا فى زمان محمد عليه الصلاة والسلام وزعم أنه شخص آخر سوى الأول وهو أيضا يسمى بأبى حنيفة فأن أصحاب التواريخ يقطعون بخطئه فكذا ههنا][١]

(٣) ويقول عند تفسيره لقصة بلقيس وسليمان من سورة النمل ما يلى (البحث الأول . إن الملحدة طعنت فى هذه القصة من وجوه . . . وثالثها كيف خفى على سليمان عليه السلام حال مثل تلك المملكة العظيمة مع ما يقال أن الجن والانس كانوا فى طاعة سليمان وأنه عليه السلام كان ملك الدنيا بالكلية وكان تحت راية بلقيس على ما يقال . . . ومع أنه لم يكن بين سليمان وبين بلدة بلقيس حال طيران الهدهد إلا مسيرة ثلاثة أيام .

رابعها . من أين حصل للهدهد معرفة الله تعالى ووجوب السجود له وإنكار سجودهم للشمس وإضافته إلى الشيطان وتزيينه)[٢] .

(٤) ويقول القاضى عبد الجبار فى كتابه تنزيه القرآن عن المطاعن . (وربما قيل فى قوله تعالى . يا أخت هارون . كيف يصح أن يقال لها ذلك وبينها وبين هارون أخى موسى الزمن الطويل ؟ . وجوابنا أنه ليس فى الظاهر أنه هارون الذى هو أخو موسى بل كان لها أخ يسمى بذلك وإثبات الاسم واللقب لا يدل على أن المسمى واحد ، وقد قيل كانت من ولد هارون . كما يقال للرجل من قريش يا أخا قريش)[٣] .

(٥) ويشرح المبشرون مسألة مريم السابقة فيقولون . (قصة مريم .

---

(١) المصدر السابق جـ ٧ ص ٢٧٧

(٢) المصدر السابق جـ ٧ ص ٢١٨

(٣) تنزيه القرآن عن المطاعن ص ٢٢٠

ورد فى سورة مريم الآية فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء . . . الخ . فيتضح من هذه الآية أن محمدا كان يرى أن مريم كانت أخت هارون أخى موسى . ومما يزيد هذا الأمر وضوحا وجلاء ما ورد فى سورة التحريم ونصه « مريم ابنة عمران » وهذا مذكور أيضا فى سورة آل عمران « إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محرراً . . . الخ » وفى سورة الفرقان ونصه « ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه اخاه هارون وزيراً » . فثبت من ذلك أن عمران وموسى وهارون ومريم هم ذوات الأشخاص الذين ورد ذكرهم بهذه الأسماء فى خمسة أسفار موسى غاية الامر أن ورد فى التوراه عمرام عوضا عن عمران . وورد فى سفر العدد الاصحاح ٢٦ الآية ٥٩ ما نصه « واسم امرأة عمرام يوكابد بنت لاوى التى ولدت للاوى فى مصر . فولدت لعمرام هارون وموسى ومريم اختهما » . وورد فى سفر الخروج أيضا الاصحاح ١٥ الآية ٢٠ أن مريم النبيه كانت أخت هارون . كما رأينا فى سورة مريم حيث قيل « يامريم . . . يا أخت هارون فلا شك أن محمداً توهم أن مريم أخت هارون التى كانت أيضا ابنة عمرام « أى عمران » هى نفس مريم التى صارت أم يسوع — المسيح عيسى — بعد ذلك بنحو ألف وخمسمائة وسبعين سنة . وهذا القول يشبه الرواية الواردة فى الشاهنامة . . . الخ . وربما كان سبب هذا الغلط أنه ورد فى إحدى خرافات اليهود كلام بخصوص مريم أخت هارون نصه « أن ملاك الموت لم يتسلط عليها . بل ماتت بقبلة إلهية ولم يتسلط عليها الدود ولا الحشرات » . وعلى كل حال فهذا خطأ جسيم لأنه لم يقل أحد من اليهود أن مريم هذه بقيت على قيد الحياة الى أيام المسيح)[١]

---

(١) مصادر الاسلام ١٠٢ — ١٠٤

هذه الاقوال وكثير غيرها قصد اليها المبشرون والملاحدة ليثبتوا للناس أن القرآن من عند محمد لأنه لو كان من عند الله لما وجدت فيه هذه الأخطاء التاريخية .

وهذه الأقوال وكثير غيرها انما كانت لأن المسلمين أنفسهم قد حرصوا الحرص كله على فهم القصص القرآنى على أساس من التاريخ ولو أنهم أعرضوا عن هذا الأساس وحاولوا فهم القرآن على أساس من الفن الأدبى أو البيانى البلاغى لأغلقوا هذا الباب الذى جاءت منه الريح ولسدوا على المشركين والمبشرين السبل وحالوا بينهم وبين الطعن فى النبى عليه السلام وفى القرآن الكريم .

(ب) أما الرأى الثانى فهو رأى المسلمين وهم يؤمنون بهذا المقياس ويعتقدون بصحته ويرون أن ورود هذه الاخبار فى القصص القرآنى إنما هو دليل النبوة وعلامة الرسالة وأنه لولا الوحى لما عرف النبى الأمى هذه الاخبار مع أنه لم يقرأ فى كتاب ولم يتتلمذ على من قرأ فى كتاب .

وإيمان المسلمين بهذا المقياس لم يكن وقفا على عصر النبوة وانما امتد به الزمن حتى شمل الأعصر الإسلامية من لدن البعثة المحمدية الى وقتنا هذا . وحتى أصبح عنصراً مهما من العناصر المكونة للعقلية الإسلامية يهتز باهتزازها ويتأثر بما تتأثر به من تيارات فكرية تتعاقب عليها بتعاقب السنين والأعوام .

وايمان المسلمين بهذا المقياس جعل المفسرين منهم يصدرون فى فهمهم للقصص القرآنى وتفسيرهم له عن ثقافة تاريخية لا ثقافة فنية أدبية ومن هنا لم تسلم لهم الخطا وقامت فى وجوههم العقبات فوقفوا وأطالوا الوقوف

لعل الطريق أن تسلم ولعل الفهم أن يستقيم ولكن شيئا من ذلك لم يكن اللهم إلا فى بعض المواطن التى رجعوا فيها إلى الحق والتى أقاموا فيها فهمهم للقصص القرآنى على أسس من البلاغة العربية والفن الأدبى تلك الأسس التى تجعل للأحداث القصصية مكانها الأول فى الشرح والتفسير ولا تجعل للمواد التاريخية إلا مقاما ثانويا أو لا مقام على الاطلاق .

والمواقف التى وقف عندها المفسرون لتسلم لهم الطريق ويستقيم الفهم كثيرة متنوعة ونستطيع أن نعرض عليك بعضا منها لتستبين إلى أى حد كان يتعثر هؤلاء المفسرون .

أولا — الاشارات التاريخية : وقف المفسرون وقفة طويلة عند هذه الاشارات التاريخية التى جعلها القرآن مادة أدبية فى بناء القصة القرآنية . وهى إشارات قد قصد القرآن إلى إبهامها أو إلى إبهام مقوماتها التاريخية . وقصد القرآن إلى ذلك إنما يفسر بحالة من حالتين . يفسر بأن القرآن قد أبهم هذه المقومات لأن المعاصرين للنبى عليه السلام ولنزوله كانوا يعرفون ما وراء هذا الأبهام من ثقافة تاريخية . كما يفسر بأن القرآن قد عمد إلى تنحية التاريخ عن ميدان القصة القرآنية ليتجه العقل البشرى منذ اللحظة الأولى إلى ما هو المقصود من أقاصيص القرآن من عظة وعبرة ومن إرشاد وهداية ومن إنذار وبشارة .

أبهم القرآن مقومات التاريخ فى قصصه فأبهم الزمان والمكان وأبهم فى كثير من المواطن الصفات المميزة للأشخاص . واختار من الأحداث التاريخية بعضا دون بعض . صنع القرآن كل هذا أو أحسن المفسرون منه بهذا الصنيع وشعروا بأن الفهم التاريخى للقصص القرآنى لن يستقيم حتى يذهب هذا الغموض التاريخى وحتى يذهب ما قصد إليه القرآن من إبهام

ومن هنا رأيناهم يعمدون إلى الثقافة التاريخية وإلى الاسرائيليات بل رأيناهم أحيانا يعمدون إلى الفروض النظرية الصرفة لعل واحدة منها أو كلها مجتمعة أن تزيل عن القصص القرآنى ما به من غموض أو إبهام تاريخى .

والظواهر التى يحسن بنا أن نلتفت إليها من وقفات المفسرين عند هذه الإشارات التاريخية وما يحيط بها من غموض أو يكتنفها من إبهام هى التالية .

(١) أن المفسرين وقد ارتضوا الأساس التاريخى أساسا للفهم وقفوا كثيرا وطويلا عند مسائل التاريخ وقضاياه حتى لنرى بعضهم يقف عند كل قصة ويجعل لها عنوانا كذلك الذى نجده فى كتب التاريخ ثم يتحدث عن شخصية النبى وعن الأحداث القصصية كما يتحدث المؤرخون سواء بسواء[١] .

(٢) أن هذه الوقفات الطويلة عند الأساس التاريخى جعلت المفسرين يألفون هذا المذهب فى فهم القصص القرآنى حتى لنراهم ينكرون غيره من مذاهب فنية وأدبية وحتى لنراهم حين تلجئهم الضرورات إلى المذاهب الأدبية يوجزون فى القول ولا يقفون إلا لماما . هذا ما فعله الزمخشرى فى تفسيره لقصه . وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب ... الخ من سورة ص وهذا ما فعله الطبرى فى أحد أقواله عند تفسيره لقصص آدم فى كل من سورتى البقرة وص[٢] . وإنا لنشعر من صنيعهم أنهم يعتقدون

---

(١) راجع قصص سورة الأعراف ويونس فى تفسير الخازن .

(٢) الطبرى ١٧٥و١٧٦ ج ١ ، ١٠٧ ج٢٣ .

عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف إنى لا يخاف لدى المرسلون إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فأنى غفور رحيم وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فى تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانو قوما فاسقين . . . الخ » ولماذا قال فى سورة القصص غير هذين؟

إن الموقف واحد وإن الحادثة واحدة ولكن الوصف مختلف والحوار غير الحوار وحديث الرب العلى مع موسى النبى فى موطن غيره فى آخر .

لقد حاول العقل الاسلامى أن يجيب عن أمثال هذه الأسئلة التى تخص تكرار القصص القرآنى واختلاف الوصف والتصوير ولكنه لم يهتد الى رأى قاطع ومن هنا آثر الكثيرون عد القصص القرآنى من الآيات المتشابهات[١] . يقول الطبرى (المتشابه هو ما اشتبهت الألفاظ به من قصصهم عند التكرار فقصة باتفاق الألفاظ واختلاف المعانى وقصة باختلاف الألفاظ واتفاق المعانى)[٢] . وكذلك يقول غيره من شيوخ المفسرين .

ولو أن العقل الاسلامى أقام فهمه للقصص القرآنى على أساس بلاغى أو أساس فنى أدبى لما وقف هذه الوقفة ولعرف منذ اللحظة الأولى أن الذى عده من التكرار ليس من التكرار فى شىء لأن هذه المواد التاريخية غير مقصودة من القصص وأن مقاصد القرآن من مواعظ وعبر ومن

---

(١) راجع درة التنزيل وغرة التأويل فى بيان الآيات المتشابهات فى كتاب الله العزيز للخطيب الاسكافى .

(٢) الطبرى ١٠٣ جـ ٣ .

إنذارات وبشارات تختلف فى موطن عنها فى آخر ومن هنا كان الاختلاف لأن اختلاف المقاصد يدفع من غير شك إلى اختلاف الصور الأدبية .

مقصد القرآن من قصة موسى فى سورة طه غيره من قصة موسى فى سورة النمل وقصة موسى فى سورة طه قصة مستقلة وقصته فى سورة النمل قصة مستقلة ومن الوجهة الأدبية البلاغية هذه قصة وتلك أخرى وعلى هذا فلا تكرار ولا اختلاف ولا تشابه . وكل هذه مسائل ستشرح بتفصيل فى الباب الثانى إن شاء الله .

ثالثا — المادة القصصية والحقيقة : — وقفة ثالثة وقفها العقل الاسلامى حين بان له أن كثيرا من هذه المواد القصصية التى جاء بها القرآن الكريم لا تستقيم وما يعرف من علم إلا على ضرب من التأويل وإلا بعد الرجوع إلى المذهب الأدبى يستمد منه العون ويطلب إليه المدد

(١) بان للعقل الاسلامى أن مسألة غروب الشمس فى عين حمئة لا تستقيم وما يعرف عن حقائق هذا الكون من أن الشمس طالعة أبدا وأن الأرض تدور حولها وأن الشمس لا يمكن أن تغرب فى هذه العين الحمئة بحال من الأحوال . وخيل إلى العقل الاسلامى أن كلام الله لن يستقيم إلا على ضرب من التأويل فأوجب هذا التأويل على نفسه وانتهى به الأمر فيما نرى إلى التسليم بالمذهب الفنى إذ قرر أن القرآن قد صور فى هذه القصة الصور الذهنية لغروب الشمس لا حقيقة هذا الغروب . صور ما يراه القوم بأعينهم ولم يصور ما يحدث فعلا من غروب للشمس وشروق . يقول الرازى فى تفسيره لقصة ذى القرنين من سورة الكهف ما يلى (البحث الثانى : أنه ثبت بالدليل أن الأرض كرة وأن السماء محيطة

بها ولا شك أن الشمس فى الفلك وأيضا قال ووجد عندها قوما . ومعلوم أن جلوس قوم فى قرب الشمس غير موجود . وأيضا الشمس أكبر من الأرض بمرات كثيرة فكيف يعقل دخولها فى عين من عيون الأرض . . .

إذا ثبت هذا فنقول تأويل قوله تغرب فى عين حمئة من وجوه .

الأول . أن ذا القرنين لما بلغ موضعها فى المغرب ولم يبق بعده شىء من العمارات وجد الشمس كأنها تغرب فى عين وهذه مظلمة وإن لم تكن كذلك فى الحقيقة كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب فى البحر إذا لم ير الشط وهى فى الحقيقة تغيب وراء البحر . .)[١] .

ويقول القاضى عبد الجبار (كيف يصح أن يجدها تغرب فى شىء من الأرض وهى إنما تغرب فى مجارى غروبها ؟ . فجوابنا . أنها تغرب على وجه يشاهد كذلك كما توجد الشمس تغرب فى البحر إذا كان المرء على طرفه وكما يقول المرء إن الشمس تطلع من الأرض وتتحرك فى السماء . والمراد بذلك ما ذكرناه من تقدير المشاهدة)[٢] .

(٢) وبان للعقل الاسلامى أن ودا وسواع ويغوث ويعوق ونسرا كانت الأوثان التى تعبد فى الجزيرة العربية زمن البعثة المحمدية وقبلها بقليل أو كثير . وعجز العقل الاسلامى عن أن يفهم الصلة بين هذه الأوثان وبين نوح عليه السلام حتى تجىء فى قصته ولذا عد هذه المسالة من المشكلات .

---

(١) الرازى ج ٥ ص ٣٠٥ وما بعدها . وسنشرح هذه المسألة فى الباب الثانى .
(٢) تنزيه القرآن عن المطاعن ص ٢١٧ .

جاء فى الرازى بصدد تفسيره لسورة نوح ما يلى (المسالة السادسة . هذه الأصنام الخمسة كانت أكبر أصنامهم ثم إنها انتقلت عن قوم نوح إلى العرب فكان القرب مكان ود لكلب وسواع لهمدان ويغوث لمذحج ويعوق لمراد ونسر لحمير ولذلك سمت العرب بعبد ود وعبديغوث . هكذا قيل فى الكتب . وفيه اشكال لأن الدنيا قد خربت فى زمان الطوفان فكيف بقيت تلك الأصنام وكيف انتقلت الى العرب ؟ ولا يمكن أن يقال ان نوحا عليه السلام وضعها فى السفينة وأمسكها لأنه عليه السلام انما جاء لنفيها وكسرها فكيف يمكن أن يقال انه وضعها فى السفينة سعيا منه فى حفظها)[1] .

(٣) وبان للعقل الاسلامى أن هذه المحاورة التى يصورها القرآن الكريم قائمة بين المولى سبحانه وتعالى وبين عيسى عليه السلام فى آخر سورة المائدة لا تفهم على ظاهرها ولا تفسر على أنها قد وقعت حقا وأنها لا يمكن أن تكون إلا التصوير الأدبى الذى يقصد منه إلى توبيخ النصارى المعاصرين لمحمد عليه السلام . جاء فى كتاب تنزيه القرآن عن المطاعن ما يلى (مساله . وربما قيل فى قوله تعالى . واذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله . كيف يصح ذلك وعيسى لم يقل ذلك للناس ؟ وكيف يصح أن يقول واذ قال الله وذلك يخبر به عن الماضى ولم يتقدم ذلك منه تعالى فى الدنيا ؟

وجوابنا . أن ذلك من الله تعالى على وجه التوبيخ والتقريع لمن قال ذلك وقد يجوز من الحكيم أن يخاطب بذلك متهما بفعل ليكون ردعا وتوبيخا لمن فعل والله تعالى عالم بالأمور ولا يصح الاستفهام عليه فالمراد

---

(١) الرازى جـ ٨ ص ٢٣٢ .

ما ذكرنا فقد كان فيهم من يزعم أن عيسى صلى الله عليه وسلم أمرهم بان يتخذوا إلهين فيعبدوهما ويطيعوهما كطاعة المرء لله ولذلك قال بعده إن كنت قلته فقد علمته)[1] .

(٤) وبان للعقل الإسلامى أن وصف عيسى عليه السلام بأنه رسول الله فى قول اليهود الذى حكاه عنهم القرآن فى قوله تعالى « وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله » لا يمكن أن يفهم على أنه قد صدر حقا عن اليهود فهم لم ينطقوا بهذا الوصف وإنما القرآن هو الذى أنطقهم به ذلك لأن وصفه بالرسالة ليس إلا التسليم بأنه رسول الله وهم لم يسلموا بهذا ولو سلموا بها لأصبحوا مسيحيين ولما كان بينهم وبينه أى لون من ألوان العداء ولما كان قتل وصلب . إن اليهود إنما يتهمون عيسى بالكذب وينكرون عليه أنه رسول الله ويذكرونه بالشر ويقولون إنه ابن زنا وأن أمه زانية . يقول اليهود كل هذا وأكثر منه ومن هنا لم يستطع العقل الإسلامى أن يسلم بأن وصف عيسى عليه السلام بأنه رسول الله قد صدر حقا عن اليهود ولجا العقل الإسلامى فى هذا الموقف إلى المذهب الفنى فافاده . جاء فى الكشاف عند تفسيره لهذه الآية (فان قلت كانوا كافرين بعيسى عليه السلام أعداء له عامدين لقتله يسمونه الساحر ابن الساحرة والفاعل ابن الفاعلة فكيف قالوا إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله قلت قالوه على وجه الاستهزاء كقول فرعون إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون . ويجوز أن يضع الله الذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح فى الحكاية عنهم رفعا لعيسى عما كانوا يذكرونه به وتعظيما لما أرادوا بمثله كقوله ليقولن خلقهن العزيز العليم الذى جعل لكم الأرض مهدا)[2] .

وبان للعقل الإسلامى أنه لا يستطيع أن يتصور مساعدة الملائكة

---

(١) تنزيه القرآن عن المطاعن ص ١١٥ .

(٢) الكشاف جـ ١ ص ٢٨١ .

للمسلمين فى غزوتى وبدر وأحد اللهم إلا أن يكون حديث القرآن عن ذلك حديث من ياخذ الناس بعقائدهم تقوية للروح المعنوية وبثا للأمل القوى بالانتصار السريع فى النفوس . جاء فى المنار (وأنكر أبو بكر الأصم قتال الملائكة وقال . إن الملك الواحد يكفى فى اهلاك أهل الأرض كما فعل جبريل بمدائن قوم لوط فإذا حضر هو يوم بدر فاى حاجه الى مقاتلة الناس الكفار ؟ وبتقدير حضوره أى فائدة فى إرسال سائر الملائكة ؟ وأيضا فان أكابر الكفار كانوا مشهورين وقاتل كل منهم من الصحابة معلوم .

وأيضا لو قاتلوا فأما أن يكونوا بحيث يراهم الناس أو لا ؟ وعلى الأول يكون المشاهد من عسكر الرسول ثلاثة آلاف وأكثر ولم يقل أحد بذلك ولأنه خلاف قوله (ويقللكم فى أعينهم) ولو كانوا فى غير صورة الناس لزم وقوع الرعب الشديد فى قلوب الخلق ولم ينقل ذلك البته .

وعلى الثانى كان يلزم جز الرءوس وتمزق البطون وإسقاط الكفار من غير مشاهدة فاعل ومثل هذا يكون من أعظم المعجزات فكان يجب أن يتواتر ويشتهر بين المسلم والكافر والموافق والمخالف . وأيضا أنهم لو كانوا أجساما كثيفة وجب أن يراهم الكل وإن كانوا أجساما لطيفة فكيف ثبتوا على الخيول][1] .

بانت للعقل الاسلامى هذه الأشياء وكثيراً غيرها وفطن العقل الاسلامى إلى أن هذه الأشياء لا تفهم على أنها الحق التاريخى والواقع

---

(١) النار ج ٤ ص ١١٣ .

العملى إلا بضروب من التأويل ولو أن العقـــل الاسلامى أقام فهمه للقصص القرآنى منذ اللحظة الأولى على المذهب الأدبى لما احتاج إلى هذه التأويلات وإلى أمثال هذه الوقفات التى ألجأته إلى المذهب الأدبى مضطرا لا مختارا .

رابعا : — الأخبار والأعجاز : — وقفة أخيرة وقفها العقل الإسلامى يحاسب فيها نفســه وينظر ما قدمت يداه من خير فهل كان من الخير للنبى عليه السلام وللقرآن الكريم أن يكون المذهب التاريخى الأساس الأول فى فهم القصص القرآنى أو أن هذا المذهب كان الثغرة التى نفذ منها المبشرون والملاحدة للطعن فى النبى وفى القرآن ؟

أحصى العقل الإسلامى كل شىء عدداً فاحصى أقوال المشركين وأقوال الملاحدة والمبشرين وأحصى المشكلات التى تعرض لها حينما وقف عند هذه الاشارات التاريخية وما فيها من غموض وإبهام وعند هذه الأقاصيص المكررة وما تدفع إليه من قول بعد القصص القرآنى من المتشابه وعند هذه الأخبار والصور التى لا تتفق وما يعتقده الحق والواقع إلا بضرب من التاويل أو قول بالمذهب الأدبى .

أحصى العقل الإسلامى كل هذه الأشياء فتبين له أن ما يقدمه المذهب التاريخى فى فهم القصص القرآنى من خير أقل بكثير مما يقدمه من شر ونكر وبلاء . وعند ذلك أعاد العقل الإسلامى التفكير فى هذا المذهب نفسه وفى الأسباب التى تدعوه إلى التمسك به والتشبث باهدابه . ووجد العقل الإسلامى الأسباب واضحة فى هذه الأقاصيص التى يعتمد عليها القرآن فى الإيحاء بنبوة النبى عليه السلام وصحة رسالته وفى عد مااشتملت عليه هذه الأقاصيص من أخبار من المعجزات .

أما إن هذه الأخبار من المعجزات فأمر أعاد العقل الاسلامى التفكير فيه وانتهى به هذا التفكير إلى أن هذه الأخبار لم تكن فيما هو الواضح من آيات القرآن مناط الرد على المشركين من أهل مكة ولا موطن التحدى حتى يصح القول بأنها إحدى المعجزات .

فكر العقل الاسلامى فى هذه الأخبار فرأى أولا أن الكثير منها كان معروفا بالجزيرة العربية قبل البعثة المحمدية ومعروفا المعرفة التى جعلت المفسرين يعللون بلاغيا بهذه المعرفة التركيب القصصى القرآنى « ألم تر » . جاء فى الرازى عند تفسيره لقوله تعالى ألم تر كيف فعل ربك بعاد . . الخ من سورة الفجر ما يلى [ألم تر ألم تعلم لأن ذلك مما لا يصح أن يراه الرسول وإنما أطلق لفظ الرؤية ههنا على العلم وذلك لأن أخبار عاد وثمود وفرعون كانت منقولة بالتواتر . أما عاد وثمود فقد كانا فى بلاد العرب . وأما فرعون فقد كانوا يسمعونه من أهل الكتاب وبلاد فرعون أيضا متصلة بأرض العرب وخبر التواتر يفيد العلم الضرورى والعلم الضرورى جار مجرى الرؤية فى القوة والجلاء والبعد عن الشبهة فلذلك قال ألم تر بمعنى ألم تعلم)(١) . وهذه المعرفة تجعل من غير شك أمثال هذه الأخبار غير صالحة لأن تكون موطن التحدى أو دليل الأعجاز .

وفكر العقل الاسلامى فى هذه الأخبار فرأى ثانيا أن تلك الأقاصيص التى يعتمد عليها القرآن فى الايحاء بنبوة النبى وصدق رسالته لا تشمل على أخبار يستحيل معرفتها وهى على العكس من ذلك أخبار معروفة لدى أهل الكتاب وإذا كان هناك من استحالة فانها الاستحالة العادية التى تقوم على

---

(١) الرازى جـ ٨ ص ٤٢٣ .

أمية النبى محمد عليه السلام أو تقوم على التفصيلات الدقيقة لهذه الأخبار جاء فى كتاب تنزيه القرآن عن المطاعن . (مسألة . وربما قيل فى قوله ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك . كيف يصح ذلك وقد كان هذا الخبر موجودا عند النصارى وغيرهم ؟

وجوابنا . أنه صلى الله عليه وسلم لم يخالطهم مخالطة يقف بها على تفصيل هذه الأمور وكان كسائر العرب فبين تعالى أنه قد خصه بهذا الغيب ليعرف به صحة نبوته ولذلك قال . وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم فحكى تفصيل ما كان يجرى فى أمر مريم وذلك من أعظم معجزاته صلى الله عليه وسلم)[١] . وجاء فى الرازى . (فان قيل أليس قد كانت قصة طوفان نوح عليه السلام مشهورة عند أهل العلم . قلنا تلك القصة بحسب الاجمال كانت مشهورة أما التفاصيل المذكورة فما كانت معلومة)[٢] .

وفكر العقل الاسلامى فى هذه الأخبار فرأى ثالثا أن القول بأنها إحدى المعجزات لا يدحض أقوال المشركين أولئك الذين قالوا بأن محمدا عليه السلام يكتتب هـــذه الأخبار وأنه يعلمه إياها بشر وأنهم لو شاءوا لقالوا مثلها وأنهم قد قصوا بالفعل أخبار رستم وأحاديث اسفنديار وأن قريشا كانت تستملح هذه الأقاصيص وتنصرف عن محمد عليه السلام إلى المعارضين للنبى وللقرآن .

فكر العقل الاسلامى فى كل هذه الأشياء وانتهى به التفكير إلى أن

---

(١) تنزيه القرآن عن المطاعن ص ٥٩ .

(٢) الرازى ج ٥ ص ٦٥ .

القرآن نفسه لم يجعل هذه الأخبار موطن التحدى ومناط الأعجاز وإنما جعل الأعجاز كل الأعجاز فى قوة التأثير وسحر البيان . جاء فى الرازى عند تفسيره لقوله تعالى لسان الذى يلحدون إليه أعجمى ما يلى (والحاصل أن القوم اتهموه بأنه يتعلم هذه الكلمات من غيره ثم إنه يظهرها من نفسه ويزعم أنه إنما عرفها بالوحى وهو كاذب فيه . ثم إنه تعالى أجاب عنه بأن قال لسان الذى يلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى . . . . وأما وجه تقرير الجواب فاعلم أنه انما يظهر اذا قلنا القرآن الكريم انما كان معجزا لما فيه من الفصاحة العائدة الى اللفظ وكأنه قيل هب أنه يتعلم المعانى من ذلك الأعجمى إلا أن القرآن انما كان معجزا لما فى ألفاظه من الفصاحة)[١] . ولعله من هنا كان القرآن يتحدى العرب بالسور المفتريات جاء فى المنار (كأنه يقول أدع لكم ما فى سور القصص من الأخبار عن الغيب وأتحداكم أنتم وسائر الذين تستطيعون الاستعانة بهم على الأتيان بعشر سور مثل سور القرآن فى قصصها مع السماح لكم بجعلها قصصا مفتراه من حيث موضوعها)[٢] .

التحدى انما يقوم كما رأيت على قوة التأثير وسحر البيان ومن هنا لا نستطيع أن نعد هذه الأخبار التى جاءت فى القصص القرآنى احدى المعجزات .

أما إن هذه الأخبار قد أفادت كثيرا فى الايحاء بنبوة النبى عليه السلام وصدق رسالته فهو الأمر الذى لا ننكره بل نقر به ونؤكده

---

(١) المصدر السابق ص ٣٥٠

(٢) المنار ج ١ ص ١٩٤ .

لكن على أساس أن قوة هـــذا الايحاء إنما تقوم على ذلك الرأى الدينى اليهودى الذى كانت تدين به الجماعة والذى لا يلزم حتما أن تكون هـــذه الأخبار من التاريخ فقد كان يكفيه منها أن تكون مما يعرفه اليهود أو تعرفه العرب كما سنرى بعد لحظات .

هذه الوقفات الطويلة وهذا التفكير المستمر جعل العقل الاسلامى يقرر أخيرا ويقرر فى قوة أن التاريخ ليس من مقاصد القرآن وأن التمسك به خطر أى خطر على النبي عليه السلام وعلى القرآن بل هو جدير بأن يدفع الناس إلى الكفر بالقرآن كما كفروا من قبل بالتوراة .

جاء فى الرازى [واعلم أن هذا الكلام — قوله تعالى بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله — يحتمل وجوها . الأول أنهم كلما سمعوا شيئا من القصص قالوا ليس فى هـــذا الكتاب إلا أساطير الأولين ولم يعرفوا أن المقصود منها ليس هو نفس الحكاية بل أمور أخرى مغايرة لها][1] .

وجاء فى غرائب القرآن للنيسابورى عند تفسيره للآية السابقة (وذلك إنما حملهم على التكذيب أولا وآخرا وجوه منها أنهم وجدوا فى القرآن أقاصيص الأولين ولم يعرفوا المقصود منها فقالوا أساطير الأولين وخفى عليهم أن الغرض منها بيان قدرة الله تعالى على التصرف فى هذا العالم ونقل الأمم من العز إلى الذل وبالعكس ليعرف المكلف أن الدنيا ليست مما يبقى فنهاية كل حركه سكون وغاية كل سكون ألا يكون كقوله عز

---

(١) الرازى ج ٤ ص ٥٩١ ؛

من قائل لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب)[١] .

وجاء فى المنار (ولكون التاريخ غير مقصود له لأن مسائله من حيث هى تاريخ ليست من مهمات الدين من حيث هو دين وإنما ينظر الدين من التاريخ إلى وجه العبرة دون غيره لم يبين الزمان والمكان ...)[٢] .

وجاء (هذا وإن أخبار التاريخ ليست مما بلغ على أنه دين يتبع)[٣] .

وجاء (بينا مرارا أن أحداث التاريخ وضبط وقائعه وأزمنتها وأمكنتها ليس من مقاصد القرآن وأن ما فيه من قصص الرسل مع أقوامهم فانما هو بيان لسنة الله فيهم وما تتضمنه من أصول الدين والاصلاح)[٤] .

وجاء (فان قيل إن التاريخ من العلوم التى يسهل على البشر تدوينها والاستغناء بها عن الوحى فلماذا كثر سور الأخبار التاريخية فى القرآن وكانت فى التوراة أكثر ؟

والجواب . ليس فى القرآن شيء من التاريخ من حيث هو قصص وأخبار للأمم أو البلاد لمعرفة أحوالها وإنما هى الآيات والعبر تجلت فى سياق الوقائع بين الرسل وأقوامهم لبيان سنن الله تعالى فيهم إنذارا للكافرين بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وتثبيتا لقلبه وقلوب المؤمنين)[٥] .

---

(١) غرائب القرآن : ج ١١ ص ٨٥ ط هامش الطبرى .
(٢) المنار ج ١ ٢٧٩ .
(٣) المصدر السابق ج٤ ص٧
(٤) « « ج١٢ص١٠١
(٥) « « ج٢ص ٢٠

وماروت من سورة البقرة ما يلي (ومن البديهي أن ذكر القصة فى القرآن لا يقتضى أن يكون ما يحكى فيها عن الناس صحيحا فذكر السحر فى هذه الآيات لا يستلزم إثبات ما يعتقد الناس منه كما أن نسبة الكفر إلى سليمان التى علمت من النفى لا تستلزم أن تكون صحيحة لأنها ذكرت فى القرآن ولو لم يكن ذكرها فى سياق النفى .

قال الأستاذ الامام . بينا غير مرة أن القصص جاءت فى القرآن لأجل الموعظة والاعتبار لا لبيان التاريخ ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيات الأخبار عند الغابرين وإنه ليحكى من عقائدهم الحق والباطل ومن تقاليدهم الصادق والكاذب ومن عاداتهم النافع والضار لأجل الموعظة والاعتبار فحكاية القرآن لا تعدو موضع العبرة ولا تتجاوز موطن الهداية)[1] .

هذه هى الفوائد التى جناها العقل الاسلامى بعد أن قطع هذه المرحلة الطويلة الشاقة من التفكير فى العلاقة بين القصص القرآنى والتاريخ وإنها فوائد لا يدفع خطرها ولا تنكر قيمتها وإن تكن بعد ذلك قاصرة عن أن تحل تلك المشكلة الخالدة التى من أجلها عقدنا هذا الفصل وهى المشكلة القائمة على أساس أن بالقصص القرآنى أخطاء من أخطاء التاريخ .

إنها مشكلة خالدة بين المسلمين والمعارضين فالأولون ينكرون هذا القول ويقولون بأن الذى فى القرآن هو الحق وأن ما عداه هو الخطأ ولن يحكم التاريخ على القرآن الكريم . والآخرون يؤيدون القول بما وصلوا إليه من علم ومعرفه ويذهبون إلى أن هذه الأخطاء هى الدليل كل الدليل على أن القرآن لم ينزل من السماء وأن محمدا ليس بالنبي وأنه الذى يصنع القرآن ويدعى أنه من عند الله وأنه يختلق من الحوادث مالم يقع ويصوره على أنه الواقع التاريخى .

---

(١) المنار جـ ١ ص ٣٩٩

وليس من شك عندى فى أن هذه القضية لا تحتمل من مبدئها هذا اللجاج ولا هذا العناد وأن كلا من الفريقين قد جانب الحق وباعد الصواب .

وليس من شك عندى أيضا فى أن مصدر الخطأ فيما ذهب إليه من آمن بهذه الأشياء وصدق كل ما فيها من تاريخ أو من أنكرها وادعى أنها أخطاء تاريخية أو قصص ملفقة هو جهل أولئك وهؤلاء أو تجاهلهم لما بين الأدب والتاريخ من علاقات ولما يصنعه الأول وخاصة ما فيه من قصص حين يستغل الثانى فى أداء رسالته فى هذه الحياة .

واعتقد أن من حقنا أن نقف وقفة قصيرة نشرح فيها هذه العلاقات لنقدر مافى القرآن من قيم تاريخية تقديرا لاينكره الدين .

٢ـ الأدب والتاريخ

أما اعتماد التاريخ على الأدب فأمر لا ينكره أحد ذلك لأن المؤرخين يؤمنون بأن الأدب أخصب ميدان لتصوير حضارة الشعوب ولذا نراهم يعتمدون عليه ويعدونه من أهم العناصر المكونه للتاريخ بل لعل منهم من يراه أصدق الأشياء فى هذا الجانب ذلك لأنه يدل على البذور الكامنة فى النفوس لكثير من الآراء التى قدر لها أن تسود الجماعات ولأنه يصور الآمال والمثل العليا بل يصور الأحلام ومافيها من رغبات مكبوته لجأ الأدب نفسه فى تصويرها إلى الرمز والاشارة وغيرهما من أدوات التعبير .

وأما اعتماد الأدب وبخاصة القصة على التاريخ فهو الأمر الذى يحتاج إلى حديث . نعم إن الواقع العملى لكبار الكتاب يؤيد هذه القضية . وإن إعتماد القصاص على التاريخ يكسب حديثه سحر ويجعل النفوس شديدة الميل وسريعة التصديق لكثير مما جاء فيه . ولكن المسألة فيما نعتقد ليست مسألة اعتماد فحسب وإنما هى إلى جانب ذلك أو قبل ذلك مسألة الخلق الفنى وإذا كان الخالق المبدع يعمل غير مقيد يعمل وقد ملك حريته كان من الحتم علينا أن نتحدث عن هذه الحرية (١) ميدانها (٢) وحدودها .

أما ميدان هذة الحرية فقد يكون اختيار بعض الأحداث التاريخية دون بعض وقد يكون إهمال مقومات التاريخ من زمان ومكان وترتيب للأحداث كما قد يكون القرب أو البعد من الواقع التاريخى وبعبارة أخرى

قد يكون تحرى الصدق والصحة أو المجاوزة عن هذا التحرى وذلك لأن الأدب يكتفى فى كثير من الحالات بالمشهور المتداول من المعارف التاريخة او بالصور الذهنية للجماعة البشرية عن هذا الكون وأحداثه وبخاصة حينما يقصد إلى هذه المعارف ليتخذ منها المواد التى تعينه على ضرب الأمثال وقص القصص وإذا كان من المحدثين من يعبر عن هذه الحالة بقوله إن الأدب يتناول الأشياء لا كما هى بل كما تبدو فى ظاهرها ولا كما هى كائنة فى ذاتها بل كما تدركها الحواس وتؤثر فى عواطفنا فأن من الأقدمين العرب من فطن إلى هذه الحقيقة الفنية وأولئك هم البلاغيون إذ ليس يخفى أنهم اكتفوا فى اللزوم باللزم الذهنى الذى يقوم على العرف والعادة ولم يتطلبوا اللزوم العقلى المنطقى الذى يقوم على حقائق الأشياء فى ذاتها لا كما تدركها الحواس.

واكتفاؤهم باللزوم العرفى فى مسائل البيان من تشبيه واستعارة ومن كناية وتمثيل ومن قص القصص لضرب الأمثال وللهداية والارشاد يجعلهم فى حل من أن يعتمدوا من قضايا التاريخ ماهو المشهور المتداول حين يقصون القصص ويضربون الأمثال وليس يلزم أن يكون هذا المشهور المتداول مطابقا للحق والواقع لأن هذه المطابقة إنما يتطلبها المؤرخ والفيلسوف لا الشاعر ولا الأديب القصاص (١).

وأما حدود هذه الحرية فقد تتسع لدى القصاص حتى لتشبه قصته أن تكون أسطورة أو ضربا من ضروب الخيال وقد تضيق حتى لتشبه القصة أن تكون كتابا من كتب التاريخ والأمر بعد متوقف على قصد الأديب فأن كان تعليم التاريخ بواسطة القصة ضاقت هذه الحدود لكن لا إلى الحد الذى تفسد فيه الحقائق التاريخية على القارىء استمتاعه بالفن :

---

(١) راجع شروح التلخيص ج ٣ ص ٣٧٣.

أما إن كان القصد من القصة التاريخية الاعتماد على ذلك الميل النفسى ميل المحبة لكل ما هو قديم لأنه يكسب القصة روعة وجلالا ويضفى عليها شيئا من السحر ويكسبها تلك القوة التى تجعلها قريبة من الواقع وتجعل القارىء أو السامع يصدق بسهولة كل ما جاء فيها فان هذه الحرية تتسع لكن لا إلى الحد الذى يتعارض فيه الواقع التاريخى مع قضايا الفن ومسائله وإلا أفسد هذا التباين على القاص غرضه ولذا تعتبر القضايا التاريخيه المغرقة فى القدم والتى تجهل تفاصيلها جهلا يكاد يكون تاما أحسن ميدان لهذا النوع من القصص إذا أردنا للخلق الفنى الإنطلاق من القيود والإنفلات من الحدود والتمتع بالحرية التامة الشاملة .

والأمثلة التى نستطيع أن نضربها كثيرة متنوعة فلدينا من أحداث التاريخ أحداث كثيرة استغلها قصاص كثيرون وقد كان لكل منهم حريته فى تصوير الحادثة وخلق الشخوص وقد يكفى فى هذا المقام أن نذكر كليوبطرة وكيف استغل كل من شكسبير وبرنارد شو وشوقى موقفها من انطونيو فى تصوير قصته . وقد يكفى كذلك أن نذكر من أسماء القصاص الذى استغلوا التاريخ اسم والترسكت لنعرف كيف كان يتصرف فى التاريخ فلقد كان هذا الرجل يعمد إلى أحياء التاريخ الأوسط وكان يرى فيه مجالا خصبا لإرسال الخيال وخلق القصص ومن هنا لم يلتزم الصدق والدقة بل كثيراً ما كان يخلق شخوصا من العدم وينطقها بما يشاء من أقوال كما كان يذكر أحداثا لم تقع ويصورها الصورة التى يرى أنها تحدث الأثر المطلوب .

لكن الوصول بنا الى هذه المسألة يوقعنا فى حيرة ويعقد المسألة أمامنا ويجعل من الشاق العسير أن نستخلص مافى القصة من صور صادقة عن

الأحداث الماضية ويجعل ما فى القصة من قيم تاريخية مجال الشك إن لم يكن الرفض ذلك لأن الباحث لن يستطيع أن يعلم فى يقـــين أين من الحقائق المذكورة ما أفرغ فيه الكاتب خلجات نفسه وأين منها ماخلقه خلقا لتتسق له الصورة وأين منها ما اكتفى فيه برواية الصادق الأمين .

إن استخلاص الحقائق التاريخية من الأقاصيص يتوقف على معرفتنـا لمدى تلك الحرية التى تمتع بها القاص أثناء تصوره للأحـــداث وتحريكه للأشخاص وتصويره للبيئة وإنطاقه كل هذا بمـا يوائم الفن ويلائم الحرية ويجرى مع الخلق الأدبى فى مضمار واحد حتى النهـــاية . وأنه لأمر شاق عسير .

نعم نستطيع أن نفترض أن دراسة الأحداث التاريخيـة والوقـوف عليها من كتب التاريخ ييسر الأمر ويسهل السبيل ويصل بنـا الى ما نريد من تحديد وتقدير لما فى القصص من قيم تاريخية . ولـكن ذلك الفرض لن يشفى الغليل لأن الأمر قد يكون أمر احداث أغرقت فى القدم ثم نقلت الينا فى روايات شفهية زادت عليها أو نقصت منهـا حتى أحالتهـا إلى شىء يشبه القصص أو يشبه الأساطير ووقفت الأمور عند هذا الحد حتى لم نجد أى دليل غـير تلك الروايات ومن أمثال ذلك مارواه الجـاهليون عن ناقة صالح وجن سليمان وساقه القوم فيما بعد على أنه الحقيقة والتاريخ . كما قـد يكون الأمر أمر اعتماد القاص على الواقع النفسى لا الواقع التاريخى أى الاعتماد على المشهور المتداول لا على الصور الحقيقية لأحداث التاريخ .

هذه أمور يجب مراعاتها حين البحث عما فى القصص من مسائل التاريخ وقضاياه وهى أمـور تجىء دائمـا بعد البحث عن أغـراض القصص لأن

الأغراض والمقاصد تلعب الدور الأول فى كيفية بنـــاء القصة من حيث توزيع المناظر واقامة الحوار ورسم الشخوص والأحداث وليس يخفى أن تلك من عوامل الإستهواء التى توحى بما يريد القاص من فكر أو آراء ومعتقدات .

والآن نستطيع أن ننتقل مرة ثانية إلى الجو القرآنى لنرى رأينا فى تلك المشكلة المتعـلقة بالقصص القرآنى وما يقـــال من أن به أخـطاء من أخطاء التاريخ .

وقبل البدء ننظر فى اعتراض قد يستثار ذلك لأن ما قررناه من صلة بين التاريخ والقصة يعتمد على ظاهرات فى القصص لوحظت حديثا وقررت على أنها بعض التقاليد الادبية التى تصور ما للقاص من حرية . والقرآن أقدم من هذه الملاحظات للظواهر وهذه المقررات للتقاليد . على أنهـا لو كانت قديمة لاتلزم القرآن فى شىء اذ لـكل قاص مذهبه وطريقته ولكل خالق حريته فى الخلق والابتكار ولن يقرر ما فى القرآن من قيم الامذهب أدبى التزمه القرآن نفسه أو على أقل تقدير حرص عليـــه وهو قول له وجاهته فيما نعتقد ثم هو يلزمنا الى أن نبحث طريقة القران من واقعة العملى فهل توجد فيه ياترى تلك الحرية أو التزم طريقـة واحدة هى طريقة الصدق والتحرى عن الحقيقة حين يصور أحدث التاريخ ؟

يدلنا الاستقراء على أن ظواهر كثيرة من ظاهرات الحرية الفنية توجـد فى القرآن الـكريم ونستطيع ان نعرض عليك منهـا فى هـــذا الموقف مايلى :

(١) إهمال القرآن حين يقص لمقومات التاريخ من زمان ومكان فليس فى القرآن الكريم قصة واحدة عنى فيها بالزمان . أما المكان فقد أهمل إهمالا يكاد يكون تاما لولا تلك الأمكنة القليلة المبعثرة هنا وهناك والتى لم يلفت القرآن الذهن إليها إلا عرضا .

على أن القرآن عمد إلى إهمال الأشخاص فى بعض أقاصيصه إهمالا تاما . وهذه من المسائل التى سنعرض لها فى الباب الثانى إن شاء الله .

(٢) إختياره لبعض الأحداث دون بعض فلم يعن القرآن بتصوير الأحداث الدائرة حول شخص أو الحاصلة فى أمة تصويراً تاما كاملا وإنما كان يكتفى باختيار ما يساعده على الوصول إلى أغراضه أى ما يلفت الذهن إلى مكان العظة وموطن الهداية ولعله من أجل ذلك كان القرآن يجمع فى الموطن الواحد كثيرا من الأقاصيص التى تنتهى بالقارىء إلى غاية واحدة . وتلك أيضا من المسائل التى ستشرح فى الباب الثانى .

(٣) كان لا يهتم بالترتيب الزمنى أو الطبيعى فى إيراد الأحداث وتصويرها وإنما كان يخالف فى هذا الترتيب ويتجاوزه الأمر الذى أكثر من الإشارة إليه صاحب المنار (١) والذى نستطيع أن نجعل منه أيضا قصة لوط فقد قال تعالى فى سورة الحجر « فلما جاء آل لوط المرسلون قال إنكم قوم منكرون قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون وآتيناك بالحق وإنا لصادقون فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين وجاء أهل المدينة يستبشرون قال إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون واتقوا الله ولا تخزون قالوا أو لم ننهك عن العالمين قال هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون فأخذتهم الصيحة مشرقين »

(١) المنار جـ ١ ص ٣٤٦ و جـ ٨ ص ٥٠٢

فأن هذه القصة لو لوحظت مع إحدى قصص لوط فى القرآن كقصته فى سورة هود مثلا لوجدنا القصة فى سورة هود تجرى على هذه الطريقة . مجىء الملائكة » ثم حاله واضطرابه النفسى ، ثم مجىء القوم ثم موقفه وعرض بناته حتى لا يخزى ، ثم ردهم عليه وعزمهم على إتمام قصدهم ، ثم موقف الملائكة واخبارهم إياه أنهم رسل ربه ، واخباره بمجىء العذاب وموعده ، ثم نوع العذاب . فهنا نلحظ أن المحاورة بينه وبين قومه تتم قبل أن تخبره الملائكة بأنهم رسل ربه والقصة تجرى بعد ذلك وقد رتبت وقائعها الترتيب الذى يشعر بأن الزمن هو المحور الذى يربط هذه الوقائع المختارة أو هذه الأحداث المصورة . أما فى الحجر فتعلمه الملائكة كل شىء قبل مجىء قومه ومع ذلك تمضى المحاورة مع قومه وكأنه لم يعلم بأن أضيافه من الملائكة . وليس يخفى أن هذا بعيد عن الوقائع ومشاكلته قريب من القصص وما فيه من حريه تؤذن للقاص بأن يرتب أحداثه الترتيب الذى يصل إلى الغرض ويؤدى إلى الأهداف .

(٤) اسناده بعض الأحداث لأناس بأعيانهم فى موطن ثم اسناده نفس الاحداث لغير الأشخاص فى موطن آخر ومن ذلك قوله تعالى فى سورة الاعراف « قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عظيم » إذ نراه فى سورة الشعراء مقولا على لسان فرعون نفسه « قال للملأ حوله إن هذا لساحر عظيم » . وكذلك نجد فى قصة ابراهيم من سورة هود أن البشرى بالغلام كانت لامرأته بينما نجد البشرى لابراهيم نفسه فى سورة الحجر وفى سورة الذاريات .

(٥) انطاقه الشخص الواحد فى الموقف الواحد بعبارات مختلفة حين يكرر القصة ومن ذلك تصويره لموقف الإله من موسى حين رؤيته النار

فقد نودى فى سورة النمل بقوله « فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها » وفى سورة القصص « فلما اتاها نودى من شاطىء الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة ان ياموسى إنى أنا الله رب العالمين» وفى سورة طه « فلما آتاها نودى ياموسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى » . وذلك يشبه أيضا تصويره للموقف الواحد بعبارات مختلفة حين صور خوف موسى فمرة اكتفى بقوله « خذها ولا تخف » ومرة أخرى قال « فلما راها تهتز كانها جان ولى مدبرا ولم يعقب ياموسى لا تخف انى لا يخاف لدى المرسلون » . وهكذا فى غيرهما من المواقف كتعبيره بالرجفة مره وبالصيحة أخرى والطاغية فى غيرهما وكتعبيره فى انشقاق الحجر عن الماء فى قصة موسى فانفجرت مرة وانبجست أخرى وهكذا من المسائل التى جعلتهم يعدون القصص القرآنى من المتشابه وليس من شك عندى فى أن الاختلاف كان نتيجة تغير فى القصد أو الموقف وأن هذا التغير جعل هذه قصة وتلك قصة وما نرى من اختلاف ليس الا الصور الأدبية التى تلائم المقاصد والأغراض .

(٦) وجود مواقف جديدة لم تحدث بعد فى سياق القصة التى تصور أحداثا وقعت وانتهت ومن ذلك قوله فى سورة الأعراف « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والأنجيل» وذلك فى سياق القصة التى تصور موسى واختياره للسبعين رجلا وتوجهه إلى الله ومن ذلك ما سبق أن ذكرناه من قوله تعالى « وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله » فليس من شك أن اليهود ينكرون رسالة عيسى ومن أجل ذلك قتلوه . فهم لم يقولوا هذا القول وإنما أنطقهم به القرآن . ومن قوله تعالى فى آخر سورة المائدة وصفا لموقف فى الآخرة « وإذ قال الله ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس إتخذونى وأمى إلهين من دون الله .. إلخ »

فأن هذا القول وهذا الحوار تصوير لموقف لم يحدث بعد بل لعله لن يحدث إذ القصد منه كما سبق أن ذكرنا التأثير على المعاصرين لمحمد عليه السلام والعمل على تنفيرهم من عبادته وعبادة أمه عليهما السلام .

ومثل ذلك الموقف أو قريب منه ما عرض له القرآن من حديث عن الجن فى أثناء تصويره لوفاة سليمان عليه السلام فقد قال تعالى « فلما قضينا عليه الموت مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين » فقد قصد القرآن وقد عرض للجن بالحديث فى أثناء قصه أشياء عن سليمان عليه السلام أن يحارب الفكرة الجاهلية الشائعة فى الجزيرة العربية وقت البعثة المحمدية من أن الجن تعرف أخبار السماء وتطلع على الغيب وتلق ما تعرف من ذلك على العرافين والكهان فقد كانت هذة الفكرة من العقبات القوية إن لم تكن أولى هذه العقبات فى سبيل النبى عليه السلام وإثبات نبوته فلقد كان القوم يذهبون إلى أن الشياطين تملى عليه ما يقول وأنها تسمع هذا الذى تمليه من السماء « وما تنزلت به الشياطين وما ينبغى لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون » .

وهكذا نستطيع أن نمضى فى حصر الظواهر التى تثبت لنا مذهب القرآن القصصى والتى تدل دلالة قوية على أن بعض ظواهر الحرية الأدبية التى يمنحها الأدباء لأنفسهم توجد فى القرآن الكريم وأن القرآن قد قصد إليها ولكننا نريد أن نقف من كل ذلك عند قصتين اثنتين كانتا موطن إختبار النبى عليه السلام لمعرفة صدقه من كذبه أو معرفة هل هو نبى أو متنبى وهما قصة أصحاب الكهف وقصة ذى القرنين فأن هاتين القصتين تقدمان لنا الدليل القوى على المذهب القرآنى فى العلاقة بين القصة والتاريخ .

أما قصة أصحاب الكهف فنقف منها فى هذا الموطن عند مسألتين الأولى مسألة عدد الفتية والثانية مدة لبثهم فى الكهف .

أما من حيث العدد فليس يخفى أن القرآن لم يذكر عددهم فى دقة وانما ردد الأمر بين ثلاثة رابعهم كلبهم وخمسة سادسهم كلبهم وسبعة ثامنهم كلبهم . وليس يخفى أيضا أن القرآن الكريم قد ختم هذه الآية بتلك النصيحة التى يتوجه بها إلى النبى عليه السلام وهى قوله تعالى قل ربى أعلم بعدتهم مايعلمهم الا قليل فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحداً ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدينى ربى لأقرب من هذا رشدا .

ما معنى هذا الترديد فى العدد ؟ وما معنى هذه النصائح ؟

لا نستطيع أن نقول إن المولى سبحانه وتعالى كان يجهل عدد الفتية من أهل الكهف وأنه من أجل هذا لم يقطع فى عددهم برأى فالمولى سبحانه وتعالى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء وانه ليعلم السر وأخفى . وإنما نستطيع أن نقول إن هذا لم يكن إلا لحكمة والحكمة فيما نعتقد هى أن المطلوب من النبى عليه السلام أن يثبت أن الوحى ينزل عليه من السماء وأن يثبت ذلك لا بالعدد الحقيقى للفتية من أصحاب الكهف فذلك لم يكن موطن الإجابة وانما بالعدد الذى ذكره اليهود من أهل المدينة للمشركين من أهل مكة حين ذهب وفدهم ليسأل عن أمر محمد أنبى هو أم متنبى واذا كان أحبار اليهود قد اختلفوا فى أمر العدد وذكر كل منهم عددا معينا كان على القرآن أن ينزل بهذه الأقوال حتى يكون التصديق من المشركين بان محمدا عليه السلام نبى ولو ذكر القرآن العدد الحقيقى وأعرض عن

أقوال اليهود لكان التكذيب القائم على أن محمدا لم يعرف عدد الفتية وليس وراء هذا الا أن الوحى لا ينزل عليه من السماء .

ومثل هذا تماما موقف القرآن من عدد السنين فلم يذكر القرآن العدد الحقيقى وإنما اكتفى المولى سبحانه وتعالى بما يعرفه اليهود ومن هنا نصح النبى عليه السلام بأن يقول قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض ولسنا بحاجة الى أن نقول هنا أيضا بأن العلى القدير لم يعرض عن عدد السنين الحقيقى الا لحكمة وأن هـذه الحكمة هى أن يكون ما يذكر فى القرآن الكريم مطابقا لما قاله اليهود للمشركين . وهذا هو الذى أشار اليه بعض الأقدمين من المفسرين . جاء فى الطبرى « . . فقال بعضهم ذلك خبر من الله تعالى ذكره عن أهل الكتاب أنهم يقولون ذلك كذلك واستشهدوا على صحة قولهم ذلك بقوله قل الله أعلم بما لبثوا وقالوا لو كان ذلك خبرا من الله عن قدر لبثهم فى الكهف لم يكن لقوله قل الله أعلم بما لبثوا وجه مفهوم وقد أعلم الله خلقه مبلغ لبثهم فيه وقدره . »(١)

موقف القران من قصة أصحاب الكهف موقف من لا يحكى الحقيقة التاريخية وانما يحكى أقوال اليهود التى قد تطابق الحقيقة وقد لا تطابقها ومن هنا لا يصح أن يتوجه أى اعتراض على هذه القصة من حيث اختلافها مع الواقع لأن تحقيق هذا الواقع ليس المقصود من القصة فى القرآن الكريم وسنزيد هذه القصة بيانا وايضاحا فى الباب الثانى ان شاء الله .

وأما قصة ذى القرنين فقد سبق أن شرحنا أن القرآن انما يصور فى

---

(١) الطبرى ج ١٥ ص ١٠٢

هذه القصة وبخاصة عند حديثه عن غروب الشمس ما يراه القوم بأعينهم وبعبارة أخرى يعبر القرآن عن مبصرات القوم كما يستطيعون رؤيتها لا حقيقة ما يقع واذا كنا سنقف عند هذه القصة فى الباب الثانى لنثبت أن القرآن إنما صور فى هذه القصة ما كانت تعرفه الجماعة العربية عن ذى القرنين وعن غروب الشمس من طريق السمع وأنه صور مسموعاتهم لا مبصراتهم فأنا سنقف هنا لنرى رأينا فى مذهب القرآن البلاغى. فهل كان يقيم تشبيهاته وإستعاراته كما كانت تقيمها العرب على العرف والعادة أو كان يتطلب الحقيقة العقلية ليقيم عليها بيانه العربى من تشبيه واستعاره ومن كناية وتمثيل ؟.

ب كان القرآن يجرى على الصور الذهنيه أو على الواقع النفسى فى تشبيهاته وإستعاراته حين يتحدث عن جهنم ويصف طعامها والشراب وحين يتحدث عن الذى يتخبطه الشيطان من المس. جاء فى الرازى عند تفسيره لقوله تعالى « انها شجرة تخرج فى أصل الجحيم طلعها كأنه رؤوس الشياطين » مايلى (وأما تشبيه هذا الطلع برءوس الشياطين ففيه سؤال لأنه قيل انا ما رأينا رءوس الشياطين فكيف يمكن تشبيه شيء بها ؟ . وأجابوا عنه من وجوه . الأول وهو الصحيح أن الناس لما اعتقدوا فى الملائكة كمال الفضل فى الصورة والسير واعتقدوا فى الشياطين نهاية القبح والتشوية فى الصورة والسيره فكما حسن التشبيه بالملك عند تقرير الكمال والفضيلة فى قوله ان هذا إلا ملك كريم فكذلك وجب أن يحسن التشبيه برءوس الشياطين فى القبح وتشويه الخلقة)[١]

وجاء فى الكشاف عند تفسيره لقوله تعالى « لايقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » ما يأتى (لايقومون اذ بعثوا من قبورهم

(١) الرازى ج ٧ ص ٩٩

إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان أى المصروع وتخبط الشيطان من زعمات العرب يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع والخبط الضرب على غير استواء كخبط العشواء فورد على ما كانوا يعتقدون .

والمس الجنون ورجل ممسوس وهذا أيضا من زعماتهم وأن الجنى يمسه فيختلط عقله وكذلك جن الرجل ضربته الجن ورأيتهم لهم فى الجن قصص وأخبار وعجائب وإنكار ذلك عندهم كأنكار المشاهدات] . (١)

القرآن يجرى كما ترى فى فنه البيانى على أساس ما كانت تعتقد العرب وتتخيل لا على ما هو الحقيقة العقلية ولا على ما هو الواقع العملى ولعله أن يكون من ذلك حديث القرآن عن المنافقين فى قوله تعالى « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك رسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » فأنا نراه يقيم تكذيب المنافقين على أساس مايعتقدون لا على أساس ما هو الحق والواقع فلقد كان المنافقون يعتقدون أن محمدا غير مرسل من ربه وكان الحق والواقع أنه رسول وقيل المنافقين له إنك رسول الله يتفق مع الحق ويختلف وما يعتقدون ومن هنا رماهم القرآن بالكذب وحذر النبى عليه السلام منهم .

والقرآن يجرى على هذا المذهب أيضا حين يتحدث عن الجن وعن عقيدة المشركين فيهم وأنهم كانوا يستمعون الى السماء ليعرفوا أخبارها ثم يقومون بعد ذلك بالقاء هذه الأخبار على الكهنه وكان الكهنة يدعون الاطلاع على الغيب ومعرفة الأسرار .

يجرى القرآن على هذا المذهب الأدبى فى محاولته هدم عقيده المشركين السابقة وقد كانت تعتبر العقبة الأولى فى سبيل الدعوة الإسلامية لما فيها من

---

(١) الكشاف حـ ١ ص ١٧٦

وسابعها . أن هذه الرجوم انما تحدث بالقرب من الأرض بدليل أنا نشاهد حركتها بالعين ولو كانت قريبة من الفلك لما شاهدنا حركتها كما لم نشاهد حركات الكواكب واذا ثبت أن هذه الشهب انما تحدث بالقرب من الأرض فكيف يقال انها تمنع الشياطين من الوصول الى الفلك ؟ .

وثامنها . أن هؤلاء الشياطين لو كان يمكنهم أن ينقلوا أخبار الملائكة من المغيبات الى الكهنة فلم لا ينقلون أسرار المؤمنين الى الكفار حتى يتوصل الكفار بواسطة وقوفهم على أسرارهم الى إلحاق الضرر بهم ؟ .

وتاسعها . لم لم يمنعم الله ابتداء من الصعود الى السماء حتى لايحتاج فى دفعهم عن السماء الى هذه الشهب ؟] (١)

ولو أن الرازى فطن من أول الأمر الى أن القرآن إنما يحارب هذه العقيدة ويحاربها بأسلوبه الخاص القائم على فكرة التدرج وأن هذا التدرج يشبه تماما التدرج فى التشريع فى مسألة محاربة الخمر وغيرها وأن النسخ فى التشريع إنما يعلل بهذه الفكرة لوفطن الرازى الى كل هذا لما أتعب نفسه وأتعب غيره فى هذه الوقفات الطويلة ولقال بأن القرآن إنما ياخذ الناس بتصوراتهم وأنه فى هذا الموقف قد سلم بهذه العقيدة لا لأنها حق وصدق وإنما لأنه يريد أن يهدمها تدريجيا فيسلم بها أولا ثم يأخذ فى هدمها مستعينا بالزمن .

أعتقد أن قد أضح الآن أن القرآن كان يأخذ الناس بتصوراتهم ويأخذهم بالعرف والعادة وأنه كان يفعل هنا ماكان يفعله فى أمور التشريع من أخذ الناس بعاداتهم ومن تغيير هذه العادات تدريجيا الأمر الذى من أجله كان النسخ فى التشريع .

---

(١) الرازى حـ ٨ ص ١٨٣

وأعتقد أن قد وضح أيضا أن القرآن قد قص فى القصص التى كانت موطن الأختبار لمعرفة نبوة االنبى عليه السلام وصدق رسالته مايعرفه أهل الكتاب عن التاريخ لا ما هو الحق والواقع من التاريخ وأنه من هنا لايجوز الاعتراض على النبى عليه السلام وعلى القرآن الكريم بأن بهذه الأقاصيص أخطاء من أخطاء التاريخ .

أعتقد أن قد وضحت هذه الأمور وسنزيد هذه المسائل بيانا ووضوحا فى الباب الثانى إن شاء الله .

وقبل أن نختم هذا الفصل نلفت دهن القارىء إلى أنه إذا وضح لديه الوضوح الكافى بأن القصة القرآنية قد قصد منها إلى التاريخ فأنه يتعين عليه أن يؤمن بما جاء فيها على أنه التاريخ وذلك كتقرير القرآن لمسألة مولد عيسى عليه السلام وتقريره لمسأله إبراهيم عليه السلام وأنه لم يكن يهوديا ولا نصرانيا.أما تلك التى يقصد منها إلى العظة والعبرة وإلى الهداية والإرشاد فأنه لايلزم أن يكون ما فيها هو التاريخ فقد يكون المعارف التاريخية عند العرب أو عند اليهود وهذه المعارف لاتكون دائما مطابقة للحق والواقع . واكتفاء القرآن بما هو المشهور المتداول أمر أجازه النقد الأدبى وأجازته البلاغة العربية وجرى عليه كبار الكتاب ومن هنا لايصح أن يتوجه اعتراض على النبى عليه السلام أو على القرآن الكريم .

الفصل الثانى

القيم الإجتماعيـــة والنفسية

وتختلف المسألة هنا عنها فى القيم التاريخية اختلافا يكاد يكون تاما وذلك لأسباب كثيرة لعل أهمها ما يخص :

(١) المقاصد والأغراض .

(٢) وما يخص النتائج المترتبة على كل .

أما من حيث المقاصد فقد سبق أن علمنا فى الفصل السابق أن المعانى التاريخية غير مقصودة من القصص القرانى. فطن إلى ذلك المفسرون ونص عليه القرآن ومن هنا لم تكن صالحة لأن تكون محلا لاستنباط القضايا التاريخية كما لم تعتبر جزءا من الدين وعنصراً من عناصره نزلت لنتعبد بها أو نؤمن بما فيها من رأى . أما هذه المعانى اجتماعية ونفسية فقد قصد إليها القرآن وحاول تقريرها فى القصص وفى غيره ثم هو قد أخذ يستند إليها كلما حاول الدفاع عن النبى عليه السلام وعن الدعوة الإسلامية وصورها على أنها من القواعد العامـــة الثابتة فى كل قصة تصور نزاعا بين الرسل وأقوامهم حتى لقد أصبحت فى عرفه من النواميس العامة التى تصلح لكل زمان ولكل مكان وذلك من أمثال مجىء الرسل بألسنة أقوامهم وأن لكل أمة رسولها ولكل أمة أجلها إلى غير ذلك من الأمور التى سنبسطها فى هذا الفصل إن شاء الله .

وأما من حيث النتائج فنحن نعلم أن المعانى التاريخية كانت الباب الذى يلج منه الملاحدة والمستشرقون والمبشرون وكل من أراد الكيد للنبي وللاسلام أما هذه النواميس فهى فخر كل مسلم يؤمن بالقرآن ويدين بالقرآن ويدين للاسلام ذلك لأنها تقرر من النواميس النفسية والإجتماعية ما يجعل الدعوة الإسلامية أكثر ارتباطا بالفطرة وأقدر الدعوات على مسايرة الرقى العقلى والتطور الإجتماعى فى هذه الحياة .

ولعل من أقوى المثل التى تصور لك هذا الرأى موقف القرآن من المعجزات فلقد كان الأقدمون من أهل الكتابين ومن مضى من الأمم السابقة لا يؤمنون بالنبوة ولا يدينون بالرسالة إلا على بينه من المعجزات وجاء القرآن فارتفع بالعقل البشرى درجات ودرجات . ارتفع به حين فصل بين المعجزات وبين الإيمان بالرأى وذلك حين قال « ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا إن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون »(١) .

وارتفع به حين أزال عنه شبح الخوف حين دلـّه على أن المعجزات لم تكن إلا للإكراه والإلزام وذلك حين قال « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا »(٢) .

وأرتفع به حين رد مسألة الإيمان والكفر إلى أسباب عامة ونواميس ثابتة مستقرة وذلك حين قال « يس والقرآن الحكيم إنك من المرسلين

---

(١) الانعام ١١١
(٢) الاسراء ٥٩

على صراط مستقيم تنزيل العزيز الرحيم لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون إنا جعلنا فى اعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فاغشيناهم فهم لا يبصرون وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم »[1].

إذ يرى الناظر فى هذه الآيات وأمثالها أنها وصف أدبى دال يعبر أقوى تعبير عن حال أولئك القوم الذين أثقلتهم التقاليد وطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وأولئك الذين تمكنت منهم العقائد الباطلة حتى لينظرون إلى الوجود من خلالها وختام هذه الآيات يشرح هذه الظواهر أجمل شرح ويوضح تلك الظاهرة الإجتماعية التى تحدث مع كل دعوة وتوجد فى كل زمان ومكان وهى أن نفوس الناس مختلفة واستعدادتهم متفاوته وقدرتهم على التخلص من القديم والإستجابة للجديد تتوقف إلى حد كبير على مايحيط بهم من ظروف وما يلم بهم من أحداث ومايعده الزمن للمستقبل مس رجال أحرار يحاولون النهوض بأمتهم والأخذ بيدها والسير بها فى طريق التقدم والرقى ومن هنا نرى القرآن فى هذه الآيات يقابل بين صنفين صنف عدم القادة فأثقلتهم التقاليد وتمكنت من نفوسهم العقائد الموروثة وهؤلاء هم الذين خصهم بقوله « لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون » وصنف آخر استعدت نفوسهم وتهيأت عقولهم وقلوبهم لأمثال هذه الدعوة وهم الذين خصهم الله بقوله « انما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب ».

وهكذا نستطيع أن نمضى مع هذه الآيات وأمثالها فنرى أنها من الأمور

---

(١) يس ١ — ١١

التى يفخر بها كل مسلم ويطمئن اليها كل باحث ويحرص عليها كل من وهبه الله ذوقا مترفا وإحساسا مرهفاً ليتبين أن هذه النواميس من أكبر مواطن الإعجاز .

هذه أهم الفروق فيما نرى بين هذا المقام وذاك .

وهنا أمر لا بد من الوقوف عنده هو أنا لن ندرس فى هذا الفصل من القيم الإجتماعيـة إلا ما كان عاما كالنواميس الإجتماعيـة والنفسية التى تثبت وتستقر ولا تتغير بتغير الظروف والأحوال . أما تلك الحالات الخاصـة التى كان يصورها القرآن فى حديثه عن الأقوام كصورته لقوم عاد وصورته لأهل مدين أو قوم شعيب من أنهم ينحتون من الجبال بيوتا أو يطففون المكيال والميزان فأمور لن نعرض لها هنا لأنهـا بباب القيـم الخلقية أليق ولأنها من قبيل الأجواء التى يحرص عليها القصصاص .

وكذلك الحالات النفسية الخاصة كحلم إبراهيم وسرعة انفعال موسى إذ أقرب المواطن الى درسها هو الحديث عن عنصر الشخصيات .

سنقصر الحديث هنا على النواميس النفسية والإجتماعية واعتقد أن قد آن الأوان للتمييز بين اللونين ليتضح فى ذهن القارىء المراد .

نقصد بالنواميس الإجتماعية تلك النظريات التى أشار اليها القرآن أو لفت اليها الذهن حين صور العوامل المؤثرة فى رقى الأمم وحياة الشعوب والتى جعلها من الأحكام العامة حتى لنحس من صنيعه بأنها من النواميس التى لاتتخلف فى زمان أو مكان وذلك من أمثال ما تشير إليه الآية الكريمة « لم يكن الذين كفروا من أهـل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم

البينة رسول من الله يتلو صحفا مطهرة فيها كتب قيمة وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة [١] . » من نواميس إذ هى تشير أولا إلى أن الأمم والجماعات فى حاجة إلى الرجال فى حاجة إلى الأبطال النابغين الذين يأخذون بيدها وينيرون لها السبيل . فى حاجة إلى الذين يتفهمون رغباتها وآمالها أو أحلامها وأمانيها . فى حاجة إلى الذين يعبرون عن احتياجاتها ويصورون لها مثلها العليا . فى حاجة إلى الذين يأخذون بيدها دائما حتى لا تثقلها التقاليد أو تنوء بها العادات وحتى لا تقف جامدة حيث يتقدم غيرها فى مضمار السباق فى هذه الحياة .

ثم هى تشير ثانيا إلى أن هؤلاء الأبطال أو القادة يكونون مثار فرقة ومصدر انقسام ذلك لأن الأفراد يختلفون فيما بينهم فطرة واستعدادا ومن هنا يختلفون على الرأى بين مؤيدين ومعارضين وعلى المبادىء بين مؤمنين وكافرين حسب مايحيط بهم من أحداث وما يستثار فى أنفسهم من عواطف وانفعالات .

ومن أمثال ما تشير إليه هذه الآية أيضا « وإن يكاد الذين كفروا ليستفزونك من الأرض ليخروجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا . » [٢] إذ تشير الآية الكريمة إلى ناموس آخر هو أن الأمة التى تستعصى على التجديد تهلك ولا تعمر فى الحياة طويلا .

ونقصد بالنواميس النفسية تلك العواطف أو الانفعالات أو الأسس

---

(١) البينة ١ — ٤

(٢) الاسراء ٧٦ و ٧٧

النفسية التى تصاحب سلطان مبدأ أو سيطرة زعيم والتى تمكن للمبادىء أو تزعزع سلطانها وتحد من قدرتها والتى تظهر فى الأفراد أو فى الجماعات حين تلم بها الأحداث أو تزعجها صروف الزمان وذلك من أمثال العجب الشديد والحرص على المعتقد القديم الباديان فى قوله تعالى « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشىء عجاب وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشىء يراد (١) . »

ومن أمثال الخوف الشديد على المعتقد وحياته ومحبة التخلص من المعارضين الواضحين فى قوله تعالى « وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفاراً (٢) »

ومن أمثال التضحية فى سبيل المعتقد بالنفس والنفيس حتى ليصل الحال إلى التهديد بالقتل والتعذيب بالصلب مما سنعرضه عليك مفصلا فى هذا الفصل إن شاء الله .

وقبل أن أبدأ بتسجيل ما وقفت عليه من ظواهر نفسية واجتماعية أخبرك بأنى قد جمعت بين اللونين من النواميس فى فصل واحد لأن القصص القرآنى قد وحد بينهما فى كثير من الأحيان ولأنى أريد أن أرتب هذه النواميس أو تلك الأسس حسب مقتضيات الزمان من حيث ظهورها فى ميدان الدعوات .

---

(١) ص ١ـ٦

(٢) نوح ٢٦، ٢٧

على أن هناك امرا آخر هو أن النوميس الاجتماعية نفسها لاتفهم ولا يمكن تتبع ظواهرها إلا على أساس نفسى ومن هنا أيضا أحسست بأن هذا الجمع مرغوب فيه وأن الاعتراض عليه ليس بذى بال .

ونبدأ الآن بتسجيل هذه الظواهر ونبدأ منها بالحديث عن الأشخاص.

* * *

(ا) الأنبياء والبيئة

ولن نتناول هنا أشخاصهم وكيف صورها القرآن فذلك له موطنه من البحث فى باب القيم الفنية وإنما سنحاول أن نتحدث عنهم كأشخاص لهم فى أممهم أثر كما أن لهم بها صلة لنعرف أين يضعهم القرآن من البيئة أكانوا أثراً من آثارها ونتاجا من معدنها وتربتها أم كانوا فريدين تقدموا العصر والبيئة حتى لنحسبهم من عُنْصر خارج لم يرث عن الآباء والأجداد ولم يتأثر بالبيئة فيأخذ عنها أى أثر .

ولنعرف أيضاً كيف مضى معهم القرآن مصوراً نفسيتهم حيال مبادىء الاصلاح وسلطانها عليهم وحيال شخصيات المؤيدين والمعارضين من أقوامهم وحيال العقبات التى صادفتهم وهل وقفوا عندها أو تخطوها .

للأنبياء فى القصص القرآنى أقدارهم فهم الذين يجددون بناء المجتمع بما يبثون من أفكار ويبذرون من آراء ويوجدون من مبادىء وهم الذين يلائمون بين حاجات الأمم ومقتضيات الزمان فيطيلون أعمارها ويباعدون بينها وبين الضعف والانحلال « فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينا واتبع الذين ظلموا ما أترفوا

فيه وكانوا مجرمين وماكان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون [١]».
(قال ياقوم إنى لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون [٢] . »

والأنبياء فى القرآن هم الذين يهيئون الأمم للتقدم ويجعلونها قادرة على التخلص من آثار الماضى وهم حين ينذرون تفقد الأمة هذه القدرة فتنوء بها العادات وتثقلها التقاليد حتى لا تستطيع منهما تخلصا أو لهما فكاكا فتقف حينئذ مكتوفة الأيدى وتعجز عن التقدم فى مضمار الحياة « لتنذر قوما ما أنذر آباهم فهم غافلون [٣] . »

والأنبياء فى القرآن هم الذين يهبون للأمة الوحدة فيجمعون ماتفرق من شملها بتوحيدهم للعقائد وإحالتهم لها إلى قوة دافعة يصدر عنها الأفراد والجماعات حين يفكرون ويعملون فتفسر المسائل حينئذ تفسيرا يوحد بين وجهات النظر فى الأفراد فلا تفرق بينهم الأهواء أو تتوزعهم العواطف وتكون المبادىء إذ ذاك كالنور الذى يضىء الطريق ويهدى إلى السبيل القويم « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله . » ، « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا. » « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور » ، « يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من

---

(١) سورة هود ج ١٢
(٢) نوح ٢ — ٤
(٣) يس ٦

الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام وَيخرجهم من الظلمات إلى النور بأذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم . » .

والأنبياء ينبتون نباتا طبيعيا فهم من البيئة وليسوا بالغرباء عنها . هم من جنس القوم فلو كان سكان البيئة من الملائكة لكان انبياؤهم كذلك «قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا . » . بل هم اخوانهم المتحدثون بلسانهم فنبي قوم عاد أخوهم هود ونبي قوم ثمود أخوهم صالح ونبي مدين أخوهم شعيب . « كذبت قوم نوح المرسلين إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون . » ، « كذبت قوم لوط المرسلين إذقال لهم أخوهم لوط ألا تتقون » ، « كذبت عادالمرسلين إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون . » ، « كذبت ثمود المرسلين إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون . » ، « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم » .

والأنبياء ولدوا فى البيئة وخالطوا الأهل والعشيرة وقلدوهم فى كل ما يقال وما يفعل وهم أطفال حتى لقد آمن بعضهم بما تؤمن به البيئة من عقيدة ودانوا لما تدين له من رأى وعبدوا ما تعبد من إله ولعلهم قد أتوا من ضروب التقديس والأجلال بما تأتى ولعلهم قد تركوا منها ما تذر وما تدع فموسى مثلا قد تربى فى حجر فرعون فتأثر به وبدينه « قال ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التى فعلتها وأنت من الكافرين قال فعلتها إذا وأنا من الضالين . » وشعيب عبد ما يعبد قومه « قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودون فى ملتنا قال أو لو كنا كارهين قد افترينا على

الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شىء علما على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين » . والرسل جميعا يجرون على هذه القاعدة ويسيرون على هذا المنوال « وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا . »

كان سلطان هذه الأشياء على الأنبياء عظيما يوم أن لم يكن لهم من أمرهم شأن غير التلقين والتقليد فلما أن بلغوا أشدهم واستووا أتتهم البينه من ربهم وعند ذلك رأوا غير ما ترى البيئة وقدروا غير ما تقدر فيوسف ترك دين قومه « إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون. » ومحمد صلى الله عليه وسلم نهى عن عبادة غير الله لما جاءته البينة « قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربى وأمرت أن أسلم لرب العالمين . »

كانت البيئه فى حالة تشبه الفساد إن لم تكنه فهفت نفوس أفرادها إلى الأنبياء ومنت نفسها بالإستجابة لهم والإيمان بما يدعون إليه من رأى أو عقيدة « وأقسموا بالله جهد إيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من أحدى الأمم » . « وإن كانوا ليقولون لو أن عندنا ذكراً من الأولين لكنا عباد الله المخلصين » . « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شىء قدير . »

بل لعلها كانت تتطلع إلى فرد بعينه وشخص بذاته تعقد عليه الآمال وترجو أن يكون مخلصها من الشر ومنقذها من الضلال « قالوا يا صالح

قد كنت فينا مرجوا قبل هذا . »

رجت فأستجاب لها ربها واصطفى واحدا من أبناءها وأرسله ليكون لها هاديا وبشيرا . أرسله فأستجاب له قوم ونفر منه آخرون وحدث ما يحدث فى كل دعوة من وجود مؤيدين ومعارضين أو مؤمنين وكافرين فكانت الفرقة وكان الإنقسام .

• • •

(٢) الانقسام

والانقسام فى الجماعة نتيجة حتمية للاختلاف فى الآراء والتعصب لها. واختلاف الآراء والتعصب لها أمران يحدثان كلما دعا داع أو همَّ بالإصلاح رسول «كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بأذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.»

ويصور القرآن هذا الاختلاف على أنه الناموس العام الذى أراده الله للناس «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم».

ومن هنا لانعجب حين تلمس أثر ذلك الناموس الاجتماعى فى قوم موسى «ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإنهم لفى شك منه مريب.» وفى قوم عيسى «ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذين تختلفون فاتقوا الله وأطيعون إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم فاختلف الأحــزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم». وفى قوم صالح «ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فاذا هم فريقان يختصمون». بل فى قوم كل نبى من الأنبياء «وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيراً.»

بل قد لا نعجب إذا امتد أثر هذا الناموس إلى ماهو أبعد غورا وأكثر عمقا فلا نعجب مثلا حين نلمس أثره فى الأسرة الواحدة وفى البيت الواحد حين نرى فرعون فى واد وزوجته فى آخر « وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتاً فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين . » . وحين نرى نوحا ينادى ابنه بقلب مغطور « ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يا بنى أركب معنا ولا تكن مع الكافرين قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين . »

وحين نرى ابراهيم عليه السلام يحاول أن يهدى أباه فيعجز ويعتزله وقومه وما يدعون من دون الله . يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً قال أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى ملياً قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفياً وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعائى ربى شقياً . » بل قد لا نعجب إذا لمسنا أثر ذلك الناموس فى ذلك الموقف الفرد الذى يقف فيه ولد من والديه موقف الخصومة يدعوانه فلا يستجيب ويصم أذنيه عن الدعاء : ذلك الموقف الذى يقطر فيه البر والحنان من جانب والقسوة والعنف من آخر والذى يصوره القرآن ابلغ تصوير فيملؤه بالحركة والقوة والعواطف الهائجة والإنفعالات الثائرة ويعبر عنه بصيغ لم تخلق إلا لهذا الموقف وامثاله « والذى قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن اخرج وقد خلت القرون من قبلى وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا اساطير الأولين . »

وهكذا يسجل القرآن صور هذا الناموس ويتعقبها لا فى حياة الجماعة فحسب بل فى حياة الأسرة الواحدة وفى المنزل الواحد بل قد يجاوز كل هذا إلى أثر ذلك الناموس فى الحياة الفكرية للفرد حين تتنازعه العوامل بين قديمه والجديد وحين تتسلط عليه الخواطر فيصيبه القلق « وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ . . . »

والقرآن لا يقف من هذا الناموس الاجتماعى عند أثره فى نفس الفرد أو فى نفس الجماعة وإنما يعدوه إلى شرح علله وأسبابه ويرينا من كل هذه الأمور ما هو من عوامل التقدم والتجديد وما هو من عوامل الجمود والتقليد وهو يربط كل ذلك بظواهر اجتماعية هى من النواميس التى لا تتخلف . ولعل أحسن ما وقفنا عليه منها هو ما يأتى .

(ا) الحالة المعيشية . — والنظرة الأولى فيما صور القرآن من عوامل تدلنا دلالة قوية على أن الأغنياء يقفون دائما فى وجه الدعوات « وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون . » . وأنهم يكونون كتلة المعارضة التى تحارب الأفكار الجديدة والتى تنفق الأموال الضخمة فى سبيل القضاء عليها بصد الناس عنها ومحاربة الداعين إليها ووضع العقبات فى سبيلها « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون » .

والنظره الأولى أيضا تبين لنا أن الفقراء على العكس من ذلك فهم الذين يستجيبون للأنبياء وهم الذين يؤمنون بالدعوات وهم الذين يقفون إلى جانب الرسل ينصرونهم ويشدون أزرهم حين يكونون فى حاجة إلى

الانصار والأعوان ثم هم الذين يدافعون عنهم ويعصون أمر مخالفيهم حين يكون الجدل والحوار . فالمستضعفون من قوم صالح هم الذين لبوا دعوته وصدقوا رسالته وآمنوا بما جاء به من دين جديد « قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون فعقروا الناقة وعتو عن أمر ربهم وقالوا ياصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين . »

وتتعقد الأمور دائما بين الفقراء والأغنياء كلما دعا داع أو جاء رسول بدين جديد . ومن هنا نرى تلك الخصومة التى تقوم بين الأغنياء والفقراء أو المستضعفين والمستكبرين . كما نرى الأغنياء يعيبون الرسل بانضمام الفقراء إليهم وأنهم أول من استجاب للدين الجديد « وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى . » بل يذهبون إلى أبعد من هذا ويرون أن دخول أمثال هؤلاء الفقراء فى الدين هو الذى يحول بينهم وبينه وهو الذى يمنعهم من الايمان والتصديق « قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون . » ومن هنا نراهم يطلبون إلى الأنبياء طرد الفقراء من مجالسهم وتنحيتهم عن أن يكونوا عقبات فى سبيل هؤلاء الأغنياء . وهنا يصور لنا القرآن رفض الانبياء خوفا من عقاب الله أو حرصا على مصلحة الدعوة ونصرة الدين . « وما أنا بطارد المؤمنين إن أنا إلا نذير مبين » ، « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين . » ، « وياقوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون . »

وتعليل هذه الظاهرة الاجتماعية أو هذا الموقف من كل من الأغنياء

والفقراء ليس بالشاق ولا بالعسير . فالقرآن نفسه يشير إليه فى أكثر من موطن ويرشد إليه كلما وجد إلى ذلك السبيل . ومن هنا تعددت العلل واختلفت باختلاف المواطن ولعل من أهمها مايلى .

أن الغنى يجعل أمور الناس ميسرة وحاجاتهم مقضية ويجعل من السهل عليهم الاستمتاع بما فى الحياة من لذائذ وطيبات ولذا يجنح الأغنياء إلى الراحة ويخلدون إلى السكينة ويطمئنون إلى ما عليه من حال فلا يحاولون تغيير أوضاعهم ومن هنا لا تخفق قلوبهم بحب الاصلاح ولا تنجذب نفوسهم أو تطمئن قلوبهم إلى التجديد من الدعوات . « بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون .

وكلما طال على الأغنياء الأمد وامتد بهم الزمن تولدت فى نفوسهم محبة الحياة وقويت فى نفوسهم الأثرة وخيل إليهم أن قد كتب لهم الخلود . « وقالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا » . ومن هنا نرى القرآن يعمد إلى تخويفهم وزعزعة هذه الأسس من قلوبهم وعقولهم فيلفت ذهنهم إلى أنه يأتى الأرض ينقصها من أطرافها « بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون . » وإلى أن عذابهم فى الآخرة سيكون قويا عنيفا « حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذاهم يجأرون لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون قد كانت آياتى تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون مستكبرين به سامرا تهجرون »

أما الفقراء فيسيرون على العكس من هؤلاء فى هذه المواطن فهم قد سلط عليهم الزمن وألهبتهم ضرورات الحياة ففكروا فى أمورهم وتمنوا حالة أسعد

من حالتهم وراموا سهل العيش ولين الحياة فما أن دعاهم الداعى حتى لعب خيال المستقبل بعقولهم وقلوبهم وقاربت الآمال أن تصبح حقائق ومن هنا يستجيبون لعل السعادة أن تقبل بعد إدبار ولعلها أن تلازمهم بعد أن ملوا الفراق وطول الانتظار .

(ب) والغنى يدفع إلى الكبر والاستكبار والعناد « ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم » ، «كلا إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى» ، كلا إنه كان لآياتنا عنيدا . » والمتكبرون عادة يضيقون بالدعاة وينالونهم بالأذى حتى ولو رأوا أن ما جاءوا به هو الحق وما دعوا إليه هو الصدق والعدل» . «وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين . »

والفقر يذل النفس ويخضع هام الرجال ولذا يكون الفقــراء أيسر اقناعا وأسهل انقيادا وأسرع ايمانا بالدعوات « وبرزوا الله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص » ، « وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . » ، « ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين وقال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهــدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين وقال الذين استضعفوا للذين استكبرا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون » .

(ج) والغنى يجعل الناس أشد حرصا على الحياه وعلى الإحتفاظ بما خلف الآباء من أثر وينمى فيهم محبة المألوف والعادى « وكذلك ما أرسلنا

من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا أباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون .

قل أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون» ثم إن الغنى يدفع إلى الاحتفاظ بالملك والرياسة ويحض على اكتساب السلطان والنفوذ « قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض وما نحن لكما بمؤمنين . »

ومن هنا يتطيرون بالدعاة ويتشاءمون منهم « قالوا إنا تطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون . » ويعتقدون أن الرسل من الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون « وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد . »

والفقر لا يدفع إلى الحرص على شىء فلا مال ولا جاه ولا نفوذ ولا سلطان والفقر لا يؤدى إلى الاستقرار وإذا فلا خضوع إلى رأى بعينه ولا استقرار للتقاليد والعادات وبالجملة فالفقراء فى حالة لا يحسدون عليها ولن تطلب منهم أكثر من حمد الله الذى لا يحمد على مكروه سواه .

الحالة الثقافية والفكرية . — وتهيئة الأذهان لموضوع الدعوة أو المبادىء الجديدة له قيمته الفعالة فى قبول هذه الأشياء كما أن ترك النفوس غفلا والأذهان خلاء هو الذى يدفع إلى إنكار هذه المبادىء والآراء وهذا الأمر هو الذى أشار إليه القرآن حين قال « تنزيل العزيز الرحيم لتنذر قوما ما أنذر أباؤهم فهم غافلون لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون وسواء عليهم أأنذرتهم

أم لم تنذرهم لايؤمنون إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم . » . إذ الواضح من هذا النص أن الذين سيتبعونه إنما هم الذين استعدت نفوسهم وتهيأت عقولهم أما أولئك الذين لم تأتهم النذر أولم تنزل عليهم الكتب فهم أبعد الناس عن الإيمان والتصديق .

وليس الأمر فى هذه المسألة خاصا بمن خشى الرحمن بالغيب بل هو خاص بالاستعداد أيا كان هذا الاستعداد ولذا نرى المشركين تصغى افئدتهم لما تهيأت له عقولهم وذلك واضح من قوله « وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك مافعلوه فذرهم وما يفترون ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون . »

والذين يهيئون الأذهان لهذه المبادىء إنما هم الرسل وما ينزل عليهم من كتب أو هم العظماء وما ينشرون من أفكار ولذا نرى القرآن يتعجب من موقف المشركين من محمد عليه السلام ويرى أنه قائم على غير أساس لأن الأساس السليم فى مثل هذا الموقف إنما هو ذلك الذى يعتمد على الرسل والكتب ولذا نراه يقول « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ماهذا إلارجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ماهذا إلا إفك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير . »

كما يدل فى غير هذه الآيات على أن مهمة الرسل إنما هى الهداية والإنذار وقال تعالى « أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون . »

والأمر فى المسألة يرجع من الوجهة النفسية إلى أن الانسان يفسر ظواهر الوجود بما يعرف من أفكار وآراء إذ هو يربط مايحس بما يعرف أو يربط غير المفهوم بالمفهوم ومن هنا تتقارب التفسيرات وتتشابه عند الذين يدينون بآراء واحدة أو متشابهة وتختلف اختلافا كبيرا حين يتباين ما فى أدمغة الناس من أفكار وآراء .

والأمر لايقف عند هذا الحد بل تتبعه حالة نفسية أخرى هى أن المؤمن برأى مايعتقد بحيازته للحقيقة المطلقة فيرى نفسه المصيب وغيره المخطىء وذلك واضح فى القرآن « وقالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون . »

ومن هذين نرى أمرا ثالثا هو لتكون الثقافة نافعة ومفيدة للدعوات الجديدة يجب أن تكون بينها صلة فيبنى الجديد على القديم . وكلما ازدادت هذه الصلة خلقت جوا عاطفيا يقوى الآراء ويمكن لها . وكلما ضعفت هذه الصلات أو تلاشت قابلت النفس الجديد بفتور أو باعراض ونفور . والواقع العملى والآيات القرآنية يؤيدان هذه الحقيقة النفسية فقد آمن المدنيون أو كانوا أسرع استجابة لأن الدعوة الاسلامية كانت متقاربة أو متشابهة لما يألفون وعلى العكس من ذلك كان المكيون الذين باعدت الوثنية بينهم وبين ما يراد منهم من توحيد . والآيات القرآنية تقول بوجود الصلة بين الكتب المنزلة كما تصور ذلك الجو العاطفى الذى يظهر حين تتفق الآراء وتتشابه أو تختلف وتتباين فيكون الاستبشار مثلا من القوم حين يسمعون ما يتفق واهواءهم وتكون النفره والاشمئزاز حى يسمعون ما ينكرون « وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة وإذ ذكر

الذين من دونه إذا هم يستبشرون » ، « وإذ ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنو فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون » .

ولعل هذا هو السر الذى من أجله عتب القرآن على أهل الكتاب وعاب منهم موقفهم من محمد مع وجود الصلة وقوة المشابهه « قل ياأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون قل ياأهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون . »

كما اعتذر عن موقف المشركين من أنه لم ينزل عليهم كتابا ولم يرسل إليهم رسولا . وأنهم تركوا لأهوائهم فأعمتهم وأضلتهم فهم كالأنعام أو أضل سبيلا وليس من شك فى أن الثقافة تجعل العقلية مرنة وتهىء الانسان لفهم الكثير مما يعرض عليه وقبوله فى إسماح ويسر وأن وجود الأفكار المعارضة أو الجهل بموضوع الدعوات يجعل قبول الانسان لها شاقا عسيرا .

(٣) سلطان الآباء والأجداد . — وسلطان التقاليد له قيمته فى كل أمة من الوجهة الاجتماعية ذلك لأنه المساك الذى يثقل الأمة عن أن تكون ريشة فى مهب الرياح وهو من هذه الناحية ذو فائدة كبيرة للأمة مهما يكن حظها من التقدم والرقى . إلا أنه قد يكون حجر عثره فى سبيل الأمة فيثقلها عن أن تنهض ويجرها إلى الوراء ويجعلها تلتفت دائما الى ما ورثته من تراث عن الآباء والأجداد لتقف عنده راضية مطمئنة وهو من هذه الناحية يكون آية من آيات الرجعية ودليلا من أدلة الجمود . ولذا كانت خير الأمم تلك التى تقف بين هذين فيكون لها من التقاليد مايحفظها من الذبذبة وعندها

من القدرة على التخلص من سلطان هذه التقاليد ما يجعلها مرنة طيعة تسير حين يكتب لها النهوض أو تستحث عليه بخطا ثابتة .

والعوامل التى تهب للأمة هذه المقدرة كثيرة لعل أهمها وجود الأبطال وقد سبق لنا أن تحدثنا عن آثارهم فى هذه الناحية ويعنينا الآن أن نذكر الجانب المقابل الذى يقعد بالأمة عن النهوض ويكتب عليها الجمود ويجعلها غير قادرة على الحركة والسير فى مضمار الحياة وهو سلطان التقاليد أو سلطان الآباء والأجداد .

يتفاوت هذا السلطان فى الأمم بتفاوت الأطوار التى مرت بها من حيث السلم الحضارى فهو فى الأمم الصناعية والتجارية مثلا أخف وطأة منه فى الأمم الزراعية والراعية وهو فى هذين وبخاصة الأخيرة ذو سلطان قوى مكين ذلك لأن النظام الذى يقوم فى مثل هذه البيئة إنما هو النظام الرعوى والنظام الرعوى بحكم طبيعته يمكن لسلطان التقاليد وهذا هو الواضح من تصوير القرآن وهذا هو الذى أقعد الكثيرين من أبناء الأمة العربيه عن الاستجابة فاذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا حسبنا ما وجدنا عليه اباءنا وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها وإذا قال لهم تعالوا إلى أهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا انا بما أرسلتم به كافرون ويكرر القرآن الآيات التى تدل على سلطان هذه التقاليد ويذكرها على ألسنة أقوام الرسل المختلفين فيذكرها على لسان قوم إبراهيم حين يقولون « بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون » وعلى لسان قوم هود « إن هذا إلا خلق الأولين وما نحن بمعذبين » وعلى لسان قوم موسى حين عجبوا من دعوته لهم وطلبه منهم نبذ عبادة الأوثان « قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا . » وهكذا قوم محمد « واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ما

وجدنا عليه آباءنا »، « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا » وهكذا نستطيع أن نقول إن التفاوت فى كل من الثروة والثقافة والطور الحضارى يساعد على الاختلاف والانقسام فى الرأى حين تنبت دعوة أو يظهر بطل جديد وأن هذا الاختلاف أو ذلك الانقسام يؤديان الى نتيجة أخرى هى الصراع ذلك لأن النفس الأنسانية لا تطيق المخالف .

(٣) نفس المؤمن لاتطيق المخالف

وهذا ناموس نفسى يصوره القرآن حين يقول « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ماجاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد ، ويدل على قوته وتأثيره حين يهدد المستجيبين لوحيه والخاضعين لسلطانه بقوله « إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم . »

ويظهر لنا أن السر فى هذا إنما يرجع إلى أن الأيمان يخلق فى النفوس جوا عاطفيا نحو الآراء والأشياء ومن هنا عبر القرآن عن الصلة بين الآلهة والاتباع بالحب حين قال « ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله . »

هذا الجوله أثره فى كل من الأفراد والجماعات فهو الذى يدعوها إلى هذا الموقف من المخالف وهو الذى يضطرها إلى الفتك والاضطهاد .

فأولا — يدفع هذا الجو المؤمن أيا كان دينه إلى كراهية من ينال معتقداته بأذى أو يمسها بسوء فالمشركون مثلا يكادون يزلقون النبي بابصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون » والكفرة يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آيات ربهم « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين

كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا . » وأهل الكتاب جاءتهم الرسل بغير ما تهوى أنفسهم ففريقا كذبوا وفريقا يقتلون « أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون . »

وثانيا — يدفع هذا الجو المؤمن إلى الاحساس بانه على الحق وغيره فى ضلال ولذ لا يحس بما فى رأيه من خطأ حتى ولو كان واضحا للعيان ومن هنا رأت اليهود أن ليست النصارى على شىء ورأت النصارى أن ليست اليهود على شىء وهم يتلون الكتاب « وقالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون . » ومن هنا أيضا رأى قوم نوح أنه فى ضلال « قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين قال ياقوم ليس بى ضلال ولكنى رسول من رب العالمين . » ورأى قوم شعيب أن من اتبعه هم الخاسرون « وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا انكم اذا لخاسرون » وبرى الذين أجرموا ان اتباع محمد ضالون « واذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون .

والمؤمن وإن توجع لعمى قلب من يخالفه « قال ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون » لا يتاخر عن حمل الناس بالقوة على الايمان بمعتقده ، ان وجد الى ذلك السبيل .

وثالثا — يخلق الايمان فى الجماعة نوعا من المشاعر تجمع شملها وتلم شعثها وتربط بين عناصرها وتجعلها سلسلة متشابكة من الحلقات . كما يبث الإيمان فى الجماعة روحا تصدر عنها فى أفكارها وآرائها وتبنى عليه مختلف التقاليد

والعادات ولذ تحرص الجماعة على هذه الروح وعلى تلك المشاعر لأنها سر قوتها وآية عزها ومنعتها ، ومن هنا لاترضى الجماعة عن الشخص حتى يكون على دينها أو وفق هواها « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم . » ومن هنا أيضا تكره الجماعة من يشذ عنها أو يخرج عليها حتى ولو كان نابغة أو عبقريا وترى فيه نذير الشؤم وآية الضعف والانحلال ولذا تطير قوم صالح به وبمن معه « ولقد ارسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فاذا هم فريقان يختصمون قال ياقوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون . » ورأى قوم هود هودا فى سفاهه « قال الملأ الذين كفروا من قومه انا لنراك فى سفاهة وانا لنظنك من الكاذبين قال ياقوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين . » وأحس فرعون أن موسى يريد أن يبدل دينه أو أن يظـــهر فى الأرض الفساد « وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدّل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد » وليس من شك فى أن جزاء المفسدين والشواذ انما هو الأذى ينالهم والعقاب يحل بهم « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض . » وليس ماهو أهون من ذلك عند الجماعات.

هذه هى العلل التى نفسر بها هذا الناموس وتبقى بعد ذلك ظواهره المختلفة تلك التى صورها القرآن فى كثير من القصص والآيات .

وقبل أن نسجل هذه الظواهر نلفت الذهن الى أن موقف المخالف يتبدل فى الجديد من الدعوات . ذلك لأن المخالف يكون فى أول الأمر الرسول ومن اتبعه من المؤيدين والأنصار . ويكون فى آخر الأمر من تخلف من الجماعات عن اللحاق بها واتباع دينها الجديد . ونبدأ هنا بتصوير

مظاهر الشق الأول وما يؤيده أو يعارضه من أسس ونواميس .

ويكون الرسول هو المخالف أولا ومن هنا يناله الأذى وينزل به العقاب وتبدأ هذه الأشياء هينة فتكون أولا بالسخرية والاستهزاء ويسمع الرسول ومن اتبعه أمثال هذه الكلمات . « أهذا الذى بعث الله رسولا . » « أهذا الذى يذكر آلهتكم . » « أهؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا » ويخرج القرآن بهذه المسألة من أن تكون خاصة بالنبي العربى فيصورها على أنها من الأذى الذى ينال الرسل فى كل زمان ومكان « ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الأولين وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون . »

ويمضى الرسول فى دعوته فيمضى القوم فى ايذائهم فترى التهديد بالكثير من ألوان العقاب فترى التهديد بالرجم « قال أراغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا . » ، « قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين » ، « قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم . » ونرى التهديد بالسجن فيقول فرعون لموسى « لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين »

ونرى التهديد بالاخراج من الأرض فيقول قوم شعيب « لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا » ويقول قوم لوط « لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين . » ويقول الكافرون لرسلهم « لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا » ويفعل مثل ذلك المشركون فى مكة « وان كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها . »

ونرى التهديد بالقتل وحده أو مع التمثيل بالجثث والأجسام أو بالاحراق فيقول قوم ابراهيم بعضهم لبعض حين دعاهم « اقتلوه أو حرقوه » ويقول فرعون لقومه « ذرونى أقتل موسى وليدع ربه . »

كما نرى المؤامرات ومحاولة الأغتيال فى قصة صالح « ولقد أرسلنا الى ثمود أخاهم صالحا أن أعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون قالوا تقاسموا با لله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ماشهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون فأنظر كيف كان عاقبة مكرهم أنادمرناهم وقومهم اجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون »

وتأخذ هذه الأشياء فى النهاية مكانها من الواقع فيكون الإخراج كما حدث مع النبى العربى « واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم . » وكما حدث لابراهيم فقد ترك قومه وهاجر حين استعصى عليه هدايتهم « فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم . » وأتباع محمد حدث لهم أيضا مثل هذا كما صور القرآن الكريم « الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولو ربنا الله . « للفقراء المهاجرين الذين أخرجو من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله . » وكما حدث لموسى وقومه فقد خرج من مصر مهاجرا بدينه واتباعه «ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم أن أدوا إلى عباد الله إنى لكم رسول أمين وإن لا تعلوا على الله إنى آتيكم بسلطان مبين وإنى عذت بربى وربكم أن ترجمون وإن لم تؤمنولى فاعتزلون فدعا ربه إن هؤلاء قوم مجرمون فأسر بعبادى ليلا إنكم متبعون واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون . »

ويكون الإحراق كما حدث لابراهيم « قالوا ابنوا له بنايا فالقوه فى الجحيم فأرادوا به كيدا فجعلناهم الاسفلين » . « قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم أن كنتم فاعلين قلنا يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم . » وكما حدث بالمؤمنين فى قصة الأخدود« قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذهم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود وما نقموا منهم الا أن يؤمنو بالله العزيز الحميد . »

ويكون القتل كما حدث لزكريا ويحى فيما يروى المفسرون عند تفسيرهم لقوله تعالى « افكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون . »

ويكون فى النهاية الاقتتال بين المؤيدين والمعارضين حين يكثر المؤيدون والاتباع .

ويلقى هذا الناموس فى روع الانسان أن الدعوات مقضى عليها بالفشل وأن التجديد ضرب من المحال ذلك لأن الجماعة قوية بنفسها ثم هى لا تصبر على المجديدين والدعاة وهو أمر يكاد أن يكون صادقا لولا وجود عوامل أخرى تحد من قدرته وتعطل من سيره وهى بهذا تفسح المجال أمام الدعاة والأتباع وكأن إرادة الله هى التى اقتضت هذا ليكون التقدم والتجديد ولئلا يتعطل الرقى فى هذه الحياة

هذه العوامل كثيرة وواضحه فيما صور القرآن ونستطيع أن نسجل منها

أولا — ذلك الجو العاطفى الذى يسيطر على الجماعة خيال الآراء والمعتقدات إذ على قدر قوته وضعفه يتوقف حرص الجماعة على المحافظة على ذلك التراث . كما يتوقف عليه غضبها على الخارج ونقمتها عليه ومن

هنا لا يقدر النجاح للدعوات إلا إذا كان ما ستحل محله قد وهن وضعف بفعل الزمان وغيره من المؤثرات إذ عند ذلك يضعف غضبها وتقل نقمتها فلا يكون قتل أو اغتيال . ولعل ذلك هو الذى قصد إليه القرآن حين جعل إرسال النبى العربى على فترة من الرسل « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ماجاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شىء قدير » وحين جعل إرسال عيسى ليبين لهم الذى يختلفون فيه « ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه » حيث لا يكون اختلاف إلا إذ ضعف سلطان العقائد ووهن أثر الأديان .

وهذا هو الواقع العملى فى الدعوة الإسلامية فقد ضعف سلطان العقائد على بعض النفوس بفعل اليهودية وغيرها فتهودوا وتنصروا وتحنفوا وتركوا عبادة الآباء والأجداد . بل هفت نفوسهم إلى الرسالة والكتاب فقالوا « ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا . . » وقالوا « لو أن عندنا ذكرا من الأولين لكنا عباد الله المخلصين . » وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليكونن أهدى من احدى الأمم . » وهكذا سبيل كل دعوة ودعاه .

ثانيا — تلك الصلة التى تكون دائما بين الجديد والقديم من الأديان إذ تجعل الجديد غير غريب على البيئة وأهلها وهذا هو المعنى الذى أكده القرآن حين شرع لمحمد ما وصى به نوحا «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به إبراهيم وموسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه . » وحين جعل الكتب مصدقة بعضها لبعض من انجيل وتوراة وقرآن « وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدي ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراه وهدى وموعظة للمتقين وليحكم أهل

الأنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعه ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمه واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات .

والواقع العملى من الدعوه الاسلامية يؤيد هذا فقد كان موقف القوم من الجديد والغريب عليهم قويا عنيفا وحسبنا أن نذكر موقفهم من البعث ووحدانية الله على حين لم يكن فى موقفهم من الحجج أى مكابرة أو عناد .

ثالثا — ونختم حديثنا عن هذه العوامل بالحديث عن تلك الصله التى تكون بين الرسول وقومه أو البطل وأمته تلك الصله التى سبق لنا أن تحدثنا عنها حين قلنا بأن الرسول أخو القوم المتحدث بلسانهم ... الخ اذ أن هذه الصله تجعل البطل يستعذب الألم فى سبيل هداية قومه واصلاحهم فلا يفر من الميدان حين تلاقيه الصعاب أو تصادفه العقاب ذلك لأنه يحس فى قرارة نفسه أن إسعادهم هو الغاية التى ليست وراءها غاية والمطمع الذى ليس بعده مطمع ومن هنا نراه يحرص على هذه الهداية فى الوقت الذى يقفون منه موقف العداء «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم . » ومن هنا أيضا يعتب عليهم فى كثير من الألم والمرارة فيرى أنهم لم يفهموا أغراضه ولم يتبينوا مقاصده مع أنه لم يأتهم الا ليخرجهم من الظلمات الى النور وإلا ليهديهم الى الطريق المستقيم وهو فى سبيل كل ذلك يضحى بمنفعته وراحته ويكفيه أنه يسعد نفسه بهداية قومه إلى طريق ربه العلى العظيم .فشعيب لا يريد إلا الاصلاح «ان أريد إلا الاصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت واليه

أنيب »ومحمد يهدى الى الصراط المستقيم«وانك لتهدى الى صراط مستقيم». «الر كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بأذن ربهم الى صراط العزيز الحميد . »وصالح لايسأل قومه أجرا على الهداية« وما اسألكم عليه من أجر أن اجرى الا على رب العالمين . » وموسى وهارون يقفان موقفا يتصورانه القتل فى سبيل إخراج قومهم من مصر وتخلصهم من فرعون وما يلحقه بهم من ذل وهوان . « اذهب أنت واخوك بآياتى ولا ولاتنيا فى ذكرى اذهبا الى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينآ لعله يتذكر أو يخشى قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا إننى معكما اسمع وأرى فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فارسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى .» وهكذا سبيل المرسلين .

وهذه الصلة نفسها تؤثر فى نفس الجماعة فلا تعجل العقوبة لواحد منها وإبن من أبنائها وهى لاتصدق أولا شذوذة عنها أو خروجه عليها بل ترى به جنونا أو تعتقد أن الآلهة قد اعترته بسوء « أن نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء » ولذا قد تلتمس له الطب والعلاج فاذا خاب ظنها أو فال رأيها رمته بالسفه أو رأته فى ضلال ولذا قد تلتمس العلاج عند أقاربه وتبقى عليه لمكانة رهطة وعشيرته « قالوا ياشعيب مانفقه كثيرامماتقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك » وهكذا تتدرج من لين الى شدة حتى يكون الاقتتال .

وهكذا تكون هذه الصلة بين البطل والبيئة وسيلة فعالة فى سبيل إنجاح الدعوات وأن كنا نلحظ أنها تكون فى النهاية عقبة فى سبيل انتشارالاديان ولعل هذا هو السبب الذى من أجله حاربها القرآن فنحن نلحظ أنه فى

النهاية جعل العاطفة الدينيـة فوق عاطفة القرابات فنهاهم عن مودة اقربائهم إذا كان ذلك على حساب دين الله وطلب اليهم أن يتخذوا من ابراهيم الأسوه الحسنة فى هذا الميدان « يا أيها الذين امنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالموده وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم أن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون اليهم بالموده وأنا أعلم بما أخفيتم وأعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل أن يثقفوكم يكونوا لكم اعداء ويبسطوا اليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير قد كانت لكم أسوة حسنه فى ابراهيم والذين معه أذ قالوا لقومهم انا برءآؤ منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنو بالله وحـــده إلا قول ابراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير ربنا لا تجعلنا فتنـة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم لقد كان لكم فيهم اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم موده والله قدير والله غفور رحيم لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم أن الله يحب المقسطين انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون . »

وهكذا تكون القرابة عاملا مفيدا فى انجاح الدعوات فى أول الأمر كما قد تكون عاملا معطلا حين يكون الاقتتال بعد كثرة الأعوان والأنصار .

والآن وقد وضحنا العوامل المؤثرة فى سير هذا الناموس النفسى ،

«النفس لا تطيق المخالف ولا تصبر عليه» نحب أن نصور موقف البطل أولا وحين يتعدل الميزان .

قلنا ان البطل أولا يكون هو المخالف فيناله الأذى وذكرنا بعض ألوان العقوبات ونقول الآن ان موقف البطـــل فى هذا الدور هو موقف الضعيف الذى لا يملك من الحول والطول إلا الالتجاء الى ربه والدعاء على الاعداء هكذا نرى موقف نوح « وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا .» وهكذا نرى موقف موسى « وقال موسى ربنا إنك أتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم .» وهكذا نرى موقف غيرهم من الأنبياء .

ثم يلجأ الرسول إلى التهديد والوعيد ويكونان بالمصائب فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ويستجيب الله للرسل فتكون الصواعق وغيرها من ألوان العقوبات . هكذا نرى فرعون وقومه « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات . » ونرى شعيبا وقومه «وياقوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قـوم نوح أو قوم هودا أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد . . . ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلمـوا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . » وإلى هذا أيضا أشار النبى العربى والقرآن الكريم « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبـــة المكذبين . » وهكذا غيرهم من المرسلين .

وحين تقوى الدعوة ويكثر الأعوان والأنصار وحين يحس النبى فى نفسه القدره على الفتك والاضطهاد يستجيب لهذا الناموس ويبدأ فيحاول

القضاء على المتخلفين من الجماعة ويجبرهم بالقوة على اتباع تعاليمه والايمان بما يدعو إليه من آراء ومعتقدات وهذا هو الذى نلحظه من موقف النبى العربى من المشركين واضرابهم والمنافقين ومن لف لفهم يقول الله تعالى « قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . » ويقول « لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تحويلا » .

وعند ذلك يكون النصر قد كتب للمبادىء فتسيطر على نفوس الافراد والجماعات وفى الفقرة التالية نتحدث إن شاء الله على ناموس آخر هو : —

(٤) الرسول لا يشك فى مستقبل دينه

ونتيجة الناموس السابق واحدة من اثنتين :

(١) فإما أن يذهب الرسول ضحية المبدأ والعقيدة ، فيقتل أو يخرج مهاجراً . وتلك أحوال لم يقصها القرآن إلا نادراً ، وهو حين يقصها يعتمد على الإجمال والإبهام ، فنراه مثلا يقول فى حق الإسرائيليين وهو متعجب من صنيعهم : « أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون » .

ويتفق المفسرون جميعاً على أن من الذين قتلوا يحي عليه السلام .

كما نلحظ خروج إبراهيم مهاجراً بعد إذ عاداه قومه ، ووقفوا منه ذلك الموقف الذى تصوّره هذه القصة القرآنية : « وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكا . إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون . وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين . أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير . قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة إن الله على كل شىء قدير . يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون . وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتى وأولئك لهم عذاب أليم . فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرّقوه فأنجاه الله من النار إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون . وقال إنما اتخذتم من دون الله

أوثاناً مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين . فآمن له لوط وقال إنى مهاجر الى ربى إنه هو العزيز الحكيم ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . »

والذى يلاحظ فى مثل هذه المواقف أن الهجرة تعتبر نصرا للدين الجديد وللرسول الداعى وذلك هو الواضح كل الوضوح من قصص موسى ومحمد عليهما السلام . وتكون عاقبة المتخلفين فى بعض الأحوال الهلاك والدمار وذلك هو الوضع الذى يقرره قصص كثير من قصص القرآن من مثل أحوال قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح أو قوم لوط . وذلك الوضع هو الذى قصه شعيب وصورة القرآن « ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب نوح أو قوم قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد . »

(٢) وإما أن ينتصر الرسول فيسود الدين الجديد وتنتشر المبادىء وتلك هى الأحوال التى صورت كثيرا فى القصص القرآنى وتلك هى الأحوال التى تشير اليها ألآيات القرآنية الكريمة الخاصة بالنصر والتى نستطيع أن نختار منها قوله تعالى « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون فتول عنهم حتى حين وأبصرهم فسوف يبصرون . » وقوله « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار » وقوله « ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننجى المؤمنين . »

على أن هذا النصر لا يتم فى سهولة ويسر إذ دونه عقبات لابد من تخطيها وأزمات نفسية لابد من القضاء عليها .

والعقبات كثيره متنوعة منها نوع نستطيع أن نسميه بالعقبات الداخليه وصوره فى القرآن ليست بالعديدة . والأسباب التى تدفع إلى هذا اللون قد تكون

ا — طبيعة الشخص وتكوينه إذ يكون ضعيف الاراده لايملك من أمر نفسه وقيادها الشيء الكثير وذلك هو الأمر الواضح فى قصة آدم إذ نهاه ربه عن الأكل من الشجرة فلم يتثل ونسى فلم تجد له عزما « ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما » ، « وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى . »

(ب) وقد ترجع الى لون من العقد النفسيه التى تسيطر على أعمال المرء والتى تلعب دورها فى قوة ومهارة . وذلك هو الأمر الواضح من قصة موسى فقد اصطفاه ربه فاختاره رسولا الى فرعون ولكنه طلب من العلى القدير أن يرسل معه أخاه هارون وزيرا . واستجاب ربه وأرسل معه أخاه وهنا يظهر المخبوء وينكشف الغطاء إذا تسيطر حادثة قتل المصرى على عقل موسى ويتذكر خروجه من أرض الفراعين هاربا وكيف أخبره الصديق الذى جاءه يسعى من أقصى المدينه بأن الملأ يأتمرون به ليقتلوه . لذا نراه يتوجه الى ربه مفصحا عن دخلية نفسه « قال رب إنى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءا يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون » . « اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى إذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى قالا ربنا أننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى . »

ولم يذهبا حتى تلاشى الخوف واستقر الهدوء والاطمئنان واستجابت أنفسهما لقول العلى العظيم « لاتخافا إننى معكما أسمع وأرى ».

(ج) كما قد ترجع إلى بعض الرغبات المكبوتة التى لاتزال فى حالة قوية من الفاعلية وذلك هو الأمر الواضح من حال محمد عليه السلام حين كان يحرص على تحسين مابينه وبين قومه من علاقات حرصا شديدا وهذا مايوضحه النص الآتى « قال قتاده ذكر لنا أن قريشا خلوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليـــله إلى الصبح يكلمونه ويفخمونه ويسودونه ويقاربونه فقالوا إنك تأتى بشىء لايأتى به أحد من الناس وأنت سيدنا ياسيدنا وما زالوا به حتى كاد يقاربهم فى بعض ما يريدون ثم عصمه الله تعالى فأنزل الله تعالى « وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لاتجد لك علينا نصيرا . »(١)

ومنها نوع نستطيع أن نسميه بالعقبات الخارجية وصور هذا النوع فى القصص القرآنى كثيره منوعة يجمعها كلها ما يقوم به المعارضون للأنبياء من أعمال وأقوال وذلك من مثـــل تكذيبهم للرسل ورميهم لهم بأنهم فى سفـاهه أو ضلال وأن ما يقولونه شعرا وأن الشياطين تنزل عليهم وأن الآلهه قد اعترتهم بسوء ثم من صدهم الناس عن اتباع الأنبيـاء ومحاولتهم صرف النبى أو الرسول عن الدعوة بالأذى تارة وبالتهديد والوعيد تارة أخرى ثم تحديهم لهم وطلبهم إنزال العذاب أو الاتيان بمعجزة إلى غير ذلك من الأمور التى تتضح فى القصص والتى يكفى فى الدلاله عليها أن نورد هذه

---

(١) أسباب النزول ص ٢١٩

القصه ، والى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون قال الملأ للذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين قال ياقوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بصطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ماكان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان فانتظروا إنى معكم من المنتظرين فأنجيناه والذين معه وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين . »

ويترتب على هذه العقبات أنواع من الألم تختلف قوه وضعفا فقد يخرج الألم الرسول عن حد الاعتدال والقصد فتثور انفعالاته وتضطرب نفسه وتجمع العواطف حتى ليعجز عن كبحها وذلك هو الواضح من موقف ذى النون عليه السلام حين ذهب مغاضبا « وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن تقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين . »

وقد يؤثر هذا الألم على الاتجاه العام فى حياة الرسول والدعوه حتى ليهم بتركها وذلك هو الواضح من قوله تعالى « فلعلك تارك بعض مايوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شىء وكيل . »

وقد يكون هذا الألم من القوة والعنف بحيث يبعث الشك فى النفوس ويبذر اليأس فى القلوب والحالة الأولى هى التى يصورها قوله تعالى « فأن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فأسأل الدين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين . »

كما يصورها قوله « حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين . »

إلا أنه على الرغم من كل هذه العقبات فأن الرسل يظفرون بالانتصار فنراهم وقد تخطوا العقبات وانتصروا على الاعداء حتى لكأن الألم الذى عانوه لم يكن إلا المطهر الذى نفث فيهم الصلابة والقوة وأحالهم خلقا آخرين أقدر من غيرهم على تحمل العقبات وعلى استعذاب الألم فى سبيل الدعوات. وكأن تلك الوقفات القصيرة لم تكن إلا الاستعداد للوثبة تتبعها وثبات .

يعمل على هذه الانتصار فيما نعتقد أمران .

الأول — تلك العقيده الدينية التى يحس بأثرها النفسى جميع المؤمنين بالعقائد والاديان من أن الله يرعاهم ويحفظهم ويثبت خطاهم ويهيىء لهم من أمورهم رشدا والأثر النفسى لهذه العقيدة هو أنها تشحذ الهمم وتقوى العزائم وتزيل الضعف عن النفوس وتبعد اليأس عن القلوب « قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . »

الثانى — ذلك الأثر النفسى الذى يقوم به الفن من عمليات الايحاء والافاضه حين يقص على المعاصرين أخبار من سبقوهم وكيف كانوا أبطالا وكيف كان النصر فى النهاية حليفهم . والقصص القرآنى يعمل من غير شك على تخفيف

الضغط العاطفى وعلى انقشاع الأزمات النفسية من عند النبى والمؤمنين وهذا هو الأمر الذى سنتحدث عنه بتفصيل عند حديثنا عن أغراض القصص القرآنى أن شاء الله ولذلك نكتفى هنا فى الدلالة على تلك الحقيقة بذلك النص القصير المنقول عن صاحب الكشاف بصدد حديثه عن الصلة بين قوله تعالى « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشق .... » وبين قصة موسى عليهما السلام قال رحمه الله « قفاه بقصة موسى عليه السلام ليتأسى به فى تحمل اعباء النبوه وتكاليف الرسالة والصبر على مقاساة الشدائد حتى ينال عند الله الفوز والمقام المحمود » (١)

وصدق الله العظيم حين يقول « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق . »

وحين يقول « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الارض . »

---

(١) الكشاف ج ٢ ص ٢٥

الفصل الثالث

« القيم الدينية والخلقية »

وأعترف منذ اللحظة الأولى بأن لا فضل لى فى هذا الفصل إلا فضل التنظيم والعرض ذلك لأنه قد سبق أن عالجت موضوعات هذا الفصل فى بحثى الأول الذى قدمته لنيل درجة الماجستير فأن زدت شيئا فهو الخروج من الأمور الخاصة بمحمد عليه السلام إلى الأمور العامة والخاصة به وبغيره من الرسل والأنبياء والشىء الذى اعتبره جديدا نوعا ما فى هذا الفصل هو الحديث عن المعانى الخلقية وما يستتبعها من تلك اللمحات الخاطفة التى صور بها القرآن بعض العادات .

ولعل أوضح الأمور فيما يتعلق بالمعانى الدينية التى وردت صور عنها فى القصص القرآنى هى الأمور المتعلقه بالآلهة ثم بالرسل والمعجزات وهذا هو الأمر الذى يمشى مع طبيعة الدعوة الإسلامية فى ذلك الوقت ويجرى مع طبائع الأشياء .

ذلك لأن أكثر القصص القرآنى مكى . وفى مكة لم تتجه الدعوه إلى غير المسائل الكبرى من قضايا الأديان ومن هنا كانت الوحدة التى عبر عنها القرآن حين قال « شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » ومن هنا أيضا كان التشابه بين اليهودية والمسحيه والاسلام .

على أن للمسألة وجها آخر هو أن القصص القرآنى كان يعنى العناية كلها بأمور المخالفين فى أمر الدعوه والمعارضين للنبى عليه السلام ولذا كان القصص يوجه الحديث التوجيهات التى تشرح هذه الأمور وتقرها فى الأذهان. وإذا كانت هذه الأمور المتنازع عليها خاصة بالوحدانية والبعث والرسالة كانت هى الواضحة كل الوضوح فى قصص القرآن .

ثم إن أمور الدين الإسلامى نفسه كانت أشبه بالتنظيمات الداخلية التى يقوم بها الفرد بعد أن يعتنق الدين الجديد ويدخل فى حظيرة الاسلام وأمثال هؤلاء لا يثيرون جدلا ولا يقيمون الصعاب .

على أنى استغفر الله وأستثنى شيئا هو تلك العادات الخلقية التى كانت قد استقرت وعظم شأنها بحيث لم يقدر الفرد عن التخلى عنها بمجرد دخوله فى حظيره الدين والإيمان . وتلك كبخس الناس أشياءهم وتطفيف الكيل والميزان . ومن هنا تعرض لها القرآن أيضا وان نالها على أنها من الاخلاق العامة إذ تعرض لها فى قصة شعيب عليه السلام .

ونبدأ من قضايا الدين هذه بالحديث عن التدين .

والتدين فى حس القرآن غريزة انسانية فهى فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعملون. » وهى من هنا عامة وخالدة يستوى فيها الناس جميعا وسواء فى ذلك المتحضر منهم والباد .

وتتصف هذه الغريزة أو تلك الفطرة بإسنادها قدرة عظيمة وقوى قاهرة إلى موجودات وكائنات والغريب أن هذه القدرة قد تسند لغير الله

فتسند للأصنام وتسند لغيرها من الآلهة التي يعبدها الوثني في مختلف الأديان ومن هنا قدروها فعبدوها وأخافوا الأنبياء من غضبها وانتقامها .

عبد قوم عاد اسماء سموها وعبد قوم ابراهيم آلهة صنعوها بأيديهم . وقال الله في حق الأولين من سورة الأعراف « قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ماكان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . » وقال في حق الآخرين من سورة العنكبوت « إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا . » كما قال متعجبا في الصافات « أفتعبدون ما تنحتون . » .

واذا كانت الآلهة تعبد أتقاء غضبها أو رجاء خيرها فذلك هو الذى كان بين الآلهة وهؤلاء فقد أخافوا الأنبياء من شرها وقد أحبوها حبهم لله .

أخاف قوم إبراهيم إبراهيم فيما ذكر القرآن : « وحاجّه قومه قال أتحاجّوني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون » .

واعتقد قوم عاد أن آلهتهم قد مسّت هوداً بسوء . قال تعالى : « قالوا يا هود ماجئتنا ببينة وما نحن لك بمؤمنين إن تقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون » .

وقامت مودّة بين قوم إبراهيم والأوثان ، واتخذ غيرهم أوثاناً يحبونهم كحب الله وإن يكن الذين آمنوا أشد حباً لله . قال تعالى : « وقال إنما

اتخذتم من دون الله أوثاناً مودّة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً » . وقال تعالى : « ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله » .

ومن هنا اتجه القرآن الى ما فى عقلية هؤلاء من تناقض ظاهر بين الصورة النفسية للآلهة والواقع العملى الذى يحس ويشاهد . اتجه الى أن الأسباب التى تعبد من أجلها الآلهة وتحب غير متوفرة فى هؤلاء . اتجه الى كل هذه الأشياء وصوّرها ، ووضع صورها بين أيدى هؤلاء الأقوام ليلمسوا بأيديهم ويحسّوا بأبصارهم وبصائرهم أنهم فى غفلة وضلال ، وأنه كيف يصح فى شرعة العقل أن يعبد إنسان ما خلقه الوهم وصنعه الخيال ، فيعبد أسماء أو أن يعبد ما يصنع بيديه فيعبد ما ينحت .

ولعل أوضح المثل فى كل هذا ، هو ما ورد فى قصص إبراهيم عليه السلام . قال تعالى فى سورة الشعراء : « واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرّون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدوّ لى إلا رب العالمين الذى خلقنى فهو يهدين والذى هو يطعمنى ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين والذى يميتنى ثم يحيينى والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين » . وقال فى سورة الأنبياء : « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين . قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين . قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلك من الشاهدين وتالله

لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون . قالوا من فعل هـذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم . قالوا فأتوا به على أعين النـاس لعلهم يشهدون . قالوا أأنت فعلت هـذا بآلهتنا يا إبراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون . فرجعوا إلى أنفسهم فقـالوا إنكم أنتم الظالمون ثم نكسوا على رؤوسهم لقـد علمت ما هؤلاء ينطقون . قال أفتعبـدون من دون الله ما لا ينفعكم ولا يضرّكم أفٍ لـكم ولمـا تعبدون من دون الله أفلا تعقلون » .

كما قال فى حق المعـاصرين للنبى عليـه السلام قال تعـالى : « هو الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفاً فمرّت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين فلمـا آتاهما صالحا جعـلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عمـا يشركون أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ولا يستطيعون لهم . نصر اولا أنفسهم ينصرن وإن تدعوهم الى الهـــدى لا يتبعوكم سـواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذن يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون أن ولىّ الله الذى نزل الـكتاب وهو يتولى الصالحين والذين تدعون من دونه لايستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون وإن تدعوهم الى الهدى لا يسمعون وتراهم ينطرون اليك وهم لا يبصرون . »

وكل الذى أراده القرآن من وضع هذه الصور هو أن يفهموا حقيقة هذه

الآلهه وأنها لا تنفع ولا تضر إذ عند ذلك ينصرف الانسان عن عبادتها ويبحث له عن معبود سواها .

هذه الصورة النفسية للآلهة أو تلك الظواهر التى يسندها خلق التدين للقوى القويه القاهره يردها القرآن إلى إله واحد هو الله بذلك تحدث الرسل إلى أقوامهم وبهذا جاءت الأديان فيقول كل واحد من الرسل لقومه فى قصص سورة الأعراف « اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » ويقول كثير من الأقوام لرسلهم « أجئتنا لنعبد الله وحده » .

وينزه القصص القرآنى الأله الواحد عن كل نقص كما ينزهه عن أن يتخذ الشريك والولد سبحان الله عما يصفون رب العرش العظيم « ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون »، «قل أوحى الى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا . »

وتلك الصورة التى يريد القرآن أن يقرها من هذا الجانب هى الصورة الواردة فى قوله تعالى « قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد »

وإذا كان الانسان يعبد الآلهة للضرر والنفع كان لابد له من تنظيم الصلات بينه وبينها كما كان لا بد له من نوع من فروض الطاعة والمحبة يتجلى فى الفرائض الدينية وما يقدمه أحيانا من ضحايا وقرابين .

على أن القصص القرآنى قد أهمل هذا الجزء الأخير إلا فى النادر القليل كما هو الحال فى قصة ابراهيم وإسماعيل حين رأى فى المنام أمر به بذبح ابنه وحين هم بفعلته استجابة لنداء ربه لولا تلك الفدية التى أرسلها ربه وهى

الذبح العظيم . وهذه القصة واردة فى سورة الصافات قال تعالى « وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين رب هب لى من الصالحين فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه السعى قال يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فأنظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين فلما اسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم » ومن هنا سنقصر حديثنا عن تلك الصلات التى يستطيع الانسان بمقتضاها أن يعرف أوامر ربه ونواهيه يقوم بها ابتغاء مرضاته يرجو جلب النفع ودفع الضر وتيسير كل شاق عسير.

والقرآن يصور لنا من هذا الجانب اتجاهات بعضها يقوم على الأمور الحسية كإجالة الاقداح والاستقام بالازلام وتلك لم ترد فى القصص القرآنى وإن وردت فى بعض المواطن الخاصة بالمعاصرين للنبى عليه السلام.

وبعض آخر يقوم على صلة بين بين . إذ يتصل فيها الكهان والعرافون بالأرواح الخفية وهـــذه بدورها تطلعهم على أخبار السماء . وذلك اتجاه حاربه القرآن فى مواطن كثيرة وورد منه فى القصص القرآنى آيات فى سورة الجن قال تعالى « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا ».

ويظهر أن هذه العقيدة وردت فى هذه القصة ليكون حديث الجن عن نفسها أبعد نفاذا وأقوى أثرا .

ويبقى بعد ذلك اتجاه واحد هو اختيار واحد من البشر ليكون الرسول

ويظهر أن العقيدة الأولى وهى عقيدة الأرواح الخفية كانت أقوى من ذلك وأشد إذ الذى يلاحظ فى القصص القرآنى أن أكثر الأقوام كانوا

يقولون لرسلهم لو شاء ربنا لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين .

وإذا كان قد سبق لنا الحديث عن بشرية الرسل من الوجهة الاجتماعية فأنا نقصر الحديث عنهم هنا من حيث تلقى الاديان لتوصيلها الى الخلق ودعوتهم الى الإيمان بها .

والإله الواحد هو الذى يستأثر بعلم الغيب ولا يطلع على هذا الغيب احدا إلا من ارتضى من رسول . وهو يصطفى هذا الرسول ليطلع البشرية على الغيب ويرسم لها طريق الوصول إلى المستقبل السعيد. قال تعالى « ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم » .

وإلقاء هذه المعرفة فى نفس الرسول أو إطلاعه على ما فى الغيب يختلف باختلاف الظروف والمناسبات فترى منه نوعا يأخذ صورة الرؤيا الصادقة وذلك يمثله ماحدث لابراهيم ويوسف عليهما السلام يقول الله تعالى فى حق الأول « فلما بلغ معه السعى قال يابنى إنى أرى فى المنام أنى اذبحك .... » وهى القصة التى سبقت فى هذا الفصل .

ويقول فى حق الثانى : « إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين . قال يابنى لاتقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدوّ مبين . وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم » .

ونرى منه نوعاً آخر يعتمد على التكليم . يقول الله تعالى بصدد الحديث عن الرسل فى حق موسى : « ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما » . وقال : « قال ياموسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين » .

ثم هنالك غير هذين ، هنـاك ذلك اللون الذى يرسل فيـه الإله ملكا فيتمثل للمرسل إليـه بشراً ويلقى إليـه ما أمره به الله . يقول الله تعـالى : « واذكر فى الـكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً . فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لهـا بشراً سوياً . قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً . قال إنمـا أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا » . كما قال فى قصه إبراهيم عليـه السلام : « وهل أتاك حديث ضيف إبراهيم المـكرمين إذ دخلوا عليه فقـالوا سلاما قال سـلام قوم منكرون فراغ الى أهله فجاء بعجل سمين فقربّه إليهـم قال ألا تأكلون فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغـلام حليم . فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم . قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحـكيم العليم » .

وهنا شىء لا بدّ من التنبيه عليه ، هو أن هـذه الأرواح الخفية كانت تختلط فى ذهن العربى فلا يعرفها إلا بآثارها ، وكان يعتقد أن الملائكة تأتى بالخير وأن الشياطين تأتى بما يسوء ، ومن هنا كانوا يعتقدون أن الشياطين هى التى تنزل على محمد ، وإلا لمـا كان منه خروج على الجماعة ولمـا كان منه سب للآلهة .

والواضح من القرآن أن الشياطين كانت تسمع أخبار السماء ، وأنهـا منعت من أجل النبى عليه الصلاة والسلام . وسبق أن شرحنا هذه العقيدة فى فصـل (المعانى التاريخية) ، وهو الفصل الأول من هذا الباب .

ويبقى بعد ذلك لون أخير ، هو إلقاء المعانى المرادة فى ذهن الرسول، وذلك هو الأمر الذى حدث مع كل الرسل والأنبياء ، حدث لنوح وإبراهيم

وحدث لهود وصالح وشعيب ، وحدث لغيرهم من الرسل عليهم الصلاة والسلام .

ويجمل القرآن معظم هذه الحالات فى قوله تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه عليم حكيم » .

وهنا نعود مرة ثانية الى الحديث عن الأرواح الخفية ، التى تنقل الى الناس أخبار السماء . إذ ما العمل ما دام هؤلاء القوم يسلمون بوقوف الشياطين على تلك الأخبار .

هنا أمران : الأول أن الشياطين منعت بعد النبى ، ومن الجائز أن تكون قد منعت فى حياة كل واحد من الرسل والأنبياء ، وهذا ما يقول به بعض المفسرين ، وعلى رأسهم الرازى .

الثانى : أن الرسول الذى يأتيه الوحى وتنزل عليه الملائكة لا بدّ له من معجزة تدل على صدق رسالته وصحة نبوّته ، وذلك هو الأمر الذى سنتحدث عنه فى الفقرة التالية عند حديثنا عن المعجزات ، غير أنى قبل أن أبدأ الحديث عنها أريد أن أذكر شيئاً هو الحديث عن تلك العقيدة التى كانت شائعة معروفة فى الجزيرة العربية قبل مبعث الرسول عليه السلام .

قلنا إن التدين يرمى الى جلب النفع ودفع الضرر من الآلهة ، حتى ولو كانت أوثاناً ، ونقول إن الأمر الذى ينبنى على هذا هو أن الشعب الذى يمنّ الله عليه بالفضل ، فيختار واحداً من أبنائه ليكون الرسول ، هو الشعب الذى يعتقد بنفسه الفضل ، وأنه محل الرعاية والعناية .

ولقد كان الشعب الإسرائيلي يؤمن بهذا ، ويذيع ذلك فى الجزيرة العربية ، ولقد كان لكل ذلك أثره فى حياة اليهود فى الجزيرة فى حياة النبى والإسلام ، وصوّر القرآن عقيدتهم تلك حين ذهبوا الى أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وحين قال موسى لهم : « يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم مالم يؤتى أحداً من العالمين » .

ولكن القرآن حارب هذه العقيدة ، ومضى الى العكس منها ، وذهب الى أن الرسالة لا تخص شعباً دون شعب ، ولا أمة دون أمة ، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله دو الفضل العظيم . قال تعالى « إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » وقال تعالى « ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون » .

فالقرآن كما ترى يجعل الرساله ظاهرة دينيه واجتماعيه لا تخص بأمه دون أمة ولا يستأثر بها شعب دون آخر وهذا هو الأمر الذى شرحناه بتفصيل عند حديثنا عن المعانى الاجتماعيه .

وتبدأ الآن بالحديث عن المعجزات فنقول .

جاء القرآن والقوم يذهبون فى الغالب مذهبين . الأول أن الرسول لابد وأن يكون من الملائكة وذلك هو الرأى الذى صورنا أن القرآن يجرى على خلافه عند حديثنا عن المعانى الاجتماعيه من أن الرسول يكون من الجماعه ويكون مَن الذىن عرفوا آمالها وأحسوا آلامها فهو أخو القوم المتحدث بلسانهم .

الثانى أن الرسول من البشر لكنه يؤيد دائما بمعجزة ومن هنا كانوا يقفون دائما فى وجه الأنبياء يطالبونهم بالآيات أو البينة .

وموقف القرآن هنا موقف من لا ينكر أمر المعجزة لكنه ينكر أن يتوقف الإيمان عليها أو يتعلق بها ولذ نراه يذكر المعجزات التى عرفت لمن سبق النبى عليه السلام من الرسل فيذكر معجزات موسى وعيسى كما يذكر ناقة صالح وإلقاء إبراهيم فى النار .

لكنه فى الوقت نفسه يرى ألا تعلق لهذه بتلك فالآيات لم تأت دائما لتكون الدليل وإنما جاءت تخويفا وانذارا ومن هنا أصبحت قليلة النفع عديمة الفائده . يقول الله تعالى « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا . »

والآيات قد تأتى الواحدة بعد الأخرى ومع ذلك لا يكون ايمان ولا ينفع مع المعارضة أى دليل . قال تعالى « ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنو الا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون »

وقد فطن الطبرى الى ذلك فقال عند تفسيره لهذه الآية « يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم يا محمد آيس من فلاح هؤلا العادلين بربهم الأوثان والأصنام القائلين لك لئن جئتنا بآية لنؤمنن لك فإننا لو نزلنا إليهم الملائكة حتى يروها عيانا وكلمهم الموتى بأحيائنا إياهم حجة لك ودلالة على نبوتك وأخبروهم أنك محق فيما تقول وأن ما جئتهم به حق من عند الله وحشرنا عليهم كل شىء قبلا فجعلناهم لك قبلا ما آمنو ولا صدقوك ولا اتبعوك إلا أن يشاء الله لمن شاء منهم ولكن أكثرهم يجهلون يقول ولكن أكثر هؤلا المشركين يجهلون أن ذلك كذلك يحسبون أن الايمان

أليهم والكفر بأيديهم متى شاءوا آمنوا ومتى شاءوا كفروا وليس ذلك كذلك ذلك بيدى لا يؤمن منهم الا من هديته له فوفقته ولا يكفر الا من خذلته عن الرشد فأضللته [١] . »

ونستطيع أن تكتفى بهذا القدر عن المعانى الدينية وقد كانت هذه الأمور الوحدانيه والرساله والمعجزات أهم المشاكل التى عنى بها القصص وأكثر من الحديث عنها : كما أن التوجيهات الدينية عن كثير من هذه المسائل قد تقدمت فى فصل الحديث عن الأسس النفسية والاجتماعيه وسيأتى عنها حديث آخر فى الفصول المقبلة خاصه عند حديثنا عن عنصر الخوارق فى القصص .

ثم هناك سبب آخر اعتقده وجيها هو أن أكثر هذه الموضوعات قد قتلت بحثا فى الثقافة الاسلامية كما أنى قد عرضت لها فى رساله الماجستير ومن هنا اعتقد أن الابتكار فى هذه الاشياء ليس بالأمر المنتظر ويكفى فى التوجيهات ما ذكرت .

وننتقل الآن الى الحديث عن المعانى الاخلاقية .

وللقصص القرآنى طرق خاصة فى تصوير الأشياء الخلقية . فهو مرة يعمد إلى النهى الصريح وذلك فى حالات منها أن يكون المنهى عنه من الأمور العادية التى تركزت فى البيئة فأصبحت من العادات الاجتماعية المرذولة وذلك كتطفيف الكيل فقد نهى القرآن عن هذه العادة القبيحة المرذولة فى قصة من قصص شعيب .

الطبرى ج ٨ ص ٢

ومنها تلك الأمور التى يقوم بها الناس ترضيه لعاطفه أو استجابه لرغبه وذلك كقعودهم بكل صراط يصدون عن سبيل الله من آمن وتلك تكررت فى كثير من القصص ووردت أيضاً فى قصة شعيب .

ويمثل النوعين من النهى قصة شعيب فى الأعراف . قال تعالى « وإلى مدين أخاهم شعيباً قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً واذكروا اذ كنتم قليلا فكثركم وأنظروا كيف كان عاقبة المفسدين » .

وهو مرة يعمد الى التعجب أو إلى الاستفهام الإنكارى وذلك أيضاً قد يكون فى العادات القبيحة المرذولة التى استقرت فى البيئة وأصبحت خلقاً عاماً وذلك كاتيان الذكران من العالمين فى كل قصة ورد فيها اسم لوط . قال الله تعالى «ولوطاً إذ قال لقومه أإنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين أإنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر فما كان حواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين » .

ثم هناك الطريقة العرضية التى يعرض فيها القرآن أخلاق بعض الجماعات أو أخلاق بيئة من البيئات وذلك يكثر فى القصص الذى سنقول عنه فى المستقبل أنه لا يقصد شيئاً معيناً وأكثر ما يكون هذا

اللون فى قصص موسى عليه السلام إذ فى ذلك القصص نجد تصويراً لأخلاق اليهود كما نجد بعض لفتات لأخلاق المصريين .

ولا نستطيع أن نقول هنا بأن هذا كان تصويراً للواقع فى جملته وتفصيله فقد يكون التعبير الأدبى عن حالات بعينها هو الذى أدى إلى مثل هذه المعانى الخلقية . ومن هنا نريد أن نلتزم فى هذا اللون ما التزمناه سابقاً فى الحديث عن المعانى التاريخية حيث انتهينا إلى القول بتلك الحرية الفنية التى تدفع بالأديب الى أن يلاحظ الواقع النفسى أكثر من ملاحظته لصدق القضايا وصحتها لأن المسألة قد تكون مسألة حرب أعصاب لا أكثر ولا أقل ولعل هذا هو الذى يلاحظ فيما يخص اليهود . فقد كان القرآن ينزل على النبى وفيه هجوم عنيف على اليهود خاصة فى العهد المدنى .

وأول الأشياء التى تؤخذ على اليهود عدم الوفاء بالعهود . فقد كانوا ينقضون الأيمان بعد توكيدها . وقد كانوا ينكثون فى كثير من الأمور التى اتفقوا عليها مع موسى عليه السلام . قال الله تعالى « ولقد أنزلنا اليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لايؤمنون ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون » . وقال تعالى بصدد الحديث عن خلقهم أيضا « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لايؤده اليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون بلى من أوفى بعهده واتقى فان الله يحب المتقين إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلا أولئك لا خلاق

لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم وإن منهم لفريقا يلوون السنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » .

وكذلك صنع القرآن مع المصريين فقد صورهم على أنهم قوم ينكثون ماعاهدوا الله عليه . قال الله تعالى « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون وقالوا امهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين فأرسلنا عليه الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانو قوما مجرمين ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى اسرائيل فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذاهم ينكثون فانتقمنا منهم فاغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين »

كما رماهم بالخفة والطيش فى اتباع فرعون وعبادته . قال تعالى فى سورة الزخرف « وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بماعهد عندك أئنا لمهتدون فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون ونادى فرعون فى قومه قال ياقوم أليس لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون أم أنا خير من هذا الذى هومهين ولا يكاد يبين فلولا ألقى علية اسوره من ذهب أو جاء معه الملائكه مقترنين فاستخف قومه فاطاعوه انهم كانوا قوما فاسقين . »

وقبل أن ننتهى من الحديث عن المعانى الخلقية نلفت الذهن الى ماقلناه فى الفصل السابق عن أثر الأقتصاد فى المعارضة إذ نجد هناك بعض الأشياء

التى نستطيع أن نسميها أخلاقا دفعت إليها الحالة الاقتصادية وذلك كالكبر والعناد بالنسبة للأغنياء والخضوع بالنسبة للفقراء حتى لقد كان الأغنياء يزدرونهم .

وعلى الجملة فالجوانب الخلقية فى القصص القرآنى ليست بالكثيره ولعل أهمها هو الذى صورناه هنا بحيث لانستطيع القول بأنا قد تركنا منها أمراله قيمة .

ولا يسعنى فى ختام هذا الفصل الا أن أعتذر عن التقصير الذى دفع اليه كتابتى لهذا الفصل سابقا فى رسالة أخرى . ولأن مواد هذا الفصل بالذات قد اشبعها القدماء بحثا ودرسا .

البَاب الثاني

الفن
في القصة القرآنية

الفصل الأول

ماهى القصة ؟ وهل فى القرآن قصة فنية ؟

ونحاول أن نقف على تلك الصورة التى كان يتصور بها الأقدمون من علماء البلاغة والنقد الأدبى القصة الفنيه فنعجز . ويرجع هذا العجز إلى أن هؤلاء العلماء لم يلتفتوا إلى هذه القصة على أنها لون من ألوان الفنون والآداب فضلا عن الوقوف عندها لبحثها ودرسها وتقعيد قواعدها ومن هنا جاءت كتبهم خالية من أى حديث عن القصة حتى ذلك الحديث الذى يحددها ويعرف بها .

نعم نحن لا نستطيع أن ننكر أن من مسائل البيان ما يمكن الإعتماد عليه فى شرح وتفسير العناصر القصصية والظاهرات الأدبية فى القصة الفنية وذلك من أمثال مسائل التوسع واللزوم والتمثيل فأن المسألة الأولى يمكن الإعتماد عليها فى شرح وتفسير عنصر الحوار الفنى والثانية يمكن الإعتماد عليها فى الحديث عن الأحداث القصصية وبيان مدى صلتها بالحق والواقع أو بالعرف والخيال والثالثة يمكن الإعتماد عليها فى بيان كيفية استخراج القيم العقلية والتيارات الفكرية من القصة كما يمكن الإعتماد عليها فى بيان أن الممثل به لا يلزم أن يكون من الحقائق فقد يكتفى فيه بالمشهورات المتداولة وبالفرضيات المتخيلة كما سنرى بوضوح عند حديثنا عن القصة التمثيلية فى هذا الفصل إن شاء الله . لا نستطيع أن ننكر شيئا من ذلك بل نستطيع القول بأنا قد اعتمدنا على شىء من ذلك فى بحثنا هذا ولكن ذلك كله لا

يثبت أن هذا قد كان من الثقافة الأدبية للقصة الفنية وأنه إنما كان منا لنرضى هذه العقلية الأزهرية التي تجهل الثقافة القصصية والتي لا يرضيها من مسائل البيان العربي والنقد الأدبي إلا ما كان قديما أو ما كان متصلا من هذا القديم بسبب .

وعدم وقوف البيانيين وعلماء النقد من الأقدمين عند القصة الفنية هو الذى سبب ذلك الاهمال الشنيع لأمر القصة فى بيئاتنا الرسمية بيئات أساتذة اللغة العربية فى المعاهد المختلفة ولعله أن يكون من العجب أو من أعجب العجب أن تمضى جامعاتنا المصرية على هذه السنه فتهمل شأن القصه وشأن الثقافة الفنيه القصصية حتى وقتنا هذا مع اعتراف جميع الدارسين للآداب والفنون بأن القصة الفنيه أقوى ألوان الفنون تأثيرا وأكثرها ذيوعا وانتشارا . ومن يدرى فلعل هذا الإهمال هو الذى سبب هذه الثورة الأزهريه وتلك المعارضة الجامعية لرسالة الفن القصصى لأن الإهمال يدفع إلى الجهل والجهل يدفع إلى العداء . « ومن جهل شيئا عاداه . »

وعدم وقوف البيانيين عند القصه لا يعنى أن غيرهم لم يقف عندها فنحن نعلم أن هناك وقفات من المفسرين وعلماء اللغه .

أما علماء اللغه فقد اكتفوا من الحديث عن القصه بتحديدات مبهمه وتعريفات ناقصه بل هم اكتفوا بما يستثيره لفظ قصة فى الذهن من معنى وذلك ليس بالغريب عليهم فيما نرى فشأن علماء اللغه وبخاصة من هم من أبناء العربيه أن يذكروا لنا معانى الألفاظ أو ما تستثيره الألفاظ فى الأذهان من صور وليس من شأنهم أن يذكروا الحدود الفنيه والتعريفات العلميه وما يتبع ذلك من حديث تام شامل عندما تكون الألفاظ من المصطلحات العلميه أو الفنية .

والمعانى التى وقف عندها علماء اللغة عند حديثهم عن مادة «ق ص ص» كثيره ولعل أقربها إلى ما نحن بصدده من حديث أدبى ماروا اللغويون عن الأزهرى وعن الليث . يقول الأول . القص فعل القاص إذ قص القصص والقصة معروفه .

ويقول الثانى . القص اتباع الأثر ويقال خرج فلان قصصاً فى أثر فلان وقصا وذلك إذا اقتص أثره وقيل القاص يقص القصص لاتباعه خبرا بعد خبر وسوقه الكلام سوقا (١) .

أما فى كتب التفسير فتخطو المسأله خطوة إلى الأمام ذلك لأنهم ينظرون إلى المسأله باعتبارين . اعتبار لغوى يعتمدون فيه على ذلك الحصيل اللغوى الذى صورنا لك طرفا منه . واعتبار دينى ينظرون فيه من وجهة نظر خاصه هى قصد القرآن الكريم من قصصه أو أهدافــه التى يرمى إليها . وإذا حاولنا اختيار واحد من المفسرين يمثل الاعتبارين ويقترب إلى حد ما من الميدان الأدبى فسنختار الرازى .

يقول رحمة الله عند تفسيره للآية «نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين » ما يأتى « المسألة الثانية . القصص إتباع الخبر بعضه بعضا وأصله فى اللغة المتابعة قال تعالى وقالت لأخته قصيه أى أتبعى أثره . وقال تعالى فارتدا على آثارهما قصصا أى إتباعا وإنما سميت الحكاية قصــة لأن الذى يقص الحديث يذكر تلك القصة شيئا فشيئا » (٢)

---

(١) مادة قصص فى كل من اللسان والقاموس ومفردات الراغب والنهاية

(٢) التفسير الكبير جـ٢ ص ١٨١

وهو قول يدل على أن الرازى يحاول التقريب بين المعنى اللغـــوى والأصطلاح الأدبى وذلك حين يربط بين الأثنين باستعماله لفظ الحكاية وإطلاقه لفظ القصة عليها .

ويقول أيضا عند تفسيره لقوله تعالى « إن هذا لهو القصص الحق ... الخ مايلى والقصص هو مجموع الكلام المشتمل على مايهدى إلى الدين ويرشد إلى الحق ويأمر بطلب النجاه » (١)

وهو قول يشرح معنى القصص شرحا دينيا والرازى بهـــذا القول يدخل الميدان الأدبى أو يقترب منه وذلك لأن القصة الدينية ليست إلا لونا من ألوان القصص الأدبى .

ونحن مع احترامنا لكل من اللغويين والمفسرين لا نستطيع ونحن ندرس القصص الفنى أن نقف عند هذه الحدود ذلك لأنا حين نذكر لفظ قصه إنما نقصد شيئا آخر أهم من متابعة الخبر أو الحديث . نقصد ذلك العمل الأدبى الذى يكون نتيجة تخيل القاص لحوادث وقعت من بطل لا وجود له أو لبطل له وجود ولكن الأحداث التى دارت حوله فى القصه لم تقع أو وقعت للبطل ولكنها نظمت فى القصه على أساس فنى بلاغى فقدم بعضها وأخر آخر وذكر بعضها وحذف آخر أو أضيف إلى الواقع بعض لم يقع أو بولغ فى التصوير إلى الحد الذى يخرج بالشخصية التاريخية عن أن تكون من الحقائق العادية والمألوفه ويجعلها من الأشخاص الخياليين .

ذلك هو الذى نقصده عندما نذكر لفظة قصه فى الميدان الأدبى وهو

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٧٠٣

الذى نقصد إليه من درسنا للقصص الفنى فى القرآن الكريم ومن هنا يجب علينا أن نقف لنبحث عن ذلك القصد الأدبى أو الفنى من قصص القرآن الكريم فهل وجد ذلك القصد أو لم يوجد ؟ وبعباره أخرى هل قصد القرآن من قصصه إلى ما يقصد إليه الأدباء من التأثير الوجدانى واستثارة العاطفة والخيال أو قصد إلى التأثير العقلى وإقامة الدليل والبرهان ؟ .

لا أريد فى هذا الموقف أن أملى عليك رأيا بعينه وإنما أريد أن نستعرض سويا بعض الأقاصيص القرآنية لنرى رأينا فيها من حيث ذلك القصد الفنى وسأحرص فى هذا العرض أن تكون هذه الأقاصيص فى مجموعات كل واحدة منها تمثل لونا من الوان القصص الفنى وسنكتفى فى هذا العرض بالألوان التالية .

(١) اللون التاريخى ونقصد منه فى هذا الموقف ذلك اللون الذى يدور حول الشخصيات التاريخية من أمثال الأنبياء والمرسلين والذى يعتقد الأقدمون ان الأحداث القصصية فيه هى الأحداث التاريخية .

(٢) اللون التمثيلى ونقصد منه فى هذا الموقف ذلك اللون الذى يرى بعض الأقدمين أن الأحداث فيه ليست إلا الأحداث التى يقصد منها إلى البيان والإيضاح أو إلى الشرح والتفسير والذى لا يلزم فيه أن تكون أحداثه من الحقائق فقد يكتفى فيه بالفرضيات والمتخيلات على حد تعبير الأقدمين .

(٣) اللون الأسطورى وهو الذى تبنى فيه القصة على أسطوره من الأساطير والذى يقصد منه فى الغالب إلى تحقيق غاية علمية أو تفسير ظاهرة وجودية أو شرح مسألة قد أستعصت على العقل . والعنصر الأسطورى فى

هذه الأقاصيص لا يقصد لذاته وإنما يتخذ كما سنرى بعد لحظات على أنه الوسيلة والأداه .

ونستطيع أن نبــدأ الآن بذلك اللون الذى يسلم الجميع بوجوده فى القرآن الكريم وهو اللون التاريخى .

(١) القصة التاريخية

ولن نقف هنا عند طبيعة الأحداث الواردة فى هذا اللون من القصص من حيث وقوعها أو عدم الوقوع فلذلك محله من فصل خاص بالمواد القصصية وطبيعتها وموقف القرآن الكريم منها . وإنما سنمضى فى هذا الموقف وقد فرضنا أو سلمنا بأن هذه الأحداث قد وقعت حقا لنرى رأينا فى كيفية صياغة القرآن الكريم لهذه الأحداث وتصويره للأشخاص وهل قصد من وراء كل ذلك إلى العظة والعبره أو إلى الحقيقة والتاريخ ؟

(١) لنقرأ سويا هذه القصه . ـ قال تعالى كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر فكيف كان عذابى ونذر . »[(١)]

ولنفكر فسنرى أن القرآن قد تخلى عن كثير من التفصيلات فلم يذكر عن عاد شيئا قبل التكذيب وحتى عملية الإرسال نفسها قد تجاوز عنها فلم يذكر عن هود شيئا وهو الرسول الذى كذبه القوم . كما لم يذكر هنا صفة عاد ولم يتحدث عن بيوتها ومساكنها ولم يذكر لنا شيئا مما دار بين هود

---

(١) القمر ١٨ ـ ٢١

وقومه من جدل أو حوار . ترك كل هذا وأسرع إلى وصف العذاب . وهنا صوره صورة أدبيه رائعه بألفاظ جزله تهز العاطفة وتستثير الانفعال وتأخذ مكانها من الأفئده والألباب فهناك الريح الصرصر وهناك النحس المستمر وهناك قوة الريح التي تنزع الناس وكأنهم أعجاب نخل منقعر .

فعل القرآن كل هذا لسبب بسيط هو أنه يريد في ذلك العهد أن يبث في نفوس المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم الخوف من العذاب ويريد أن يريهم من الصور ما يجعل الخوف قويا عنيفا ومن هنا اختار هذه الصورة واكتفى بها حتى لا يشغل الذهن عنها بغيرها . وحرص القرآن على أن يكون العذاب والخوف منه هو النتيجه التي يجب أن تقر في النفس وفي الفؤاد ومن هنا بدأ القصة بذلك الاستفهام الذي يصوب إلى القلب السهام فكيف كان عذابي ونذر ؟ وختمها أيضا بنفس الاستفهام وكأنه يريد أن يصيب من الناس المقاتل .

وحرص القرآن في هذه السوره وبعد عرضه لكل قصة من قصصها أن يلفت أهل مكه إلى موقفهم من النبي والقرآن وإلى أن هذا الموقف فيه ما فيه « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » .

فعل القرآن كل هذا لأن قصص هذه السوره لم تنزل إلا للإنذار وللتخويف من العذاب .

وعلى هذا فأنت ترى أن القرآن يختار من المواد الأدبية القصصيه ما يحقق الغرض ويوفي بالقصد وأنه يعرض عما عداه من أحداث وأشخاص وتفصيلات . ومن هنا لا تستطيع أن تقول بأن هذه القصه تقصد إلى تعليم الوقائع والتعريف بالتاريخ وإن كنا نستطيع أن نقول إنها قصة أدبيه نزلت لقصد عاطفي هو التخويف والإنذار .

ولقد فطن ابن الأثير إلى هذا الصنيع القصصى من القرآن وعلله تعليلا أدبيا أو بلاغيا أو فنيا حين قال . « ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا فقلنا إذ هبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا . ألا ترى كيف حذف جواب الأمر فى هـــذه الآيه فإن تقديره فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فذهبا إليهم فكذبوهما فدمرناهم تدميرا فذكر حاشيتى القصه أولها وآخرها لأنهما المقصود من القصه بطولها أعنى إلزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم . » (١)

فابن الأثير كما ترى يعلل الذكر والحذف فى القصه بعلل أدبيه بيانيه ويدلنا على أن القرآن اكتفى فى الذكر بحاشيتى القصـــه لأنها المقصود وأعرض عما عداه مما لايستطيع المؤرخ أن يهمله ولا مجال له فى العدول عنه لأن التاريخ لا يكون تاريخا إلا به وذلك من مثل ذكر صفة موسى ونسبه ووقت الإرسال والقصد من إرساله ولمن أرسل وأين وكيف جعل هارون وزيرا وسببه وما كان بينهما وبين القوم من جدل وحوار... الخ .

عدل القرآن عن كل هذا لسبب بسيط هو أنه يقص للموعظة والعبره ولا يؤرخ للأفراد والجماعات أو للأمم والشعوب .

جاء فى المنار بصدد حديثه عن قصة الطوفان من سورة هود ما يلى « وبينا أن قصة نوح عليه السلام جاءت فى عدة سور فى كل سورة منها ما ليس فى سائرها من ذلك ولهذا لم يذكر فيها من حادثة الطوفان إلا ما فيه العبرة والموعظة المقصودة بالذات منها فذكرت فى بعضها بآية وفى بعضها بآيتين فما فوقها من جمع القلة وما فى هذه السورة هو أطولها وأجمعها(٢) » .

(١) المثل السائر ص ٢٠٥
(٢) المنار ج ١٢ ص ١٠١

ونستطيع الآن أن ننتهى من هذه الفقرة إلى القول بأن المقاصد والأغراض هى التى تدفع إلى ذكر بعض الأحداث وحذف بعضها الآخر. وإلى القول بأن ما يقال أساساً للذكر والحذف عند الأقدمين من مفسرين وأدباء. هو ما نقول به اليوم أساسا لاختيار الأحداث فى القصص القرآنى وإن هذا الاختيار إنما يقوم على الاعتبارات البلاغية الأدبية التى نردها الى منطق العاطفة لا إلى منطق النظر العقلى لأن قضايا الأول وجدانية شعرية وهى التى تليق بهذا الميدان.

ومن هنا نستطيع أن نقول إن هذا اللون من قصص القرآن قصص أدبى تاريخى يأخذ القرآن مواد القصص فيه من أحداث التاريخ ووقائعه لكنه يعرضها عرضاً أدبياً ويسوقها سوقا عاطفياً يبين المعانى ويؤيد الأغراض ويؤثر بها التاثير الذى يجعل وقعها على الأنفس وقعا استهوائيا خطابياً يستثير منها العاطفة والوجدان.

(٢) وأنظر معى فى هذه القصص.

قال تعالى « فلما جاء آل لوط المرسلون قال إنكم قوم منكرون قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون وآتيناك بالحق وإنا لصادقون فاسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين وجاء أهل المدينة يستبشرون قال إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون واتقوا الله ولا تخزون قالوا أو لم ننهك عن العالمين قال هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون فاخذتهم الصيحة مشرقين فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل إن فى ذلك لآيه للمتوسمين[1] ».

---

(١) الحجر ٦١ ـ ٧٥

وقال تعالى « ولما جاءت رسلنا لوطا سىء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب وجاءه قومه يهرعون اليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال ياقوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فاسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وماهى من الظالمين ببعيد [١] .

ثم أنظر فستجد القصة فى سورة هود وهى القصة الثانية جرت على هذا الأساس أو على هذه الطريقة مجىء الملائكة ثم حال لوط واضطرابه النفسى ثم مجىء القوم ثم موقفه منهم وعرضه لبناته حتى لا يخزى فى ضيفه ثم ردهم عليه وعزمهم على المضى فيما جاءوا من أجله ثم موقف الملائكة وإخبارهم لوطا بانهم رسل ربه ونصحهم له بالسرى وإخبارهم له بأن العذاب نازل وأن موعدهم الصبح .

وهكذا تجرى القصة وقد رتبت وقائعها على أساس يشعر بان الزمن هو المحور الذى يربط هذه الوقائع المختاره وتلك الأحداث المنتقاه من حياة لوط عليه السلام . كما تجرى المحاورة بينه وبين قومه على أساس من المنطق النظرى إذ تدور بينه وبين قومه قبل أن يعرف أن ضيفه هم رسل ربه .

---

(١) هود ٧٧ — ٨٣

وستجد القصه فى سورة الحجر تجرى على نسق آخر إذ تعلمه الملائكة أنهم رسل ربه وتنصح له بالسرى وتنبئه بما سيحل بالقريه وأهلها من عذاب قبل أن يجيئه قومه ويكون بينهم وبينه ذلك الحوار .

إن المحاورة فى قصة الحجر تدور بينه وبين قومه بعد أن عرف أن ضيفه هم رسل ربه وأنهم لن يصابوا بسوء . ويشعرنا هذا الصنيع بأن تسلسل هذه الأحداث لا يقوم على الترتيب الزمنى ولا على أساس من التسلسل المنطقى الذى كان من الممكن أن يكون ذلك لأن العقل يجيز أن لوطا وقد عرف أن ضيفه هم رسل ربه وأنهم من الملائكة لا يخشى شيئا ولا يخاف عليهم من قومه ومن هنا لا يعرض بناته لأذى أو مكروه . لكن القرآن خالف بين القصتين وجرى على نهجين مختلفين فى البناء والتركيب .

فكر فى الأمر فستجد أن القصد من القصتين مختلف وسنرى أن القرآن قد خالف بينهما فى الترتيب ليشعرنا بأن هذه قصه مستقلة وتلك قصة مستقله وأن ترتيبه للأحداث يختلف لاختلاف المقاصد حتى ولو أدى هذا الاختلاف إلى إهمال أهم مقومات التاريخ وهو الزمان .

إن القصد من قصة لوط فى سورة هود هو تثبيت قلب النبى محمد عليه السلام ومن أجل ذلك عنى القرآن بما ينال لوطا من أذى ومن هنا عنى القرآن بحالته النفسية وقصد إلى أن يبرز عواطفه ويصور أفكاره وهذا هو صنيع القرآن فى كل القصص الذى ورد فى هذه السورة وهو الذى يتلاءم مع بدئها والختام . فقد قال تعالى فى مفتتح هذه السوره مصورا نفسية محمد عليه السلام « فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك .... الخ » ، وقال فى الختام « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ... الخ » .

وحرص القرآن أيضاً على أن يشعرنا بأن الضيق يجيء للنبي من حرصه على هداية قومه وموقفهم منه . كما صرح بأن السبب فى قصص سورة هود إنما هو تثبيت فؤاده ومن هنا كان يعنى بما ينال الرسل من أذى وما يشعرون به من ضيق .

أما القصد من قصة لوط فى الحجر فقد كان بيان ما ينزل بالمكذبين من أذى ومن هنا حرص القرآن على أن يجعل الملائكة تعلن عن نفسها وتخبر لوطا بما سيحل بالقوم من مصائب وما سينزل عليهم من عذاب . وهذا هو الذى يتلاءم وحالة النبى محمد عليه السلام وهو ما صرح به القرآن فى ختام سورة الحجر حين قال « فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله إلها آخر .... الخ » .

فالحرص على العذاب الذى ينزل بأقوام الرسل هو المقصود من القصة وهو الذى يتلاءم مع ذلك القسم الأخير ومع إعلان حماية الله للنبى وطلبه منه أن يعرض عن المشركين وأنه سيكفيه هؤلاء وأنهم سيعلمون عاقبة هذا الموقف ومغبة هذا الأمر .

وهكذا تجد أن ترتيب هذه الأحداث يقوم على أساس غايته تحريك العاطفة ويؤدى نتيجة بغيتها هز العقول والأفهام . وكل هذا هو ما نطلق عليه اليوم منطق العاطفة والوجدان .

ولقد كان هذا الاختلاف فى أسلوب القرآن وطريقه بناء القصه من حيث ترتيب الأحداث محيرا للقدماء حين أشكل الأمر عليهم فذهبوا إلى أن هذه الحادثة فى هذا الموطن ليست هى التى ذكرت فى ذلك .

جاء فى النيسابورى مايلى « وللمفسرين خلاف فى أن هذا الميقات عين ميقات الكلام والرؤيه أم غيره . الذاهبون إلى الأول قالوا إن موسى كان أمره ربه أن يأتيه فى سبعين من بنى إسرائيل فلما سمعوا الكلام طلبوا الرؤيه وقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهره فأخذتهم الصاعقهو وهى المراد من الرجفه فى هذه الآيه . والذاهبون إلى الثانى حملوا القصة على ما مر فى البقره فى تفسير قوله وإذا قلتم ياموسى لن نؤمن لك . وقد ذكرنا هنالك أن منهم من قال هذه الواقعه كانت قبل قتل الأنفس توبة من عبادة العجل ومنهم من قال إنها كانت بعد القتل واحتج أصحاب هذا المذهب على المغايره بأنه تعالى ذكر قصة ميقات الكلام وطلب الرؤيه ثم اتبعها ذكر قصة العجل ثم ختم الكلام بهذه القصه . فظاهر الحال يقتضى أن تكون هذه القصة مغايرة لتلك وإلا انخرم التناسب . (١) »

فالنيسابورى هنا يصور لنا الخلاف فى الترتيب بين قصتين ويرى أن ظاهر الحال يقتضى أن تكون هذه غير تلك وهو يقول بهذا القول خشية انخرام التناسب ولو فطن النيسابورى إلى أن القرآن هو الذى قصد إلى هذا لما قام عنده ولا عند غيره من المفسرين أمثال هذه المشكلات القصصيه فى القرآن .

إن ترتيب الأحداث فى قصة البقره قام على أساس تذكير اليهود أنفسهم بالنعم التى أنعم الله بها عليهم ليحببهم فى النبى عليه السلام ويدفعهم إلى الدخول فى الاسلام ومن هنا لم يعن القرآن بتفصيل الأحداث ولا بما وقع من المصائب كالقمل والضفادع والدم وغيرها أما ترتيبها فى قصة

---

(١) النيسابورى ج ٩ ص ٥٣

الأعراف فيقوم على أساس آخر لم يعن القرآن فيه باليهود ليعظهم ويذكرهم وإنما عنى بالأحداث نفسها ليلقى الرعب فى قلوب المشركين من أهل مكه ويدفعهم إلى البعد عن التكذيب والاستكبار ومن هنا سرد الأحداث سردا تفصيليا ودل على ما كان ينزل بهم من العذاب والمصائب دلالة قويه وأظهر عطفه على موسى واختياره له كما أظهر عطف موسى عليه السلام على قومه .

إن المقاصد التى يرمى إليها القرآن هى التى تملى الأسلوب والطريقة وهى التى من أجلها يسلسل القرآن الأحداث ويربط بينها برباط من العاطفة والوجدان .

ولقد كان الأستاذ الإمام رحمه الله سباقا إلى تقرير هذه القاعده القصصيه فى ترتيب الأحداث . وهذه بعض النصوص التى توضح ذلك .

جاء فى المنار ما يلى « قال الأستاذ الإمام . إن كثيرين من أعداء القرآن يأخذون عليه عدم الترتيب فى القصص ويقولون هنا إن الاستسقاء وضرب الحجر كان قبل التيه وقبل الأمر بدخول تلك القريه فذكرها هنا بعد تلك الوقائع . والجواب عن هذه الشبهه يفهم مما قلناه مرارا فى قصص الانبياء والأمم الواردة فى القرآن وهو أنه لم يقصد بها التاريخ وسرد الوقائع مرتبة بحسب أزمنة وقوعها وإنما المراد بها الاعتبار والعظه ببيان النعم متصلة بأسبابها لتطلب بها وبيان النقم بعللها لتتقى من وجهتها . ومتى كان هذا هو الغرض من السياق فالواجب أن يكون ترتيب الوقائع فى الذكر على الوجه الذى يكون أبلغ فى التذكير وأدعى إلى التأثير » (١)

---

(١) المنار جـ ١ ص ٣٢٧

وجاء فيه أيضا « قال الاستاذ الإمام . جاءت هذه الآيات على أسلوب القرآن الخاص الذى لم يسبق إليه ولم يلحق فيه فهو فى هذه القصص لم يلتزم ترتيب المؤرخين ولا طريقة الكتاب فى تنسيق الكلام وترتيبة على حسب الوقائع حتى فى القصة الواحده . وإنما ينسق الكلام فيه بأسلوب يأخذ بمجامع القلوب ويحرك الفكر إلى النظر تحريكا ويهز النفس للاعتبار هزا وقد راعى فى قصص بنى إسرائيل أنواع المنن التى منحهم الله تعالى إياها وضروب الكفران والفسوق التى قابلوها بها وما كان فى أثر كل ذلك من تأديبهم بالعقوبات وابتلائهم بالحسنات والسيئات وكيف كانوا يحدثون فى أثر كل عقوبة توبه ويحدث لهم فى أثر كل توبة نعمه ثم يعودون إلى بطرهم وينقلبون إلى كفرهم . » (١)

وواضح من نصوص المنار أن الاستاذ الأمام يرى أن ترتيب الأحداث فى القصص القرآنى يرجع إلى اعتبار بلاغى خاص من أجله يقوم العرض على أساس عاطفى وإنه فى ذلك يخالف الأساس الذى يقوم عليه ترتيب الأحداث عند المؤرخين قطعا وهذا هو جوهر ما نقصد إليه حين نقول بأن عرض القرآن لأحداثه القصصيه ليس إلا العرض الأدبى العاطفى . ليس إلا العرض الفنى وأن القصص القرآنى فنى .

وهكذا نستطيع أن ننتهى من هذه الفقره إلى القول بأن أحداث التاريخ التى وردت فى القصص القرآنى قد رتبت ترتيبا عاطفيا وبنيت بناء يقصد به تحريك الهمم والنفوس ومعنى ذلك أنها لون من ألوان القصص التاريخى الفنى . وأن العمل فيها فنى يقدر بموازين الفن القولى لا بموازين المؤرخين .

(١) المنار جـ ١ ص ٣٤٦

(٣) واقرأ معى أيضا هذه الأقاصيص .

قال تعالى « كذبت عاد المرسلين إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون إنى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين أتبنون بكل ربع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون وأتقوا الذى أمدكم بما تعلمون أمدكم بانعام وبنين وجنات وعيون إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين إن هذا إلا خلق الأولين وما نحن بمعذبين فكذبوه فأهلكناهم إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم (١) .

وقال تعالى « كذبت قوم لوط المرسلين إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون إنى لكم رسول أمين فأتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين أتاتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون قالوا لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين قال إنى لعملكم من القالين رب نجنى وأهلى مما يعملون فنجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزاً فى الغابرين ثم دمرنا الآخرين وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم (٢) » .

ثم انظر فسترى وحدة فى التصميم واتفاقاً فى البناء والتركيب وإن اختلفت مواد البناء فى بعض الأحيان.

---

(١) الشعراء ١٦٠ ـ ١٧٥

(٢) الشعراء ١٢٣ ـ ١٤٠

هذا المطلع فى الثانية وذاك المطلع فى الأولى متفقان حتى فى الألفاظ والتراكيب وحتى فى الخروج من الأفراد فى الرسل الى الجمع فنحن نعلم ان عادا لم يكن لها من الرسل غير هود وكذلك الحال مع قوم لوط .

وهذه الخواتيم فى القصتين متفقة فى الألفاظ والتراكيب .

وهذا الجو العاطفى الذى يسود القصتين من حرص على الهداية من الرسل ذلك الحرص الذى يدفعهم الى الاستعانة ببعض الصفات التى ترقق العاطفة وتذيب القلب من أنه أخوهم ومن أنه الرسول الأمين الذى يبذل النصح لوجه الله ولا يسالهم أجرا والذى لا يطلب منهم الا أن يتقوا الله ويطيعوه . أما هم فحريصون على المخالفة لا يقبلون النصح والإرشاد ويصرون على موقفهم على ما فيه من فساد وضلال . فقوم هود لن يستجيبوا وسواء عليهم أوعظ أم لم يكن من الواعظين وقوم لوط يطلبون اليه أن يكف عن وعظه والا كان من المخرجين .

وهكذا ترى أن الأساس الذى قام عليه بناء القصتين واحد وأن الروح التى تسود القصتين واحدة وان اختلفت العناصر من أحداث واشخاص وحوار فى بعض الأحيان .

أن السر فى هذه الوحدة هو أن القصد الذى يرمى اليه القرآن من القصتين واحد وهو ذلك الذى أشار اليه فى أول السورة من حرص محمد عليه السلام على هداية قومه ثم من موقفهم منه ذلك الموقف الذى لخصته السورة فى الختام .

قال تعالى « طسم تلك آيات الكتاب المبين لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ان نشاء ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين » .

ولعل هذه الروح هى التى سادت ما ورد فى السورة من قصص ومن هنا بنيت بناء متشابها واتفقت فى كثير من مواد هذا البناء .

ونستطيع ان ننتهى من هذه الفقرة إلى القول بأن المنطق العاطفى هو الذى يسود القصة التاريخية فى القرآن الكريم من حيث الاختيار أو بتعبير الأقدمين من حيث الذكر والحذف وليس هذا فحسب بل هو الذى يسودها من حيث الترتيب أو باصطلاح القدماء من حيث التقديم والتأخير. وليس هذا فحسب بل من حيث التصميم والبناء ومعنى ذلك أن القصص التاريخى فى القرآن قصص أدبى أولا وأخيرا وهكذا يكون معجزة بلاغية قولية تفهم بأضواء الدرس الفنى .

(٤) عرضنا عليك فى الفقرات السابقة أمورا تدل على أن القصة التاريخية ليست عرضا تاريخيا تطلب فيه المطابقة الواقعية المحققة للصدق العقلى وإنما هى عرض أدبى يطلب فيه التأثير وقوة الوقع ليتحقق به الصدق الفنى أو الأدبى ويكون التوجيه نحو الغاية المبتغاه وانتهينا إلى أن القصة التاريخية فى القرآن قصة أدبية يقصد منها غير ما يقصد من التاريخ وتعرض غير ما يعرض التاريخ وتثبت غير ما يثبت التاريخ وشرحنا كل ذلك شرحا إعتمدنا فيه على العلاقات التى تقوم بين المواد القصصيه المتعدده من حيث اختيار بعض المواد دون بعضها الآخر أو باصطلاح الأقدمين من حيث الذكر والحذف ومن حيث الايجاز والأطناب . ثم من حيث ترتيب المواد المختاره أو المنتقاه أو بعبارة الأقدمين من حيث التقديم والتأخير وكان كل ذلك فى القصة الواحده . ثم شرحنا بعض ذلك شرحا إعتمدنا فيه على العلاقات بين القصص المختلفة من حيث التصميم أو الصوغ والتركيب وذلك فى القصص التى تختلف عناصرها أو مواد بنائها ولاحظنا

أن كل هذه الأمور توجه على ما يحقق القصد والغرض وأن الذى يسودها هو الجو العاطفى وأن الذى ينظمها هو منطق العاطفة والوجدان وأنها لكل هذا قصة أدبية وعمل فنى رائع معجز .

والآن نريد أن ننظر فى أمر آخر هو موقف القرآن من العنصر القصصى الواحد .

لننظر سويا فى هذه العناصر .

(ا) قال الله تعالى « وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم » (١) .

وهو قول يخاطب به القرآن المعاصرين للنبى عليه السلام من أهل الكتاب ويذكر نعمه عليهم وفضله الذى أسبغه فيما مضى لكننا نلحظ أنه لم يأت بالصيغ التى تدل على هذه الحقيقة من حيث الزمان فهو يعرض عن الماضى الذى يصور ما حدث لأجدادهم فى زمن موسى وقبله ويصور هذا الحدث بالصيغه التى تدل على الحضور والمشاهده وكأن الأمر يقع بهم لا بأجدادهم وكأنه يقع بهم الآن .

إنما يفسر هذا الصنيع مانعرفه من العناية الأدبيه التى يرمى إليها القرآن والتى هى سر إعجازه والتى تعنى بالتأثير على النفوس فيخرج الكلام وقد ساده ذلك المنطق الذى نسميه بمنطق العاطفه والوجدان .

ان الأسرار التى من أجلها ذكر القرآن هذه النعم التى تفضل الله بها فيما مضى على اليهود وأهل الكتاب هى أن يرقق قلوبهم ويصرفهم إلى الإيمان

---

(١) البقرة ٤٩

بمحمد عليه السلام وأنه من أجل هـذا أعرض عن الصيغة الدالة على الحدث والزمان إلى صيغة أخرى تضع المسأله بين أيديهم وتعرضها على أبصارهم بما فيها من حيوية فنيـــه هى تلك الحيويه التى يعبر عنها فى الأدب بالتصوير بالحركات والإشارات .

إن هذه الصوره أقـدر على تحريك القلوب وأكثر استثارة للعاطفة والوجدان إنها الصورة التى تبعث فى أنفسهم الخشيـــة والخضوع المحبب للواحد الديان .

(ب) قال تعالى « وبرزوا الله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فاخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتونى من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم . » (١)

هذه آيات تصور موقفا من مواقف الآخـــره وتصور نزاعا بين المستضعفين والمستكبرين وبين الشيطان ومتبعيه وهى من حيث الزمان لم تقع بعد ولو كان المنطق العقلى يوجب الأمر للواقع والمطابقه وجب أن تصور هذه الصوره بالصيغ التى تدل على المستقبل لـكن القرآن عدل عن هذه الصوره إلى الصوره التى تدل على أنها وقعت فعلا ذلك لأنه عبر عن ذلك بالماضى . وبرزوا . وقال الشيطان . فقال الضعفاء ... الخ فما هو السر ؟ .

(١) ابراهيم ٢١ ، ٢٢

إن الوقوف على السر ليس بالعسير ولا الشاق فالقرآن لا يقصد من هذه الصوره أن يعلم الناس شيئا تتعلق به عقيدة ما أو عمل ما سيحدث بين المستضعفين والمستكبرين فى الآخره أو بين هؤلاء وبين الشيطان فيعرفوا منه حقائق ويتعلموا منه معارف يعتقدونها أو يستعملونها إنما يريد أن يصلح نفوسهم بهدايتها إلى ما ينتظرها فى العالم الآخر من مؤاخذة ومسئوليه ومحاكمة وما إلى ذلك وهو يصل إلى هذا من الطريق الأدبى البليغ وما يتبعه من اهتزازات عاطفيه وانفعالات نفسيه .

إنما يقصد القرآن من هذه الصوره أن يبث الخوف والقلق فى نفوس المعاصرين للنبى عليه السلام وأن يصرف المستضعفين عن اتباع المستكبرين والاستماع إليهم وأن يصرف المستكبرين عن الجرى مع الهوى وخلف الشيطان وأنه من أجل ذلك صور هذه المحاوره بصورة الأمر الواقع وجاء لها بصيغة الماضى وأنه لم يفعل ذلك إلا لأنه يعلم أن المعاصرين للنبى عليه السلام ينكرون البعث الذى هو حق لابد من وقوعه وأنه يريد أن يسد عليهم المنافذ وأن يضع المسألة موضع الأمر الذى قد وقع ومضى فجاء بالصيغة الدالة على ذلك وهى صيغة الماضى الذى يؤكد وقوع الفعل أو بعبارة حديثه صور هذا المنظر بالصورة التى تدل على الإيهام بالواقع .

إن التعبير بالماضى هنا يدل عقليا على الوقوع قبل زمن الكلام ويدل عاطفيا أو بلاغيا أدبيا أو فنيا على حقية الحدث وأنه لابد كائن ولا مفر فالدلالة الأولى حين تراد يكون ذلك منطق العقل ويحكم عليه بالصدق الخلق والعقلى أو قسيمه وهو ما ليس من مراد القرآن فلا محل للمؤاخذة به .

وأما المعانى الثانيه والدلالة البلاغيه حين تراد فيكون ذلك منطق العاطفه

الذى لا يحكم عليه أو معه بصدق أو كذب لأن المراد ليس إفادة الوقوع والتحقق بل إفادة شىء آخر هو التحقق والتأكد .

ولعل الذى يؤكد كل هذا هو ما ذكره سبحانه وتعالى فى الآيه السابقه لهذه لآيات المتقدمه فقد قال « ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق إن يشاء يذهبكم ويأتى بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز . »[١]

إذ يوجه الخطاب إلى قوم النبى عليه السلام ويصور موقفهم منه ذلك الموقف الذى يدل على أنهم قـــد بلغوا من العنت إلى نهايه الشوط حتى ليذهبهم ويأتى بخلق جديد .

إن المنطق الذى يسود هذه الصوره هو المنطق الأدبى منطق العاطفه والوجدان ولقد لحظ القدماء من علماء البلاغة العلاقه بين الصور والصيغ وبين أثرهما النفسى والعاطفى جاء فى ابن الأثير بصدد حديثه عن اللونين من التعبير . عن المستقبل بالماضى وعن الماضى بالمستقبل ما يلى « والفرق بينه وبين الإختبار بالفعل المستقبل عن الماضى أن الغرض بذلك تبيّـن هيئة الفعل واستحضار صورته ليكون السامع كأنه يشاهدها والغرض بهذا هو الدلالة على إيجاد الفعل الذى لم يوجـــد بعد فمن أمثلة الإخبار بالفعل الماضى عن المستقبل قوله تعالى . . . وكذلك جاء قوله تعالى ويوم نسيّر الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحـدا وإنمـا قيل وحشرناهم ماضيا بعد نسير وترى وهما مستقبلان للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير والبروز ليشاهدوا تلك الاحوال كأنه قال وحشرناهم قبل ذلك

---

(١) ابراهيم ١٩ ، ٢٠

لأن الحشر هو المهم لأن من الناس من ينكره كالفلاسفه وغيرهم ومن أجل ذلك ذكر بلفظ الماضى . » (١)

وواضح أن ابن الأثير يرى أن المنطق الذى يسير هـذه الصيغ هو المنطق النفسى لا العقلى هو المنطق البلاغى أى المنطق الأدبى أو الفنى .
ولقد كان هذا الصنيع من القرآن محيرا للقدماء ذلك لأنهم مع وجود هذا الإيضاح البلاغى لم يفسروا هذه الظاهره على أساس من المنطق الأدبى وإنما فسروها على أساس المنطق العقلى أو المنطق التاريخى ومن هنا وقعوا فى المآزق وعانوا كثيرا من المشكلات . ومن ذلك موقفهم من قصه عيسى فى آخر سورة المائده وهى قوله تعالى « وإذ قال الله ياعسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم مافى نفسك إنك أنت علام الغيوب ماقلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم . »(٢)

فقد وقفوا عند هذه المحاورة ليفسروها على أساس الدلالة اللغوية والمعانى الأولى فجعلوها من المنطق التاريخى ومن هنا أخذوا يسألون أنفسهم متى وقعت هذه المحاورة فذهب قوم إلى أنها كانت عند رفع عيسى عليه السلام الى السماء وذلك تمشياً مع التعبير بصيغة الماضى وذهب آخرون إلى أنها لم تقع بعد وإلى أنها ستكون يوم القيامة بدليل قوله

(١) المثل السائر ص ١٧٣
(٢) المائده ١١٦ — ١١٨

تعالى بعدها هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم إذ هو وصف ليوم القيامة وذلك واضح فى النيسابورى .

والسبب فى هذا أنهم فهموا من الآية المعانى الأولى كما يقول البلاغيون فجعلوها من المنطق العقلى ومن هنا حاولوا معرفة الوقت الذى حدثت أو ستحدث فيه هذه المحاورة بين عيسى عليه السلام والخالق سبحانه وتعالى ولو أنهم ذكروا وجه المسألة وقدروا أن المراد منها المعانى الثانية وهى المعانى الأدبية أو الفنية لوضعوها على أساس من المنطق الأدبى منطق العاطفة والوجدان وبحثوا عن القصد الذى يرمى اليه القرآن وأنه ليس الاخبار بما سيحدث يوم القيامة وإنما توبيخ النصارى الموجودين فى زمن النبى وحضهم على التخلى عما يتمسكون به من عبادة عيسى عليه السلام .

إن المفسرين لو مضوا فى فهم المسألة على هذا الوجه لما وجدوا فيها شيئاً يسبب هذه المشكلة ويجعلهم يختلفون هذا الاختلاف . ولو فعلوا لما بقى عليهم إلا أن يعللوا لماذا جاءت هذه المحاورة بالصيغة الدالة على الوقوع وهو الأمر اليسير ذلك لأن القرآن يريد أن يأخذ على هؤلاء الطرق ويسد عليهم المسالك ومن هنا وضع المسألة موضع الأمر الواقع المفروغ منه حتى كأنه ليس محلا للشك فضلا عن الإنكار وذلك مما يزعزع عقيدتهم ويخوفهم من عذاب المنتقم الجبار . وإنى لا أرى مانعاً فى أن تكون هذه المحاورة مشبهة للمحاورة السابقة التى دارت بين المستضعفين والمستكبرين وبين المستكبرين والشيطان .

وإنى لأعتقد أيضاً أن مذهب القرآن فى تصوير مشاهد القيامة أو ما يستبعد وقوعه من المصائب والعذاب يعتمد فى الغالب على هذا الأسلوب أسلوب استعمال الصيغ الدالة على الوقوع ليقضى على ما فى النفس العربية

من شك أو إنكار وهذا هو الواضح من أمثال هذه الآيات . اقتربت الساعة وانشق القمر . أتى أمر الله فلا تستعجلوه .

والذى نريد أن ننتهى اليه هنا هو أن القرآن وهو يعاجز معاجزة أدبية بلاغية كان فى قصصه وما اليه من وسائل التعبير الأدبى إنما يريد المعانى الثانية وأنه من هنا كان الأمر للمنطق الأدبى فى صيغ الأفعال المحددة للزمان وأنه من هنا أيضاً كان يخرج بها عن تلك الدلالة الزمنية التى هى المعانى الاولى الى الصور الأدبية التى تستثير العاطفة وتهز الوجدان ولذا لا نستطيع أن نحكم عليها بصدق عادى ولا بكذب عقلى . ومعنى كل هذا أن أسلوب القرآن فى عرض المواد القصصية الجزئية كان أسلوبا أدبياً يخضع لمنطق العاطفة والوجدان .

على أن هذا هو الأسلوب البيانى فى التعبير فالأديب المتفنن يريد وصف رجل بالشجاعة فيتجوز لذلك ويستعير ويكنى عن ذلك بما يشاء الله أن يكنى ولكل من هذه الألوان صيغه وعباراته وهى كلها صادقة فى تحقيق الغاية الأدبية فى وصف هذا الإنسان بالشجاعة وليست دالة على وقوع شىء من تلك الصور البيانية ولا توصف بصدق ولا كذب

وإذا كان هذا الأمر قد وقع قديما حينما ذهب بعض الأقدمين إلى أن الاستعارة أو التخييل كذب والكذب لا يجوز وقوعه فى القرآن فقد مضى ذلك الزمن وأصبحنا نرى وقوع الاستعارة والمبالغة واعترف بذلك علماء البيان ومضوا على أن هذه الأشياء البيانية من استعارة وتشبيه وكناية أبلغ من غيرها ومن هنا نراهم يقولون المجاز أبلغ من الحقيقة .

إن المهم فى هذه المسألة كما سنشرح ذلك فى القصة التمثيلية أن يعرف الاسلوب الذى يبنى عليه الأديب عباراته ومتى عرف ذلك له فلا صدق ولا كذب ولا خلافه من وجهه النظر الأدبية والبلاغة :

لقد تقرر أن القرآن انسانى العبارة بشرى الأسلوب جاء على سنن العرب فى بلاغتها وبيانها فهل بعد ذلك كله يأتى من يقول إن القرآن لا يفهم على هذه القواعد أو تلك الأساليب . ؟

إن المسألة فى القصة القرآنيه هى بعينها مسائل الصور البيانية من مجاز وتشبيه واستعارة وكتابة ، . . الخ وأنها من هنا لا توصف لا بتصديق ولا بتكذيب وانما هى العرض الأدبى الذى يهز العاطفة ويستثير الوجدان .

(٥) وهنا نعرض عليك صنيع القرآن فى العنصر القصصى الواحد حين يختلف وصفه فى الأقاصيص المختلفة التى تدور حول شخصية واحدة فيختلف منها البناء والتركيب وطريقة العرض باختلاف القصد والغرض وظروف البيئة وتقلبات الزمن . اقرأ معى هذه الآيات . —

قال تعالى « وما تلك بيمينك يا موسى قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى قال ألقها ياموسى فألقاها فإذا هى حية تسعى قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى لنريك من آياتنا الكبرى . [١] »

ويعلق الزمخشرى على هذه الآيات عند تفسيره لها بقوله « فان قلت كيف ذكرت بألفاظ مختلفة بالحيه والجان والثعبان . قلت أما الحية فاسم جنس يقع على الذكر والأنثى والصغير والكبير وأما الثعبان والجان فبينهما تناف لأن الثعبان العظيم من الحيات والجان الدقيق وفى ذلك وجهان

(١) طه ٦٧ — ٢٣

أحدهما أنها كانت وقت انقلابها حيه حلا بها تنقلب حية صفراء دقيقة ثم تتورم ويتزايد جرمها حتى تصير ثعبانا فأريد بالجان أول حالها وبالثعبان مآلها . والثانى أنها كانت فى شخص الثعبان وسرعة حركة الجان والدليل عليه قوله فلما رآها تهتز كأنها جان وقيل كان لها عرف كعرف الفرس قيل كان بين لحييها أربعون ذراعا [١] : »

وقبل أن نفسر هذه المسألة وندلك على ما بيننا وبين صاحب الكشاف من خلاف نحب أن نعرض عليك هذا العنصر القصصى الذى ورد بألفاظ مختلفة فى سور مختلفة لنصل الى الوجه الحق فى تفسير هذه الظاهرة .

قال تعالى « قال لئن اتخذت آلها غيرى لأجعلنك من المسجونين قال أو لو جئتك بشىء مبين قال فأت به إن كنت من الصادقين فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم [٢] . »

وقال تعالى « فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا فلما آتاها نودى من شاطىء الواد الأيمن فى البقعة المباركة من الشجره أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين أسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم اليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملائه انهم كانو قوما فاسقين قال رب إنى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون . . . الخ [٣] . »

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٢٢
(٢) الشعراء ٢٩ — ٣٤
(٣) القصص ٢٩ — ٣٣

ونحب هنا أن نلفت الذهن إلى أن الزمخشرى قد أبعد حين أدخل قوله تعالى « فإذا هى ثعبان مبين . » فى الموضوع . ذلك لأن هذه عنصر آخر فى تصور موقفا غير ذلك الذى يصور فى الموقفين السابقين فمسألة انقلاب العصا ثعبانا كانت بمحضر من فرعون حين طلب البينة من موسى . ومسألة انقلابها حية أو اهتزازها كالجان كانت بين يدى الخالق سبحانه وتعالى وحدثت حين رأى موسى النار بعد إذ سار باهله وهذا يجعل المسالة قابلة للاختلاف فى التصوير :

وقد أبعد صاحب الكشاف أيضا فيما ذهب إليه من رأى ذلك لأن اختيار الألفاظ لا يقوم إلا على اعتبار بلاغى عاطفى ومن هنا لم يحل الرأى الذى ذهب إليه المشكلة اذ يبقى بعد ذلك .- على فرض الترادف — سؤال ما السر البلاغى فى اختيار هذا اللفظ هنا وذلك اللفظ هناك ؟

إن الرأى فيما أعتقد هو أن الصورة التى يرسمها القرآن من سورة القصص صورة يشيع فيها الخوف من كل جانب وهو خوف قاتل وقد كان اللفظ الذى يلائم هذا الخوف ويجعل موسى يفر من الميدان هو أن يحضر اللفظ فى الذهن صورة لشىء مخيف مرعب ومن هنا جاء لفظ الجان وفرق كبير بين الحية وبين الجان . إن الأولى لا تدفع الإنسان إلى أن يولى مدبراً حتما وإن الذى يدفع الى ذلك حتما هو الجان .

أما قصة طه فقد نزلت تسلية للنبى عليه السلام وتسرية عنه وإزالة لما بنفسه من هم وقلق ومن هنا قال تعالى فى أول السورة « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » ولذا كان عرض المسائل فى هذه القصة عرضا هينا لينا يدفع الى النفس الثقة والطمأنينة ويدفع عنها الهم والحزن ومن هنا كانت لفظة الحية أليق بالمقام .

ونستطيع هنا أن نعلل لماذا كانت العصا فى سورة الشعراء هى الثعبان المبين إن الأمر يسير فيما نعتقد فالموقف موقف تحير وطلب بينه ومن هنا كان لا بد للعصا من أن تكون ثعبانا ولا بد للثعبان من أن يكون مبينا ليسهل الاقناع .

وهكذا ترى أن العنصر القصصى الواحد يعرض فى صور مختلفة مناسبة للسياق ويلحظ فيها القصد والغرض تحقيقاً للمنطق العاطفى . ومعنى ذلك أن القرآن يصور التصوير الأدبى لا التصوير التعليمى التاريخى وليس بعد ذلك من دلالة على أن القصة التاريخية فى القرآن قصة أدبية .

***

(٦) على أنا نستطيع أن نمعن فى الدلالة على أن القصة التاريخية فى القرآن قصة أدبية يعتمد فيها القرآن على تصوير الأحداث كما يعتقدها المخاطبون وهو الأمر الذى أجازه بعض القدماء بل رآه بعضهم أمرا لا بد من القول به ليسلم القرآن من المطاعن ويستقيم الأسلوب الأدبى فى قصص القرآن الكريم .

إقرأ معى هذه الأجزاء القصصية من سورة الكهف :

(١) قال تعالى من قصة أصحاب الكهف «وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا أبنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب يقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحدا ولا تقولن

لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدينى ربى لأقرب من هذا رشدا ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض أبصر به وأسمع ما لهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحدا [١] » .

(ب) وقال تعالى « ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سببا فاتبع سببا حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ووجد عندها قوماً قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا ثم أتبع سبباً حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا ثم أتبع سبباً . . . الخ [٢] » .

وفكر معى فى صنيع الأقدمين .

أما صنيعهم فى القصة الأولى قصة أصحاب الكهف فأمر هين يسير ذلك لأن بعضهم قد رأى فيما يروى الطبرى أن القرآن الكريم يصور فى هذه المسائل التى سئل عنها النبى عليه السلام آراء أهل الكتاب فيها ومن هنا كان القرآن يذكر هذه العبارات التى تدل على ذلك من أمثال قوله تعالى قل ربى أعلم بعدتهم وقل الله أعلم بما لبثوا . ومن هنا أيضا طلب القرآن إلى النبى عليه السلام ألا يمارى فيهم وألا يستفتى فيهم أحدا .

---

(١) الكهف ٢١ ـ ١٦

(٢) الكهف ٨٣ ـ ٩٨

جاء فى الطبرى بصدد حديثه عن عدد الفتيه مايلى « قل ربى أعلم بعدتهم يقول عز ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم قل يامحمد لقائلى هذه الأقوال فى عدد الفتيه من أصحاب الكهف رجما منهم بالغيب ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم يقول ما يعلم عددهم إلا قليل من خلقه كما حدثنا . . . قوله ولا تستفت فيهم منهم أحدا يقول تعالى ذكره ولا تستفت فى عدة الفتيه من أصحاب الكهف منهم يعنى من أهل الكتاب أحدا لأنهم لا يعلمون عدتهم وإنما يقولون فيهم رجما بالغيب لا يقينا من القول » (١)

وجاء فى الطبرى بصدد حديثه عن المده « ولبثوا . . الخ اختلف أهل التأويل فى معنى قوله ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائه سنين وازدادوا تسعا فقال بعضهم ذلك خبرا من الله تعالى ذكره عن أهل الكتاب أنهم يقولون ذلك كذلك واستشهدوا على صحة قولهم ذلك بقوله قل الله أعلم بما لبثوا وقالوا لوكان ذلك خبرا من الله عن قدر لبثهم فى الكهف لم يكن لقوله قل الله أعلم بما لبثوا وجه مفهوم وقد أعلم الله خلقه مبلغ لبثهم فيه وقدره . ذكر من قال ذلك ... »

وهكذا ترى أن من الأقدمين من أجاز أن تكون هذه الصور التاريخيه صورا لما يعرفه أهل الكتاب عن قصة أصحاب الكهف ومعنى ذلك أن القرآن الكريم يصور فى بعض قصصه اعتقاد المعاصرين أو المخاطبين .

وهذا الرأى هو الذى اعتمد عليه الإستاذ الفاضل الشيخ عبد الوهاب النجار فى رده على المستشرقين الذين كتبوا مادة أصحاب الكهف من دائرة المعارف الاسلاميه فقـــد قال رحمه الله « الذى ألاحظه أن عبارة دائرة

---

(١) الطبرى جـ ١٥ ص ١٥٢

المعارف الإسلاميه كعبارة أكثر المفسرين تعتبر أن قوله تعالى ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادو تسعا خبر عن مدة مكث أهل الكهف فى كهفهم منذ دخلوه إلى أن استيقظوا . ولكنى أفهم غير ذلك وأقول إن قوله ولبثوا الخ معمول لقوله سيقولون ثلاثمائة الخ فهو من مقول السائلين وليس خبرا من الله تعالى ولذا أتبع ذلك القول بقوله قل الله أعلم بعدتهم مايعلمهم إلا قليل .

وعلى ذلك فالقرآن لم ينص على عدد أهل الكهف ولا على المدة التى مكثوها فيه قبل أن يعثر عليهم بل أمر الله رسوله أن يقول عن عددهم ربى أعلم بعدتهم وأن يرد عليهم حين يقولون ولبثوا فى كهفهم . . . الخ بقوله الله أعلم بما لبثوا وقد ورد هذا القول عن ابن عباس . »[١]

وأعتقد أن السر فى هذه المسألة واضح بيّن فالقوم يسألون النبى عن العدد وعن المدة وقد جعلوا آراء اليهود مقياساً يقيسون به صدق النبى عليه السلام ولو نزل القرآن بغير هذه الآراء وبخلاف هذا المقياس لكذبوا النبى ولما آمنوا به أو بالقرآن .

إن إخبار القرآن بهذه الآراء هو الدليل على أن الوحى ينزل على النبى عليه السلام من السماء ومن هنا كانت أمثال العبارات السابقة . رجما بالغيب قل ربى أعلم بعدتهم . قل الله اعلم بما لبثوا . أمراً واجباً إذ لولاها لآمن الناس بأن هذا هو رأى القرآن فى المسألة وعندئذ تقوم هذه المشكلات التى أوردها المستشرقون إعتراضاً على القرآن ودافع عن القرآن الأستاذ الفاضل الشيخ عبد الوهاب النجار .

---

(١) مادة أصحاب الكهف دائرة المعارف الاسلامية الترجمة العربية

ليس من شك فى أن الله سبحانه وتعالى قد أراد بالعدول عن الاخبار الصحيحة أمرا وليس هذا الأمر فيما نرى إلا صدق النبي عليه السلام والدلالة على أن الوحى ينزل عليه من السماء وأنه هو الذى أخبر النبي عليه السلام عما قاله اليهود للمشركين من قريش .

على أن هذا الأمر الذى أجازه المفسرون فيما يخص قصة أصحاب الكهف يصبح ضرورة من الضرورات الواجبة التصديق فى قصة ذى القرنين .

إن صنيع القرآن وموقف بعض المفسرين يكشف عن هذه الظاهرة كشفا واضحا ويدفعنا إلى تفسيرها تفسيرا معقولا ويجعلنا نجزم بأن صنيع القرآن لم يكن إلا الصنيع الأدبى الذى يقوم على الدلالات التى يعتقدها المخاطب .

جاء فى الرازى بصدد حديثه عن قصة ذى القرنين ما يلى « أعلم أن المعنى أنه أراد بلوغ المغرب فاتبع سببا يوصله اليه حتى بلغه . أما قوله وجدها تغرب فى عين حمئة ففيه مباحث . الأول قرأ ابن عامر وحمزة والكسائى وأبو بكر عن عاصم فى عين حامية بالألف من غير همزة أى حارة . وعن أبى ذر قال كنت رديف رسول الله صلى عليه وسلم على جمل فرأى الشمس حين غابت فقال أتدرى يا أبا ذر أين تغرب هذه قلت الله ورسوله أعلم قال فإنها تغرب فى عين حاميه . وهى قراءة ابن مسعود وطلحه وابن عامر والباقون حمئه وهى قراءة ابن عباس .

واتفق أن ابن عباس كان عند معاوية فقرأ معاوية حامية بألف فقال ابن عباس حمئه فقال معاوية لعبد الله بن عمر كيف تقرأ قال كما يقرأ أمير

المؤمنين . ثم وجه الى كعب الأحبار كيف تجد الشمس تغرب قال فى ماء وطين كذلك نجده فى التوراه .

والحمئة ما فيه ماء وحمأة سوداء . وأعلم أنه لا تنافى بين الحمئة والحامية فجائز أن تكون العين جامعة للوصفين جميعا .

البحث الثانى — أنه ثبت بالدليل أن الأرض كرة وأن السماء محيطة بها ولا شك أن الشمس فى الفلك وأيضاً قال ووجد عندها قوما ومعلوم أن جلوس قوم فى قرب الشمس غير موجودو أيضا الشمس أكبر من الأرض بمرات كثيرة فكيف يعقل دخولها فى عين من عيون الأرض .

إذا ثبت هذا فنقول تأويل قوله تغرب فى عين حمئة من وجوه .

الأول — أن ذا القرنين لما بلغ موضعها فى المغرب ولم يبق بعده شيء من العمارات وجد الشمس كأنها تغرب فى عين وهذه مظلمة وإن لم تكن كذلك فى الحقيقه كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب فى البحر إذا لم ير الشط وهى فى الحقيقه تغيب وراء البحر .

هذا هو التأويل الذى ذكره أبو على الجبائى فى تفسيره .

الثانى — أن للجانب الغربى من الأرض مساكن يحيط البحر بها فالناظر إلى الشمس يتخيل كأنها تغيب فى تلك البحار ولا شك أن البحار الغربية قوية السخونة فهى حامية وهى أيضا حمئة لكثرة ما فيها من الحمأة السوداء والماء فقوله تغرب فى عين حمئة إشارة إلى أن الجانب الغربى من الأرض قد أحاط به البحر وهو موضع شديد السخونة .

الثالث — قال أهل الأخبار إن الشمس تغيب فى عين كثيرة الماء والحمأة وهذا فى غاية البعد وذلك لأنا إذا أرصدنا كسوفا قمرياً فإذا اعتبرناه

ورأينا أن المغربيين قالوا حصل هذا الكسوف فى أول الليل ورأينا المشرقيين قالوا حصل فى أول النهار فعلمنا أول الليل عند أهل المغرب هو أول النهار الثانى عند أهل المشرق بل ذلك الوقت الذى هو أول الليل عندنا فهو وقت العصر فى بلد ووقت الظهر فى بلد آخر ووقت الضحوة فى بلد ثالث ووقت طلوع الشمس فى بلد رابع ونصف الليل فى بلد خامس وإذا كانت هذه الأحوال معلومة بعد الاستقرار والاعتبار وعلمنا أن الشمس طالعة ظاهرة فى كل هذه الأوقات كان الذى يقال إنها تغيب فى الطين والحمأة كلاما على خلاف اليقين وكلام الله تعالى مبرأ عن هذه التهمة فلم يبق إلا أن يصار الى التأويل الذى ذكرناه [1] » .

وواضح من هذا النص أن الرازى يرى أن التأويل فى هذه المسألة من الأمور الضرورية ليبرأ كلام الله من أن يكون على خلاف اليقين . كما يرى ذلك أيضاً كل من النيسابورى وأبى حيان فى تفسيرهم لهذه القصة .

ونحن مع اتفاقنا معهم فى أن هذا الحديث لا يصور حقائق تاريخية ومع احترامنا لكل ما ذكروه من تأويل لهذه القصة نختلف وإياهم ونرى أن المسألة لا تحتاج إلى هذا اللون أو ذلك من التأويل .

إن القرآن لم يصنع هنا إلا ما صنعه فى القصة السابقة قصة أصحاب الكهف من تصويره لما يعرفه أهل الكتاب عن الإسكندر أو ذى القرنين ولما قالوه لوفد قريش ولعل تاريخ المسألة فى كتب التفسير يكشف لنا عن الحل

---

(١) التفسير الكبير ج ٥ ص ٥٠٥ وما بعدها .

ينتهى الطبرى كما ينتهى صاحب الكشاف من بعده إلى أن الشمس تغرب فى عين ويوفق الطبرى كما يوفق الزمخشرى من بعد بين القراءتين وينتهى المفسران من كل هذا إلى أنه لا مانع من أن تجمع العين بين الصفتين فتكون حمئة وحاميه ثم يقفان عند هذا الحد ولا يصيران إلى التأويل كما صار اليه الرازى . بل هما يرويان الحديث السابق حديث أبي ذر والخبر السابق خبر كعب الأحبار .

وعلى الجملة فهما يقفان عند الحد الذى وقف عنده الرازى فى المبحث الأول . ومعنى كل هذا أن هؤلاء لم يأخذوا المسألة على أنها التعبير الأدبى البلاغى وإنما أخذوها على أنها الحقائق الكونية التاريخية .

إن الرأى الواضح فى هذه المسألة هو أن هؤلاء الأعلام لم يعرفوا ما عرفه الرازى عن حقيقة الشمس والأرض وبقية الكواكب وأنهم ما كانوا يعرفون إلا تلك الحقائق المروية عن غروب الشمس وأنهم من أجل ذلك لم يجدوا ضرورة ملجئة تصرفهم عن هذا الفهم وتضطرهم إلى التأويل ،

إن الذى دفع المتأخرين من أمثال الرازى إلى هذا التأويل إنما هو الكشف العلمى عن الكون وحقائقه والتاريخ ووقائعه . وإن تاريخ المسألة فى حياة النبى عليه السلام وموقف المشركين واليهود منه وتوجيههم إليه الأسئلة على أن تكون الإجابة كما يعرفون هو الذى يضطرنا إلى أن نذهب إلى ما ذهبنا إليه من أن هذه القصة تصور المعارف التاريخية والكونية عند أهل الكتاب وعند المشركين من الذين يعاصرون النبى . وإن تاريخ المسالة فى كتب التفسير القديمة كالطبرى والكشاف ووقوفهم عند أمثال هذه الحقائق التى تروى عن النبى عليه السلام وعن كعب الأحبار تدل على ان هذا الرأى هو الرأى السائد فى هذا المجال :

ثم إن موقف بعض أعلام التفسير من القصة السابقة قصة أصحاب الكهف ودلالتهم على أنها تصور معلومات أهل الكتاب عنهم تؤيد هذا الذى ذهبنا إليه فى قصة ذى القرنين .

إن التأويل كان أمرا ضروريا وواجبا دينيا عندالرازى ومن جاء بعده لأن الكشف العلمى هو الذى اضطرهم إلى هذا .

وإن تاريخ المسألة يدل على أنا لا نحتاج إلى مثل هذا التأويل إذا فهمنا القصة على حقيقتها وعرفنا القصد الذى يرمى إليه القرآن وهو أن محمدا عليه السلام نبى وينزل عليه الوحى وأنه الذى أخبره بالأجابة عن تلك الأسئلة التى وجهت إليه من مشركى مكة وأن هذه الأجابه قد وردت كما أخبر اليهود أهل مكة .

وإذا كان القرآن يعرض الأمور التاريخية فى بعض الأحيان على هذا الوجه الذى وصفنا من مجيئها مطابقة لاعتقاد المخاطب وأنه الأمر الذى يخرجنا من الميدان التاريخى عند ما لا يكون القصد البحث عن الحقيقة التاريخية ويدخلنا فى ميدان الأدب والبلاغة لأن القصد ليس إلا الإيحاء والتأثير واستثارة العاطفة والوجدان .

إن القصة التاريخية فى هذا اللون قصة أدبية مافى ذلك شك أو جدال .

(٧) وهناك أمور أخرى تدل على أن صنيع القرآن فى قصصه التاريخى ليس إلا الصنيع الأدبى وذلك من أمثال .

(ا) الجمع بين العناصر التى باعد بينها الزمن لا فى حياة الرسول الواحد كما سبق أن بينا فى أول هذا الفصل عند حديثنا عن الأخبار أو الذكر

والحذف بل فى حياة الأمة الواحده كأمة بنى إسرائيل أو فى حياة البشرية كما هو الحال فى قصة ابنى آدم .

جاء فى النيسابورى مايلى « الصفه الرابعة الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والأنجيل . الضمير فى يجدونه للذين يتبعونه من بنى إسرائيل . ثم إن كان المراد أسلافهم فالوجه أن يراد بالاتباع إعتقاد نبوته من حيث وجدوا نعته فى التوراة إذ لا يمكن أن يتبعوه فى شرائعه قبل بعثه إلى الخلق ويكون المراد من قوله والإنجيل أنهم يجدون نعته مكتوبا عندهم فى الإنجيل فمن المحال أن يجدوه فى الإنجيل قبل أنزال الإنجيل . وإن كان المراد المعاصرين فالمعنى أن هذه الرحمة لا يفوز بها من بنى إسرائيل إلى من اتقى وآتى الزكاة وآمن بالدلائل فى زمن موسى واتبع نبى آخر الزمان فى شرائعه . »

إذ نلحظ هنا أن القرآن قد جمع بين عناصر متباعدة من حياة أمة بنى إسرائيل فى قصة واحدة فهم يجدونه مكتوبا فى التوراة ويجدونه مكتوبا فى الإنجيل ومطلوب منهم الإيمان به وهو سيأتى بعد مدة طويلة من الزمن . وكل هذا يقال على فرض أن هذا الخطاب لمن يعاصر موسى عليه السلام .

وعلى فرض أن الخطاب لمعاصرى محمد عليه السلام فإن المسأله لا تزال قائمة لأن المعنى كما يقول النيسابورى أنه لا يفوز بهذه الرحمة من بنى إسرائيل إلا من أتقى وآتى الزكاة وآمن بالدلائل فى زمن موسى ثم أتبع نبى آخر الزمان فى شرائعه وهو بهذا يجمع بين أمور خاطب بها المولى موسى عليه السلام وامتدت إلى زمن محمد عليه السلام .

---

(١) النيسابورى جـ ٩ ص ٥٦

وجاء فى البحر المحيط بصدد حديثه عن قصة ابنى آدم مايلى « وقال الحسن لم يكونا ولديه وإنما هما أخوان من بنى إسرائيل قال لأن القربان إنما كان مشروعا فى بنى إسرائيل ولم يكن قبل ووهم الحسن فى ذلك وقيل عليه كيف يجهل الدفن فى بنى إسرائيل حتى يقتدى فيه بالغراب . » (١)

وأحب أن نلتفت سويا إلى التعليل وإلى الاعتراض ذلك لأن التعليل يقوم على أساس من تاريخ التشريع وهو أن القربان إنما شرع فى بنى إسرائيل . أما الأعتراض فيقوم على أساس آخر من تاريخ العادات أو العقل البشرى وهو كيف يظل دفن الميت مجهولا حتى يصل الزمن من آدم إلى بنى إسرئيل وحتى يقتدى أبناء إسرائيل فى ذلك بالغراب .

لقد تعارضت النظريات وحاول المفسر أن يرجح واحدة ولو فكر تفكيرا بلاغيا أدبيا لوضع المسألة وضعا آخر وفكر فيها على أساس من القريب أن يكون سليما وهو أن القرآن قد جمع بين مواد قصصية متباعدة فى الزمن لأنه يقصد التصوير والتمثيل وأنه من أجل ذلك جمع بين تقديم القربان وبين ما ترتب عليه من حسد وما أدّى إليه هذا الحسد من قتل ثم من بعث الغراب ليريه كيف يدفن أخاه .

إن المسألة ترجع فيما أعتقد إلى طريقة القرآن فى اختيار مواده القصصية وفى عمليـــة الربط بينها تلك العملية التى تقوم على أساس أدبى عاطفى حتى ولو باعد الزمن فيما بينها .

(ب) إنطاق الأشخاص بما لم ينطقوا به مراعاة لأمور اعتباريه وذلك هو الأمر الذى أجازه كثير من أئمة التفسير .

---

(١) البحر المحيط جـ ٣ ص ٤٦٠

جاء فى الكشاف عند تفسيره لقوله تعالى « وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله » فإن قلت كانوا كافرين بعيسى عليه السلام اعداء له عامدين لقتله يسمونه الساحر ابن الساحره والفاعل ابن الفاعله فكيف قالوا إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله . قلت قالوه على وجه الاستهزاء كقول فرعون إن رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون . ويجوز أن يضع الله الذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح فى الحكاية عنهم رفعا لعيسى عما كانوا يذكرونه به وتعظيما لما أرادوا بمثله كقوله ليقولن خلقهن العزيز العليم الذى جعل لكم الأرض مهدا (١) . »

فصاحب الكشاف يجبز هنا أن يضع الله الذكر الحسن على ألسنة القوم بدلا من الذكر القبيح ويضرب لنا الزمخشرى المثل بما قاله القرآن على ألسنة اليهود خاصا بعيسى عليه السلام وبما قاله القرآن على ألسنة المشركين خاصا بالخالق سبحانه وتعالى .

وهذا الذى يجيزه الزمخشرى فى هذه الآيه يجيزه أيضا كل من الرازى والنيسابورى وأبى حيان . بل وقف عنده ابن عطية فيما روى أبو حيان . جاء فى البحر المحيط لأبى حيان مايلى « ذكر الوجهين الزمخشرى ولم يذكر ابن عطية سوى الثانى (٢) . »

وليس من شك فى أن هذه العمليـة عملية إنطاق الأشخاص بما لم ينطقوا به لاعتبارات يراها الخالق جل وعلا تدل على أن القصص القرآنى عرض أدبى للأحداث والأقوال وليس عرضا تاريخيا لها . ومعنى ذلك أن القصة فى القرآن عمل أدبى فنى .

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٢٨١

(٢) البحر المحيط جـ ٣ ص ٣٨٩

(ج) إسناده الأحداث لأشخاص بأعيانهم فى موطن ثم إسنادة نفس الأحداث لغير الأشخاص فى موطن آخر وذلك هو الأمر الذى فطن إلى بعض صوره القدماء .

جاء فى كتاب درة التنزيل ما يلى « للسائل أن يسأل فى هذه القصه عن مسائل أولها قوله فى سورة الأعراف قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم ثم قال فى سورة الشعراء قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم فأخبر فى الأول أن قائل ذلك الملأ من قومه وفى الثانية أن فرعون هو القائل ذلك لملائه وهذا اختلاف ظاهر فى الخبرين . » (١)

وهذه الظاهرة واضحة كل الوضوح فى قصة ابراهيم عليه السلام إذ نلحظ فيها أن البشرى بالغلام والحوار مع الملائكة والعجب من الولادة وإبراهيم شيخ وامرأته عجوز كانت فى سورة هود مع امرأة إبراهيم وفى سورة الحجر مع إبراهيم نفسه .

بل نلحظ فى سورة الزاريات أمرا آخر هو أن البشرى بالغلام كانت لإبراهيم وأن الحوار مع الملائكة كان مع زوجته .

وكل هذه الظواهر تدل دلالة قاطعة على أن القرآن يعرض عن الأساليب التاريخية وأنه يعتمد كل الإعتماد على الأساليب الأدبية والوسائل الفنية أو البلاغية .

وأعتقد أن ماعرضناه عليك من ظواهر أدبية فى القصص القرآنى وما فسرناها به من تفسيرات بيانية عاطفية قد جعلاك تطمئن إلى ما وصلنا

---

(١) دورة التنزيل ص ١٤٥

إليه من نتائج .

والآن نستطيع أن نترك ذلك اللون القصصى « القصة التاريخية » من ألوان القصص القرآنى على أنها الصنيع الأدبى الذى يحقق صورة من صور تعريف القصة عند الأدباء .

هذه الصورة هى « القصة هى ذلك العمل الأدبى الذى يكون نتيجة تصوير القاص لأحداث وقعت من بطل له وجود لكنها نظمت على أساس أدبى أو عاطفى فقدم بعضها وأخر آخر وحذف بعضها وذكر بعض آخر أو بولغ فى تصويرها إلى الحد الذى يستأثر بعواطف القارىء أو السامع .

وهكذا نستطيع أن نتفق جميعا وألا يشذ واحد فينكر وجود القصة التاريخية الأدبية فى القرآن أو ينكر أن المنطق الأدبى هو الذى يسود القصة التاريخية فى القرآن وإلا عز عليه أن يجد بيانا مقبولا لصنيع القرآن.

إن القرآن يجعل القصد من قصصه العظة والعبره ويصل إليها بالأسلوب الذى يختاره وهو الأسلوب الأدبى الذى صورنا لك بعض ظواهره فيما مضى والذى سنصور لك ما بقى من ظواهره فى الفصول أو الفقرات المقبله من هذا البحث إن شاء الله .

وننتقل الآن إلى لون آخر من الوان القصص الأدبى فى القرآن الكريم وهو : —

٢ ـ القصة التمثيلية

والقصة التمثيلية وهى القصة التى تضرب مثلا أو تجىء تمثيلا موجودة فى القرآن الكريم وهى قصة فنية. بل هى عند المفسرين أدخل فى باب الفن والأدب من القصة التاريخيه ذلك لأن المفسرين لم يعرفوا عن القصة التاريخية إلا أنها القصة التى تصور الحق والواقع من مسائل التاريخ وقضاياه فالأحداث التى تصورها القصة قد وقعت حقا والحوار قد صدر والأشخاص الذين ترسمهم القصه قد وجدوا حقا وصدر عنهم كل ماينسب إليهم من أقوال وأفعال. كل ذلك قد كان لازيادة فيه ولا نقصان ومن هنا كانت القصة التاريخية مصدرا من مصادر التاريخ عند هؤلاء. ومن هنا أيضا كانت هذه المشكلات الكثيره التى وقفوا عندها طويلا والتى لم يستطيعوا لها حلا إلا على ضروب من التأويل وإلا بالرجوع إلى المذهب الأدبى فى فهم قصص القرآن الكريم.

هذا مايعرفه المفسرون عن القصة التاريخية أما ما يعرفونه عن القصة التمثيلية فأكثر وأدخل فى باب الفن الأدبى.

يعرفون عن القصة التمثيلية أنها من التمثيل والتمثيل ضرب من ضروب البلاغة وفن من فنون البيان. والبيان العربى ايقوم على الحق والواقع كما يقوم على العرف والخيال فليس يلزم فى الأحداث أن تكون قد وقعت وليس يلزم فى الأشخاص أن يكونوا قد وجدوا وليس يلزم فى الحوار أن يكون

قد صدر وإنما قد يكتفى فى كل ذلك أو فى بعض ذلك بالفرض والخيال ومن هنا كانت القصة التمثيلية عند المفسرين قصة بيانية أى قصة فنية .

وتفسير المفسرين للقصة التمثيلية فى القرآن يشعرنا أيضا بأنهم يعرفون عنها أنها من القصص الفنى ذلك لأنهم ربطوا بينها وبين الفن القصصى بأكثر من رباط فالمعانى والتيارات الفكرية والخلقية لا تستقر فى التمثيل إلا على ذلك النحو الذى تستقر فيه فى القصة الفنية ولا تلتمس منه إلا كما تلتمس منها . والتماس هذه المعانى وهذه التيارات من التمثيل يحتاج فيما يرى الزمخشرى إلى نوع من الدربة والمران وإلا زلت الأقدام وضلت الأفهام . ويرى الزمخشرى أيضاً أن كثيرين ممن ذهبوا إلى عد التمثيليات من كلام الله وكلام الأنبياء من المتشابه إنما ذهبوا إلى ما ذهبوا إليه بسبب عجزهم عن فهم التمثيل وكيفية استخراج المعانى منه . ولعل أقوال الزمخشرى تفسر لنا بعض الشىء لماذا ذهب المفسرون إلى عد القصص القرآنى من المتشابه :

القصة التمثيلية قصة فنية هذا ما يقرره الأقدمون ويشهد به الواقع وهذا هو الذى نريد أن نستعرضه سويا من النصوص التالية .

لنقرأ سويا هذه القصة .

قال تعالى « وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داوود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داوود أنما فتناه

فاستغفر ربه وخر راكعـــا وأناب فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب [١] . »

ثم اقرأ معى هذه النصوص .

جاء فى الـكشاف ما يلى « فإن قلت ما معنى ذكر النعاج قلت كان تحاكمهم فى نفسه تمثيلا وكلامهم تمثيلا لأن التمثيل أبلغ فى التوبيخ لما ذكرنا وللتنبيه على أمر يستحيا من كشفه فيكـنّى عنه كما يكنى عما يستسمج الافصاح به . . فإن قلت الملائكة عليهم السلام كيف صح منهم أن يخبروا عن أنفسهم بما لم يلتبسوا منـه بقليل ولا كثير ولا هو من شأنهم قلت هو تصوير للمسألة وفرض لهـا فصوروها فى أنفسهم وكانوا فى صورة الأناسى كما تقول فى تصوير المسألة زيد له أربعون شاه وعمرو له أربعون وأنت تشير إليهما خلطاها وحال عليها الحول كم يجب فيهـــا وما لزيد وعمرو سبد ولا لبد . وتقول أيضا فى تصويرها لى أربعون شاه ولك أربعون خلطناها وما لكما من الأربعين أربعة ولا ربعها [٢] . »

وجاء فى الرازى ما يلى « المسألة الثانية ها هنا قولان . الأول أنهما كانا ملـكين نزلا من السماء وأرادا تنبيه داوود عليه السلام على قبح العمل الذى أقدم عليه . والثانى . أنهما كانا انسانين ودخلا عليه للشر والقتل فظنا أنهما يجدانه خاليا فلما رأيا عنـده جماعه من الخـدم اختلقا ذلك الـكذب لدفع الشر .

---

(١) ص ٢١ — ٢٥

(٢) الـكشاف جـ ٢ ص ٢٨١

أما المنكرون لكونهما ملكين فقد احتجوا عليه بأنهما لو كانا ملكين لكانا كاذبين والكذب على الملك غير جائز لقوله تعالى «لا يسبقونه بالقول» ولقوله «ويفعلون ما يؤمرون».

أجاب الذاهبون إلى القول الأول عن هذا الكلام بأن قالوا إن الملكين إنما ذكرا هذا الكلام على سبيل ضرب المثل لا على سبيل التحقيق فلم يلزم الكذب (١).

وقال أبو السعود «بغى بعضنا على بعض هو على الفرض وقصد التعريض فلا كذب فيه (٢).

وجاء فى معالم التنزيل للبغوى ما يلى «فإن قيل كيف قال بغى بعضنا على بعض وهما ملكان لا يبغيان قيل معناه أرأيت خصمين بغى أحدهما على الآخر. وهذا من معاريض الكلام لا على تحقيق البغى من أحدهما . . . قال الحسين بن الفضل هذا تعريض للتنبيه والتفهيم لأنه لم يكن هناك نعاج ولا بغى فهو كقولهم ضرب زيد عمرا واشترى بكر دارا ولا ضرب هناك ولا شراء (٣)».

وجاء فى البحر المحيط لأبى حيان «والظاهر إبقاء لفظ النعجة على حقيقتها من كونها أنثى الضأن ولا يكنى بها عن المرأة ولا ضرورة تدعو إلى ذلك لأن ذلك الإخبار كان صادرا من الملائكة على سبيل التصوير

---

(١) التفسير الكبير ج ٧ ١٢٨

(٢) ابو السعود ج ٧ ص ٤٨٦

(٣) معالم التنزيل ج ٧ ص ١٩٠

للمسألة والفرض لها مرة غير تلبس بشىء منها فمثلوا بقصة رجل له نعجة ولخليطه تسع وتسعون فأراد صاحبه تتمة المائة فطمع فى نعجة خليطه وأراد انتزاعها منه وحاجه فى ذلك محاجة حريص على بلوغ مراده ويدل على ذلك قوله وإن كثيرا من الخلطاء وهـذا التصوير والتمثيل أبلغ فى المقصود وأدل على المراد (١) .

أعتقد أنك بعد هذا العرض الطويل للنصوص قد لاحظت الفرق بين المذهبين اللذين يشير إليهما الرازى وعرفت على أى أساس يقومان .

إن سر الاختلاف لا يقوم على التمثيل من حيث هو تمثيل ولا على أثره القوى فى النفس فكلهم يعترف بذلك حتى من يخشى منهم أن يكون التمثيل فى قصة الملكين كذبا .

جاء فى النيسابورى مايلى « ونحن نرى أن الانسان يذكر معنى فلا يلوح كما ينبغى فإذا ذكر المثال اتضح وانكشف وذلك أن من طبع الخيال حب المحاكاه فإذا ذكر المعنى وحده أدركه العقل ولكن مع منازعة الخيال وإذا ذكر التشبيه معه أدركه العقل مع معاونة الخيال ولا شك أن الثانى يكون أكمل . وإذا كان التمثيل يفيد زيادة البيان والوضوح وجب ذكره فى الكتاب الذى أنزل تبيانا لكل شىء . » (٢)

لا يرجع سر الإختلاف إذا إلى التمثيل من حيث هو تمثيل ولا إلى قوته وأثره النفسى فى العاطفة والوجدان وإنما يرجع إلى نظرية الأقدمين فى الصدق والكذب وإلى إيمانهم بمنطق العقل وحده وإهمالهم لما عداه حتى المنطق الأدبى منطق العاطفة والوجدان .

---

(١) البحر المحيط جـ ٧ ص ٣٩٢
(٢) غرائب القرآن جـ ١ ص ١٩٥

إن سر الإختلاف يرجع إلى أن بعضهم لا يعرف إلا الصدق العقلى وهو مطابقة القول للواقع وينكر أو ينسى ما عداه . ومن هنا رأى فى المعانى التى تجىء فى صورة التمثيل نوعا من الكذب لا يليق بالملائكة . أما البعض الآخر فقد وفق إلى الحقيقه الأدبيه واقترب من رأى المحدثين فى الصدق الفنى ومن هنا لم ينظروا إلى المسألة هذه النظرة القاصرة ولم يذهبوا إلى أن التمثيل كذب ومضوا على أنه تصوير للمسائل وفرض لها والتصوير للمسائل والفرض لها لا يعتبر من الكذب ومن هنا لم ير هؤلاء فى صنيع الملائكه شيئا من الكذب فى قليل أو كثير ومن هنا أصابوا التوفيق .

إن الأقدمين قد لمسوا الحقيقة الفنيه أو الأدبية حين عرفوا الصدق فى كتب البلاغة وحين اختلفوا فى هذا التعريف ولقد أضروا بالدراسة الأدبية حين وقفوا عند الصدق المنطقى ورجحوا التعريف القائل بأن الصدق مطابقة القول للواقع ذلك لأنهم بهذا التعريف قد دفعوا غيرهم من المفسرين ورجال الدين إلى إنكار وجود القياس الشعرى والحقيقة الفنية فى كل من القرآن الكريم وفى كلام الأنبياء .

إنا نؤمن بالحقيقة الأدبية كما نؤمن بالحقيقة العقلية ونعرف الصدق الفنى كما نعرف الصدق العقلى وإذا كان الثانى هو مطابقة القول للواقع فأن الأول هو الصدق فى تصوير ما يخلقه الوجدان أو يخترعه الخيال هو الصدق فى الترجمة عما بالنفس من رأى أو فكرة أو عاطفة أو إحساس . وإذا كان لا بد من قول قديم نستند اليه فهو مطابقة القول للاعتقاد .

إن هده المسألة مسألة الصدق الفنى لا تمس التمثيل وحدة وإنما تمس غيره من أمور بلاغية أو بيانية كالمبالغة والغلو والأغراق ويعجبنى فى هذا الموقف رأى لابن قتيبة ذكره فى كتاب الأشربه وأعتقد أنه يحل إلى حد ما هذا الأشكال .

قال رحمه الله « وقال لنا إسحاق عيب وكيع بقوله هو أحل من الماء لأنه إن كان حلالا وهو بمنزله الماء فكيف جعله أحل منه ونحن نقول إنه ليس يلحق وكيعا فى هذا الموضع عيب ولا يرجع عليه منه عتب لأن كلمته خرجت مخرج كلام العرب فى مبالغتهم فى الوصف واستقصائهم بالمدح والذم يقولون هو أشهر من الصبح وأسرع من البرق وأبعد من النجم وليس ذلك بكذب لأن السامع له يعرف مذهب القائل فيه وكلهم متواطئون عليه كذلك قوله هو أحل من الماء يريد المبالغة فى وصفه بالتحليل [1] » .

وواضح أنه يريد أن يقول إذا كان هناك مذهب أدبى أو بلاغى تجرى عليه اللغة فى التعبير عن العواطف والأفكار وكان هذا المذهب لا يعنى بمطابقة لحق فإن للأديب الحق فى أن يجرى على هذا المذهب وليس للقارىء أو السامع عليه اعتراض مادام قد عرف مذهبه فى هذا ولا يستطيع أن يجعل صنيعه هذا من باب الكذب بحال من الأحوال .

ونعتقد أن هذا يوضح أمورا كثيرة ويجعلنا نقول بوجود القياس الشعرى والتعبير عن الصور التى يخلقها الذهن أو الخيال فى القرآن وفى كلام الأنبياء .

لنعد الآن إلى التمثيل وإلى القصة التمثيلية فى القرآن .

وهنا أحب أن أصرح بأنى لا أقصد إلى القول بأن كل المواد القصصية فى القصص التمثيلى القرآنى وليدة الخيال ذلك لأن بعضها قد يكون وليد الأحداث الواقعية وذلك هو الواضح من قصة الملكين السابقة وما فيها من أحداث من تاريخ داوود عليه السلام .

---

(١) كتاب الأشربة ص ٥٤

وهنا أمر آخر لابد من توضيحه هو أن الحاجة إلى الخيال فى القصص القرآنى أو فى التمثيل القرآنى لم تأت لحاجة المولى سبحانه وتعالى إلى الخيال فى التعبير عن المراد — وحاشا لله أن يحتاج إلى الخيال — وإنما جاءت لحاجة البشرية لهذا الخيال ولأن ذلك هو الأسلوب الذى تجرى عليه فى التعبير عن الأحاسيس والأفكار.

يقول صاحب الكشاف عند تفسيره لقوله تعالى « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا (١) ».

مايلى «وما جاء القرآن إلا على طرقهم وأساليبهم من ذلك قولهم لو قيل للشحم أين تذهب لقال أسوى العوج وكم لهم من أمثال على ألسنة البهائم والجمادات وتصور مقاولة الشحم محال ولكن الغرض أن السمن فى الحيوان مما يحسن قبيحه كما أن العجف مما يقبح حسنه فصور أثر السمن فيه تصويرا هو أوقع فى نفس السامع وهى به آنس وله أقبل وعلى حقيقته أوقف وكذلك تصوير عظم الأمانة وصعوبة أمرها وثقل محملها والوفاء بها.

فإن قلت قد علم وجه التمثيل فى قولهم للذى لا يثبت على رأى واحد أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى لأنه مثلت حاله فى تميله وترجحه بين الرأيين وتركه المضى على أحدهما بحال من يتردد فى ذهابه فلا يجمع رجليه للمضى فى وجهه وكل واحد من الممثل به شىء مستقيم داخل تحت الصحة والمعرفة وليس كذلك ما فى هذه الآية فإن عرض الأمانة على الجماد وإبائه وإشفاقه محال فى نفسه غير مستقيم فكيف صح بناء التمثيل على المحال وما مثال هذا إلا أن تشبه شيئا والمشبه به غير معقول.

---

(١) الاحزاب ٧٢

قلت الممثل به فى الآيه وفى قولهم لو قيـــل للشحم أين تذهب وفى نظائره مفروض والمفروضات تتخيل فى الذهن كما المحققات . مثلت حال التكليف فى صعوبته وثقـل محمله بحاله المفروضـة لو عرضت على السموات والأرض والجبال لأبين أن يحملنها وأشفقن منها (١) . »

اذ يلفت الزمخشرى ذهننا إلى أن التمثيل هنا قد جاء لأنه الاسلوب العربى ولأن القرآن ما جاء إلا على طرقهم وأساليبهم . كما يلفت ذهننا إلى أن التمثيل يكون بالصور المفروضه التى تتخيل فى الذهن أى بالصور التى يخترعها الخيال وأن لهـــذه الصور قوتها التى قد تكون أوقع فى الذهن وآكد فى نفس من الصور التى تمثل الحقيقة .

وجاء فى الكشاف أيضا عند تفسيره لقوله تعالى « وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامـــه والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون . » (٢)

ما يلى « والغرض من هـذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعه تصوير عظمته والتوقيف على كنه جلاله لاغير من غير ذهاب بالقبضه ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز وكذلك حكم ما يروى أن جبريل جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أبا القاسم إن الله يمسك السموات يوم القيامة على إصبع والأرضين على إصبع والجبال على إصبع والشجر على إصبع والثرى على أصبع وسائر الخلق على إصبع ثم يهزهن فيقول أنا

---

(١) الكشاف جـ٢ ص

(٢) الزمر ٦٧

الملك فضحك رسول الله صلعم تعجبا مما قال ثم قرأ تصديقا له وما قدروا الله حق قدره الآيه . وإنما ضحك أفصح العرب وتعجب لأنه لم يفهم منه إلا ما يفهمه علماء البيان من غير تصوير إمساك ولا إصبع ولا هز ولا شيء من ذلك ولكن فهمه وقع أول شيء وآخره على الزبده والخلاصة التى هى الدلاله على القدرة الباهره وأن الأفعال العظام التى تتحير فيها الأفهام والأذهان ولا تكتنهها الأوهام هينة عليه هوانا لا يوصل السامع إلى الوقوف عليه إلا إجراء العبارة فى مثل هذه الطريقة من التخيل ولا ترى بابا فى علم البيان أدق ولا أرق ولا ألطف من هذا الباب ولا أنفع وأعون على تعاطى تأويل المشتبهات من كلام الله تعالى فى القرآن وسائر الكتب السماويه وكلام الأنبياء فإن أكثره وغلبته تخييلات قد زلت فيها الأقدام قديما وما أتى الزلوان إلا من قلة عنايتهم بالبحث والتنقير حتى يعلموا أن فى عداد العلوم الدقيقه علما لو قدروه حق قدره لما خفى عليهم أن العلوم كلها مفتقره إليه وعيال عليه إذ لا يحل عقدها الموربه ولا يفك قيودها المكربه إلا هو وكم آيه من آيات التنزيل وحديث من أحاديث الرسول قد ضيم وسيم الخسف بالتأويلات الغثه والوجوه الرثه لأن من تأوّل ليس من هذا العلم فى عير ولا نفير ولا يعرف قبيلا من دبير . » (١)

فصاحب الكشاف يدلنا على أن المعانى قد تجيء فى صورة التمثيل مباشرة وهنا لا يأخذ القارىء أو السامع المعانى من الألفاظ المفردة ومن جزئيات التراكيب وإنما يأخذ المعانى من الكلام بجملته ويفهم أن معانى الألفاظ غير مقصودة فى أمثال هذه التراكيب . ثم هو يدلنا على أن هذه الصور تكون عادة من صنيع الخيال وأن الوقوف على ما فيها من عواطف وآراء عسر شاق وأنه الأمر الذى تزل فيه الأقدام .

---

(١) الكشاف ج ٢ ص ٢٧٠

وتنتهى من كل حديث الزمخشرى على أن التمثيل من صنع الخيال وأنه موجـــود فى كتاب الله . وأن من المعانى ما يجىء مباشرة فى صورة التمثيل وأن استخراج هـــذه المعـانى يحتاج إلى دربه ومقدرة فى علوم البيان .

وهكذا نرى أن الاعتماد على عنصر الخيال أسلوب من أساليب القرآن وأنه الأسلوب الذى دفع إليه حاجة العقل البشرى إلى هذا اللون من الكلام.

ويحسن بنا الآن أن نعرض عليك ألوانا من القصص التمثيلى الذى قال القدماء والمحدثون من أئمة التفسير بوجوده فى القرآن .

وقبل أن نعرض هذه الأشياء نلفت الذهن إلى أن للتمثيل مظهرين . الأول أن يجىء فى أعقاب المعانى ليزيدها قوة وجـلاء . والثانى أن يجىء المعنى ابتـداء فى صورة التمثيل . وهذا مايشير إليـه الجـرجانى حين يقول « وأعلم أن مما اتفق العقـلاء عليه أن التمثيل إذا جاء فى أعقاب المعانى أو برزت هى باختصار فى معرضه ونقلت عن صورها الأصليـة إلى صورته كساها أبهـة وأكسبها منقبة ورفع من أقدارها وشب من نارها وضاعف قواها فى تحريك النفوس لها ودعا القلوب إليهـا واستثار لها من أقاصى الأفئدة صبابة وكلفا وقسر الطباع على أن تعطيها محبه وشغفا [١] » .

ولعل من أحسن المثل فى الدلالة على أن المعانى تبرز أحيانا فى معرض التمثيل الآية السابقة كما شرحها الزمخشرى وهى آية وما قدروا الله . . الخ .

---

(١) أسرار البلاغة ٨٦ وما بعدها

هذا التمثيل بمظهريه كما يكون بالصور الأدبيه والتشبيهات يكون أيضا بالقصص فقد تجيء القصة فى أعقاب المعانى لتزيدها وضوحا وبيانا وذلك هو الواضح من سورة يس فقد ذكر المولى سبحانه وتعالى كثيرا من المعانى التى تصور حال النبى عليه السلام مع قومه ثم أتبعها بقوله تعالى « واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون وما علينا إلا البلاغ المبين قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لايسألكم أجرا وهم مهتدون ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لاتغنى عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون إنى إذاً لفى ضلال مبين إنى آمنت بربكم فاسمعون قيل ادخل الجنة قال ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين (١) ».

وقد يجيء المعنى ابتداء فى صورة القصة كما هو الحال فى قصه الملكين مع داوود .

وسنقصر الحديث هنا عن القصص التى تصور المظهر الثانى من مظهرى التمثيل وهى التى تبرز المعانى فيها فى صورة القصة ابتداء .

وإليك شيئاً من هذه القصص .

---

(١) يس ١٣ — ٢٧

(ا) قال تعالى « إذ قال الحواريون ياعيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين قال الله إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحداً من العالمين [١] » .

وجاء فى الطبرى « وقال آخرون لم ينزل الله على بنى إسرائيل مائدة . ثم اختلف قائلوا هذه المقالة فقال بعضهم إنما هذا مثل ضربه الله تعالى لخلقه نهاهم به عن مساءلة نبى الله الآيات .

ذكر من قال ذلك — حدثنا ابن وكيع قال حدثنا يحى بن آدم عن شريك عن ليث عن مجاهد . أنزل علينا مائدة من السماء قال مثل ضرب لم ينزل عليهم شيء [٢] » .

(ب) وقال تعالى « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون [٣] » .

وذهب بعض القدماء من المفسرين فيما روى عنهم ابن كثير إلى أن هذه ليست قصة واقعية وإنما هى مثل «عن ابن جريح عن عطاء أن هذا مثل [٤] » .

---

(١) المائدة ١١٢ — ١١٥
(٢) الطبرى جـ ٧ ص ٨١
(٣) البقرة ٢٤٣
(٤) ابن كثير جـ ١ ص ٩٠ .

ويلاحظ أن الناشر قد كتب على الهامش هذه العبارة « يعنى أنها ضرب مثل لا قصة واقعية ».

(ج) قال تعالى « أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير [١] ».

وجاء فى المنار بعد تفسيره للقصة مايلى « ويحتمل أن تكون القصة من قبيل التمثيل والله أعلم [٢] ».

(د) قال تعالى « وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم [٣] ».

وجاء فى الرازى مايلى « المسألة الثانية ، أجمع أهل التفسير على أن المراد بالآية قطعهن وأن إبراهيم قطع أعضاءها ولحومها وريشها ودماءها وخلط بعضها على بعض غير أبى مسلم فأنه أنكر ذلك وقال إن إبراهيم عليه السلام لما طلب إحياء الميت من الله تعالى أراه الله تعالى مثالا قرب به الأمر عليه والمراد بصرهن إليك الإمالة والتمرين على الأجابة أى فعود الطير

(١) البقرة ٢٥٩
(٢) المنار ج ٣ ص ٥٢
(٣) البقرة ٢٦٠

الأربعة أن تصير بحيث إذا دعوتها أجابتك وأتتك فإذا صارت كذلك فاجعل على كل جبل واحدا حال حياته ثم ادعهن يأتينك سعيا والغرض منه ذكر مثال محسوس فى عود الأرواح إلى الأجساد على سبيل السهولة[١] ».

وأورد صاحب المنار هذا الرأى وعلق عليه بقوله « وجملة القول أن تفسير أبى مسلم للآيه هو المتبادر الذى يدل عليه النظم وهو الذى يجلى الحقيقة فى المسأله ... وما صرف جمهور المتقدمين عن هذا المعنى على وضوحه إلا الرواية بأنه جاء بأربعة طيور من جنس كذا وكذا وقطعها وفرقها على جبال الدنيا ثم دعاها فطار كل جزء إلى مناسبه حتى كانت طيورا تسرع إليه فأرادوا تطبيق الكلام على هذا ولو بالتكلف .

وأما المتأخرون فهمهم أن يكون فى الكلام خصائص للأنبياء من الخوارق الكونية وإن كان المقام مقام العلم والبيان والإخراج من الظلمات إلى النور وهو أكبر الآيات . ولكل أهل زمان غرام فى شىء من الأشياء يتحكم فى عقولهم وأفهامهم والواجب على من يريد فهم كتاب الله أن يتجرد من التأثر بكل ماهو خارج عنه فإنه الحاكم على كل شىء ولا يحكم عليه شىء ولله در أبى مسلم ما أدق فهمه وأشد استقلاله فيه . »[١]

(هـ) وقال تعالى « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين إنى أريد أن تبوأ بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك

---

(١) التفسير الكبير جـ ٢ ص ٣٣٢

(٢) المنار جـ ٣ ص ٥٨

جزاء الظالمين فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هـذا الغراب فأوارى سوأة أخى فأصبح من النادمين ... (١)

وجاء فى المنار بصدد حديثه عن حب الأخوه مايلى « والحق فيما قصه علينا الوحى من قتل قابيل أنه بيان لما فى استعداد البشر من التنازع بين غرائز الفطره بالتعارض بين عاطفة وشيجه الرحم وحب العلو والرجحان والامتياز على الأقران فى رغائب النفس ومنافعها وما قد يلد من الحسد وما قد يتبع الحسد من البغى والعدوان فضرب الله مثلا لبيان هاتين الحقيقتين ليرتب عليه بيان كون غريزة الدين بل هدايته هى المهذبه للفطره البشرية بترجيح الحق على الباطل والخير على الشر فكان قابيل مثلا لمن غلبت علية النزعه الثانيه وهابيل مثلا لمن غلبت عليه الأولى بترجيح هداية الدين وذلك قوله حكاية عنه « لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليـك لاقتلك إنى أخاف الله رب العالمين إنى أريد أن تبوأ بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين » . والدليل على محبة الأخوه ووشيجة الرحم فى نفس قابيل وتنازعها مع حب العلو والرجحان على أخيه أو مساواته وحسده لتقبل قربانه دونه قوله تعالى « فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين » فأن التعبير عن ترجيح داعية الشر المتولدة من الحسد العارض على عاطفة حب الأخوه ورحمة الرحم بالتطويع من أبلغ تحديد القرآن لدقائق الحقائق باللفظ المفرد (٢).

---

(١) المائدة ٢٧ – ٣١

(٢) المنار جـ ١٠ ص ٢٢٨

وهكذا نستطيع أن ننتهى من الحديث عن هذا اللون القصصى إلى القول بأن القصة التمثيلية أو الخيالية موجودة فى القرآن الكريم باعتراف أئمة التفسير من القدماء والمحدثين . وبأن القصة التمثيلية قصة أدبية وانها تدخل تحت صورة من صور التعريف الأدبى للقصة وهى « القصة هى العمل الأدبى الذى يكون نتيجة تخيل القاص لحوادث وقعت من بطل لا وجود له او من بطل له وجود ولكن الأحداث التى ألمت به لم تقع له اصلا » .

كما نستطيع ان نقول بأنا بعد كل ما تقدم لن نجد من يعارض فى وجود القصة التمثيلية فى القرآن الكريم وانها وليدة الخيال وان الخيال إنما يسود هذا النوع من القصص لحاجة البشر إليه وجريهم فى بلاغتهم عليه والله سبحانه وتعالى إنما يحدثهم من هذا بما يعتادون .

ولعل من القصص التمثيلى كل قصة أعرض القرآن فيها عن ذكر البطل فأهمله أو أخفاه .

والآن نستطيع أن ننتقل إلى لون آخر من ألوان القصص الأدبى فى القرآن وهو اللون الخاص بالأساطير .

(٣) - « القصة الأسطورية »

ويختلف الوضع هنا عنه فى اللونين السابقين من حيث المواد الأدبية ومن حيب تناولها .

أما من حيث المواد فيرجع الاختلاف الى أن المواد الأدبية فى القصة التاريخية كانت أحداثا واقعية تناولها القرآن ورتبها ترتيباً يحقق الغرض المراد فى القصة القرآنية والى أن المواد فى القصة التمثيليه كانت أحداثا لا نعرف لها هذه الصفة من التاريخية والواقعية ومن هنا استطعنا أن نسميها فى عرفنا البشرى أحداثا مفروضية أو متخيلة وقد تناول القرآن هذا اللون من الأحداث وعرضه العرض الذى تتحقق به الأغراض المراده من القص.

أما فى القصة الأسطورية فالمواد الأدبية قصة بأكملها ومن هنا يكون الصنيع البيانى مخالفاً بعض الشيء له فى اللونين الأولين من ألوان القصص القرآنى .

وأما من حيث معالجة القصه الأسطورية فلن نستطيع أن نسلك السبيل التى سلكناها هناك فنبدأ بعرض بعض القصص لنلحظ الظواهر الأدبيةثم نسجلها ونفسرها كما فعلنا هناك . والأمر فى ذلك واضح فالقدماء من المسلمين يجمعون على وجود القصة التاريخية فى القرآن مهما يكن الرأى فى طريقه تناولها ونحن متفقون معهم كل الاتفاق على هذا القدر وغاية الأمر أنا نقول إن عرض القصة التاريخية للأحداث والأشخاص انما هو

العرض الأدبي البلاغي أى الفنى . وبعض القدماء من المفسرين يقول بوجود القصة التمثيلية أو غير الواقعية وعلى حد قول بعضهم الفرضية . ومن كل ما تقدم صلح فى اللونين السابقين أن نبدأ بعرض قصص إنتهينا منه إلى المراد .

أما هنا فلم يقل واحد من المفسرين بوجود القصة الأسطورية فى القرآن بل على العكس نرى منهم كما نرى من بعض المحدثين نفورا من لفظ الأسطورة ومن القول بأنها فى القرآن ولو إلى حد ما .

نعم نحن لا ننكر أن بعض المفسرين من أصحاب اللمحات قد فتح الباب وأجاز القول بوجود القصة الأسطورية وأصَّل لذلك أصولا مهمة لهذه الفكرة مثل تقريره أن هناك جسما للقصة أو هيكلا للحكاية وأن هناك أمورا أخرى . والجسم أو الهيكل غير مقصود . أما المقصود حقا فهو ما فى القصة من توجيهات دينية أو خلقية وهو ما ذهب اليه الأقدمون كالأمام الرازى وهو ما قرره الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى صراحة ووضوح حين تحدث عن التعبيرات البيانية وأنها قد تقوم على شىء من الخرافات الوثنية . وهذه هى أقوال هذين العالمين .

جاء فى الرازى عند تفسيره لقوله تعالى « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله » من سورة يونس ما يلى « الأول أنهم كلما سمعوا شيئا من القصص قالوا ليس فى هذا الكتاب إلا أساطير الأولين ولم يعرفوا أن المقصود منها ليس هو نفس الحكاية بل أمور أخرى مغايرة لها (١) » .

فنحن نلحظ أن الرازى هنا يفرق بين شيئين . الأول هيكل القصة

---

(١) التفصير الكبير ج ٤ ص ٦٩١ .

أو جسم الحكاية . والثانى ما فى القصة من توجيهات دينية نحو قواعد الدعوة الإسلامية ومبادىء الدين الحنيف .

والرازى يلحظ أن الأمر الأول وهو هيكل القصة أو جسم الحكاية هو الذى أدخل الشبهة على عقول المشركين حين ظنوا أنه المقصود من قصص ومن أجل هذا ذهبوا إلى ما ذهبوا اليه من أن القرآن أساطير الاولين .

والرزادى يقرر أن المقصود أمور أخرى مغايرة لهذا الجسم من القصة .

وجاء فى المنار من حديث عند تفسيره لقصـــة هاروت وماروت من سورة البقرة ما يلى « قال الأستاذ الامام ما مثاله . بينا غير مرة ان القصص جاءت فى القرآن لاجل الموعظة والاعتبار لا لبيان التاريخ ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيات الأخبار عند الغابرين وانه ليحكى من عقائدهم الحق والباطل ومن تقاليدهم الصادق والكاذب ومن عاداتهم النافع والضار لأجل الموعظةوالاعتبار فحكاية القرآن لا تعدو موضع العبرة ولا تتجاوز مواطن الهداية ولا بد أن يأتى فى العبارة أو السياق وأسلوب النظم ما يدل على استحسان الحسن واستهجان القبيح .

وقد يأتى فى الحكاية بالتعبيرات المستعمله عند المخاطبين أو المحكى عنهم وإن لم تكن صحيحة فى نفسها كقوله « كما يقوم الذى يتخطبه الشيطان من المس » وكقوله « بلغ مطلع الشمس » وهذا الأسلوب مألوف فأننا نرى كثيرا من كتاب العربيه وكتاب الأفرنج يذكرون آلهـة الخير والشر فى خطبهم ومقالاتهم لاسيما فى سياق كلامهم عن اليونان والمصريين القدماء ولا يعتقد أحد منهم شيئا من تلك الخرفات الوثنيه . (١)

---

(١) المنار جـ ١ ص ٣٩٩

إذ الواضح أن الأستاذ الأمام يجيز أن يكون فى التعبير القرآنى قصصا وغير قصص أثر للأساطير اجراء للعبارات على تلك الظواهر الخرافيه لأنه يحكى من عقائدهم الحق والباطل كما يجيز أن يكون القرآن قد أجرى أساليبه كما هو المعروف عند الأدباء فجعل الخرافات الوثنيه أداة للتعبيرات البلاغيه .

لا ننكر أن المفسرين الكبيرين قد قالا هذا وقد فتحا الباب أمامنا لكنهما وقفا عند هذا الحد ولم يضعا بين أيدينا قصة واحدة ليشرحاها الشرح الأدبى الذى يسمح لنا بأن نجعلها فاتحة الحديث عن القصة الأسطوريه ونمضى على هدى منه .

إن كل ما صنعناه أنهما جعلا جسم القصة أو هيكل الحكايه غير مقصود من القرآن وأنه لو كان أسطوره من الأساطير فإن ذلك لا يقدح فى حق القرآن الكريم لأنه ليس من مقاصده وليس من الأمور التى عنى بشرحها وتفصيلها .

لابد إذن من الحديث المفصل عن هذا اللون من القصص ونظر القرآن إليه وتناوله له .

ونقدم بين يدى ذلك ما نشير به إلى أن السبيل إلى درس مثل هذه الموضوعات مرسومة من قبل . رسمها الأصوليون فى بحث آيات التشريع وهى جمع الآيات المتعلقة بموضوع ما ثم فهمها وتسجيل ظواهرها ثم تفسير هذه الظواهر والانتهاء من كل ذلك إلى حكم القرآن فى المسأله . ولن تكون سبيلنا هنا إلا هذه السبيل .

وتلك هى آيات القرآن الكريم التى عرضت لذكر الأساطير نجمعها مستقصين لننظر فيها النظرة العلميه التى تسلم إلى الحق المبين .

(١) قال تعالى « ومنهم من يستمع إليك وجلعنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين . » انعام ٢٥

(٢) وقال تعالى « وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم . » الانفال ٣٢٣١

(٣) وقال تعالى « وإذا قيــــل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين . » النحل ٢٤

(٤) وقال تعالى « بل قالوا مثــل ما قال الأولون قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين . » — ٨٣

(٥) وقال تعالى « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما » الفرقان ٥و٦

(٦) وقال تعالى « وقال الذين كفـروا أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخروجون لقد وعدنا نحن وآباؤنا هــــذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين » النحل ٦٧ ، ٦٨

(٧) وقال تعالى « والذى قال لوالديه أف لـكما أتعداننى أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين . » الأحقاق ١٧

(٨) وقال تعالى « ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين . » القلم ١٠ — ١٥

(٩) وقال تعالى « ويل يومئذ للمكذبين الذين يكذبون بيوم الدين وما يكذب به إلا كل معتد أثيم إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين . » المطففين ١٠ ١٣

هذه هى آيات التى عرض فيها القرآن لهذه المسأله فلننظر لنرى ما فيها من دلالات على نظرية لهذه الأساطير .

وأول ذلك أن هذه الآيات جميعها من القرآن المكى حتى ما وضع منها فى سورة مدنية كالأنفال مثلا فقد نص القدماء — واعتمد ذلك المصحف الملكى — على أن الآيات من ٣٠ — ٣٦ من سورة الأنفال مكية . وأقرب ما يفهم من ذلك أن الحديث عن الأساطير إنما كان من أهل مكة وجمهرتهم المطلقة من المشركين وأنه قول لم يقل فى المدينة بعد انتقال النبى عليه السلام إليها . وهذه ظاهرة تحتاج إلى تفسير وتعليل .

وثانى ما يفهم من النظر فى هذه الآيات أن القائلين لهذا القول هم فى الغالب الذين ينكرون البعث ولا يؤمنون بالحياه الآخرة . وذلك واضح كل الوضوح من آيات سور . المؤمنون . النمل . الأحقاف . المطففين . ذلك لأن الحديث معهم فى هذه المسألة بالذات . وهو متصل بسبب قوى بالحديث عن الحياه الآخرة فى آيات سور الأنعام والنحل .

وتلك ظاهره تستحق التفسير أيضا والتعليل .

وثالث ما يفهم من النظر فى هذه الآيات أن المشركين كانوا يعتقدون بما يقولون اعتقادا صادقا وأن الشبهة عندهم كانت قوية جارفه وذلك هو الواضح تماما من هذه الآيات التى يحسن بنا أن نستعرضها سويا .

فى سورة الأنعام يذهب المشركون إلى النبى صلى الله عليه وسلم فيستمعون القرآن لكنهم بعد الأستماع يجادلونه ويقولون له ما هذا إلا أساطير الأولين . ونعتقد أنهم لم يقولوا هذا القول فى مواجهة النبى وأمام سمعه وبصره إلا وهم يعتقدون أن ما يقولونه الحق وما يرونه الصواب . ومعنى ذلك أن الشبهة عندهم فى احتواء القرآن على الأساطير شبهة قوية جارفة .

وفى سورة الأنفال يذهبون ويستمعون وبعد هذا وذاك يقولون قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين . ولا يكتفون فى هذا الموطن بهذا القول وإنما يذهبون إلى أبعد من هذا فى التحدى ويقولون: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم .

ونحن إذ نعتقد بصدق القرآن ودقته فى تصوير إحساساتهم لابد لنا من التسليم بأن هذه العقيده كانت قوية عندهم وتقوم على أساس يطمئنون إليه من حيث وسعهم معه ان يقرروا بهذه القوه وجود الأساطير فى القرآن ذلك لأنهم لا يستطيعون هذا القول إلا إذا كان هناك ما يبرر فعلا هذا القول فى تقديرهم ويجعلهم يؤكدونه هذا التأكيد .

وفى الأحقاف يقف ولد هو فيما يروى المفسرون ابن أبى بكر الصديق من والديه هذا الموقف القاسى العنيف، والذى قال لوالديه أف لكما أتعداننى

أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ماهذا إلا أساطير الأولين . »

وما من شك فى صدق القرآن ودقته فى تصويره لخلجات الأنفس ولذا نقدر بأن هذا الشخص الذى يضجر من والديه ويتأفف من قولهما ويشك فى عودته الى الحياة مرة ثانيه ويقيم هذا الشك على ملاحظته لظاهرة من الظواهر هى أن القرون قد خلت من قبله ولم يعد إلى الحياة أحد كان قوى العقيده شـديد اليقين فى أن ما يوعد به من الإخراج إنما هو من الأساطير .

وهكذا نلحظ أن الشبهة عنده قوية عنيفه وأن القرآن يصورها تصويرا دقيقا صادقا ونحس نحن من هذا التصوير القرآنى أن القوم كانوا إنما يعبرون عما يحسون ويشعرون به نحو ما يتلى عليهم من آى الذكر الحكيم فهم لم يقولوا هذا القول كذبا وادعاء وإنما قالوه عن شبهة قويه وعقيده ثابتة.

ونستطيع أن نسأل أنفسنا قائلين هل معنى ذلك الذى يقرره القرآن أن فى القرآن شيئا دعاهم إلى هذا القول الذى يدل على التقرير القوى والاعتقاد المتمكن وهل هذا الشىء من الأخطاء التى ملكت عليهم نفوسهم أو هو شىء من حال القرآن جعلهم يقولون ذلك ؟ لنلتمس الجواب على هذا من دلالة تعرض القرآن للأساطير من دلالة نفيها عن نفسه وشدة حرصه على ذلك أو من دلالته على وقوفه منها موقفا يخالفه ذلك ؟ لننتظر وسنرى .

ورابع ما يفهم من النظر فى هذه الآيات التى هى كل ما تحدث به القرآن عن الأساطير أن القرآن نفسه لم يحرص على أن ينفى عن نفسه وجود الأساطير

فيه وإنما حرص على أن ينكر أن تكون هذه الأساطير هى الدليل على أنه من عند محمد عليه السلام وليس من عند الله .

واستعرض معى الآيات مرة أخرى لتتبين موقف القرآن نحو هذا الحرص على نفى وجود الأساطير فيه وسترى .

(١) أن القرآن اكتفى بوصف هذا الصنيع من المشركين فى آيات سور الانفال . المؤمنون . النمل ـ الأحقاف . دون تعقيب عليه .

(٢) وأن القرآن إكتفى بتهديد القوم فى آيات سور الأنعام . المطففين . وهو تهديد يقوم على إنكارهم ليوم البعث أو على صدهم الناس عن اتباع النبي وليس منـــه التهديد على قولهم بأن الأساطير قد وردت فى القرآن الكريم .

(٣) ومرة واحده يعرض القرآن للرد عليهم فى قيلهم بأنه أساطير وهى المرة التى ترد فى سورة الفرقان . وهذه هى الآيات « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليـه بكرة وأصيلا قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما . »

فهل هذا الرد ينفى ورود الأساطير فى القرآن ؟ أو هو إنما ينفى أن تكون هذه الأساطير من عند محمد يكتتبها وتملى عليه ويثبت أنها من عند الله . قل أنزله الذى يعلم السر ... الخ .

لعل الثانى أوضح . ولعل هـــذا الوضوح هو الذى جعل الرازى فى مناقشته لرد القرآن عليهم يقول « البحث الأول فى بيان أن هذا كيف

يصلح أن يكون جوابا عن تلك الشبهه وتقريره ماقدمنا من أنه عليه السلام تحداهم بالمعارضه وظهر عجزهم عنها ولو كان عليه السلام أتى بالقرآن بأن استعان بأحد لـكان من الواجب عليهم أيضا أن يستعينوا بأحد فيأتوا بمثل هذا القرآن فلما عجزوا عنه ثبت أنه وحى من عند الله وكلامه فلهذا قال « قل أنزله الذى يعلم السر » . (١)

والذى يحسن بنا أن نلتفت إليه هنا هو أن الرازى يسأل عن كيفية أن يكون قوله تعالى . قل أنزله الذى يعلم السر ... الخ إجابة عن قولهم وقالوا أساطير الأولين... الخ ذلك لأن المتبادر أن الرد الذى كان يتوقعه الرازى إنما يكون بنفى وجود الأساطير فى القرآن ومن هنا حاول أن يجعل إجابة القرآن ملاقية للشبهه حين وجد أن الرد ليس نفيا لوجود الأساطير فى القرآن بل نفى موجود آخـــر هو أنه ليس منزلا من الذى يعلم السر فى السموات والأرض . ولعلنا لانوافق الرازى فيما وجه به الرد بل نرى أن إجابة القرآن هى الإجابة الطبيعيـــه وهى الإجابة التى لامحيد عنها فى هذا الميدان . ذلك لأن مدار الحوار بين القرآن والمشركين لم يكن عن ورود الأساطير فى القرآن وإنما كان عن اتخاذهم ورود الأساطير دليلا على أن القرآن من عند محمد لم يجئه به الوحى ولم ينزل عليـه من السماء . ومن هنا كانت الإجابه فى محلها . وكان إثبات أن القرآن من عند الله «قل أنزله الذى يعـلم السر فى السموات والأرض » ولم تكن الإجابه نفى ورود أساطير فى القرآن .

وهذا هو الذى يدل عليه أيضا ما ذكره القرآن من قيلهم « وإذا قيل

---

(١) التفسير الـكبير ج ٦ ص ٣٥٤

لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين ، ذلك لأنهم كانوا يتخيلون استبعاد أن يصدر مثل هذا القصص الأسطورى عن الله ولذا وقفوا موقفهم هذا من النبى عليه السلام ومن القرآن واشتطوا فى ذلك وغلوا وهم مخطئون .

وإذا كان إحساس القوم بورود الأساطير فى القرآن قويا عنيفا وعيقدتهم فى ذلك قويه ثابته .

وإذا كان القرآن لاينفى ورود الأساطير فيه وإنما ينفى أن تكون هذه الأساطير هى الدليل على أنه من عند محمد عليه السلام وليس من عند الله .

إذا كان كل هذا ثابتا فإنا لا نتحرج من القول بأن فى القرآن أساطير لأنا فى ذلك لانقول قولا يعارض نصا من نصوص القرآن .

ويبقى من ذلك الشرح للظواهر وتفسيرها أمران . الأول لماذا صدر هذا القول عن منكرى البعث ؟ والثانى لماذا كان من المكيين ؟

لنستعرض سويا بعض القصص القرآنى الذى عالج القرآن فيه مشكلة البعث .

(١) قال تعالى « أو كالذى مرّ على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائه عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن

ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا وأعلم أن الله عزيز حكيم . » [١]

وواضح من القصتين أنهما تفسران وتجسمان عملية الأحياء بعد الإماته وهى العملية التى كان ينكرها المشركون إنكارا تاما ويزعمون أنها أحاديث خرافه .

ويقف بعض المفسرين من هاتين القصتين موقفا يدل على أنهما عندهم من الأقاصيص التى تقع ولم تحدث .

جاء فى تفسير المنار عقب حديثه عن القصه الأولى هذه الجملة « ويحتمل أن تكون القصة من قبيل التمثيل . » [٢]

وجاء فى الرازى بعد تفسيره للقصة الثانية رأى لأبى مسلم ينكر فيه وقوع القصه ويذهب إلى أنها من قبيل التمثيل ليس غير . هذا الرأى الذى عرضناه عليك فى الفقره الخاصه بالقصة التمثيلية من هذا الفصل . [٣]

وإذا ماضممنا إلى ذلك ما يذهب إليه بعض المستشرقين من أن قصة أصحاب الكهف قصة أسطوريه . [٤] تبين لنا السر فى أن القائلين بالأسطوريه هم الذين ينكرون البعث إذ أنهم لم يستطيعوا تصديق أمثال هذه القصص التى تجسم عملية الإحياء بعد الإماته وجروا على أنها أساطير الأولين .

(١) البقره ٢٥٩ ، ٢٦٠

(٢) المنار جـ ٣ ص ٥٢

(٣) الرازى جـ ٢ ص ٣٣٣

(٤) مادة أصحاب الكهف فى دائره المعارف الاسلاميه

ونستطيع أن نذكر هنا أيضا أن الشبهة التى دخلت على المشركين من أمثال هذه الأقاصيص قد دخلت أيضا على بعض المفسرين من نفس الباب ومن هنا لم يستطيعوا تصديق وقوع هذه الأحداث وفسروا هذا اللون من القصص على أنه قصص يراد به التمثيل .

والآن إلى هذه الظاهره

لماذا انقطع القول بالأساطير حينما انتقل النبى إلى المدينه ؟

إن السبب فيما نعتقد واضح بين فالبيئه قد تثقفت ثقافة كتابيه بفضل اليهود . وفى الكتب السابقه وردت الأساطير لتشرح فكره أو تمثل وتجسم عقيدة من العقائد وهذه فكرة يعرفها أهل الكتاب ونعتقد أن قد كان يعرفها المدنيون من العرب من هؤلاء .

والبيئة المكيه لم تكن مثقفه ثقافة كتابيه فى هذا الجانب فيما نعتقد ومن هنا أنكرت على القرآن هذا الصنيع .

إن القصص الأسطورى يعتبر تجديدا فى الحياة الأدبيه المكيه وتجديدا جاء به القرآن الكريم وتجديدا لم يألفه القوم ومن هنا أنكروه .

إن هذه النظره تفسر لنا جانبا من جوانب الأعجاز فى القرآن الكريم فقد وضع تقليدا جديدا فى الحياه الأدبية العربية وهو بناء القصص الدينى على بعض الأساطير . وهو بذلك قد جعل الأدب العربى يسبق غيره من الآداب العالمية فى فتح هذا الباب وجعل القصة الأسطورية لونا من الوان الأدب الدقيق الرفيع .

يجب أن نحرص على فتح هذا الباب ولا نوصده فى وجه الذين يقولون بوجود الأساطير فى القرآن الكريم وإنما يجب أن نفسره التفسير الذى اهتدى إليه الرازى ووقف عنده الأستاذ الإمام ولم ينكره على نفسه القرآن الكريم .

فإذا ما قال المشركون إن بالقرآن أساطير قلنا ليس عليه فى ذلك بأس وإنما البأس عليكم لأنكم قد عجزتم عن فهم مقاصده وقصدتم عن المضى معه فى هذا السبيل .

وإذا ما قال المستشرقون إن بعض القصص القرآنى كقصة أصحاب الكهف أو قصة موسى فى سورة الكهف قد بنيت على بعض الأساطير . (١)

قلنا ليس فى ذلك على القرآن من بأس فإنما هذه السبيل سبيل الآداب العالمية والأديان الكبرى ويكفينا فخراً أن كتابنا الكريم قد سن السنن وقعّد القواعد وسبق غيره فى هذه الميادين .

ونستطيع الآن أن ننتهى من هذه الفقره إلى القول بأن القرآن الكريم لا ينكر أن فيه أساطير وإنما ينكر أن تكون الأساطير هى الدليل على أنه من عند محمد عليه السلام لم يجئه به الوحى ولم ينزل عليه من السماء .

ومن هنا يجب ألا يزعجنا أن يثبت عالم من العلماء أو أديب من الأدباء أن بالقرآن أساطير . ذلك لأن هذا الإثبات لن يعارض نصاً من نصوص القرآن الكريم .

جاء فى الرازى عند تفسيره لآية النحل ما يلى « لقائل أن يقول كيف

(١) راجع مادة أصحاب الكهف ومادة إلياس من دائرة المعارف الاسلاميه

يكون تنزيل ربهم أساطير الأولين . وجوابه من وجوه . الأول أنه مذكور على سبيل السخرية ... الثانى أن يكون التقدير هذا الذى تذكرون أنه منزل من ربكم هو أساطير الأولين . الثالث يحتمل أن يكون المراد أن هذا القرآن بتقدير أن يكون مما أنزل الله لكنه أساطير الأولين ليس فيه شىء من العلوم والفصاحه والدقائق والحقائق . » .

وواضح أن الرازى يجيز فى رأييه الأخيرين القول بورود أساطير فى القرآن الكريم وأنها من عند الله .

إن المسألة أوضح من أن نختلف عليها بعد الآن والله الهادى إلى سواء السبيل .

القصة الأسطورية إذا من القصص الأدبى الذى نجد من المفسرين من أجاز أن يكون موجودا فى القرآن الكريم .

* * *

هذه هى الألوان الثلاثه من القصص الأدبى وضعتها بين يديك ودللت على وجودها أو على احتمال الوجود وإجازته وكلها يثبت أن القصة فى القرآن الكريم عمل أدبى قصد إليه القرآن وجعله وسيلته إلى كل مايريد من مقاصد وأغراض .

وننتقل الآن إلى الحديث عن أمر آخر هو الوحدة القصصية وسنرى منها أيضا ما يزيد الأمر بيانا وإيضاحا ويطلعنا على أن القصد الأدبى فى القصص القرآنى هو سر ما فيه من إعجاز .

الفصل الثاني

الوحدة القصصية

والنزعة التاريخية التى سيطرت على عقلية الدارسين للقصة القرآنية جعلتهم يضلون السبيل إلى الوحدة القصصية للقصة القرآنية . ذلك لأنها جعلتهم لا يستطيعون التفرقة فى سهوله ويسر وفى دقة وإحكام بين صنيع المؤرخين وصنيع الأدباء فى رسم صور الشخصيات فهم لم يستطيعوا مثلا أن يتبينوا أنه إن كان من واجب المؤرخ أن يرسم الصورة كما كانت عليه الشخصية فى الحياة فإن من حق الأديب أن يختار من الملامح وأن يبرز من القسمات وأن يعرض من جوانب الشخصية ما يمكنه من الوصول إلى تلك الأهداف التى قصد إليها من قص القصص . وإن من حقه أيضاً أن يلوّن الصورة بالألوان التى تجعل الشخصية قادرة كل القدره على القيام بذلك الدور الذى قدّر لها أن تلعبه فى القصة . ومن هنا لم يستطع هؤلاء الدارسون الإيمان بأن الشخصية الواحدة قد لا تتشابه صورها حين يصورها أدباء مختلفون أو حين يصورها أديب واحد فى أقاصيص مختلفة ولعل هذا هو السبب الذى من أجله عجز هؤلاء عن تفسير تلك الظاهرة فى الأقاصيص القرآنية فلقد عجز القوم عن تفسير هذه الصور التى رسمها القرآن لفرعون من مجيئه مرة فى مسوح العابد وأخرى فى عزة المعبود .

وعدم القدرة على التفرقة بين الصنيعين صنيع الأدباء وصنيع المؤرخين هو الذى دفع هؤلاء الدارسين إلى اعتقاد أن الشخصية القصصية فى القصص القرآنى ليست إلا الشخصية التاريخية وأن هذه الأخيرة هى كل شىء فى القصص القرآنى فهى الأساس الذى تبنى عليه القصة وهى المحور الذى تدور

حوله أو تستند إليه بقيه العناصر ثم هى العنصر المبين للوحدة القصصية والمميز لقصة قرآنية عن أخرى قرآنية .

ونحن فى هذا الموقف لا نريد الحديث عن العناصر القصصية وكيفية توزيعها فى القصة القرآنية ولا عن الشخصية وكيف أن القرآن كان يجعلها العنصر الأول حين يقصد إلى الإنذار ولا عن الحوار وكيف أن القرآن كان يجعله العنصر الأول حين يقصد إلى الرد على المعارضة وإلى شرح مبادىء الدعوة الإسلامية . لا نريد الحديث عن شىء من هذا لأن لهذه المسائل جميعها محلها من البحث فى فصل خاص بها هو فصل العناصر القصصية .

إننا نريد فى هذا الموقف الحديث عن الوحدة القصصية عن الأساس الذى نميز به فى القرآن قصة عن قصة . عن الأساس الذى يفرد القصة ويجعلها محل بحث ودرس لملاحظة الظواهر ثم تفسيرها وتعليلها ثم الوقوف على مافيها من قيم فنية وأدبية .

كان الأساس عند الدارسين قبلنا الشخصية التاريخية ومن هنا كانت تسميتهم للأقاصيص القرآنية بأسماء الأنبياء والمرسلين وأسماء غيرهم من رجال التاريخ فنرى فى كتبهم قصص آدم ونوح وإبراهيم وموسى وذى القرنين . كما نرى فيها أيضاً تمييزهم للأقاصيص بالصفات التى كان يطلقها القرآن الكريم على الشخصيات ومن ذلك قصص الذى مرّ على قرية وهى خاوية على عروشها ، والذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، وأصحاب الكهف والذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف ، وأصحاب الجنة وهكذا .

كانت النتيجة المنطقية لهذا الصنيع من القدماء أن تكون قصة موسى وإبراهيم وغيرهم من الأنبياء الذين تكررت أسماؤهم فى القرآن ودارت

حولها أخبار وآراء هى مجموع هذه الأقاصيص التى دارت حول هـــذه الأسماء . وهنا نعترف بأنهم لم يقفوا طويلا عند الأسرار التى من أجلها كرر القرآن هذه الأقاصيص وخالف فيما بينها بالذكر والحذف أو الزيادة والنقصان أو صورها بصور مختلفة من حيث التقديم والتأخير وغير ذلك من طرق وأساليب عمد إليها القرآن .

إنه من هنا قامت فى وجههم الصعوبات وتكاثرت أمامهم المشكلات وأحسوا بعدم القدرة على الخروج مما وضعوا أنفسهم فيـــه من مآزق ولعلهم من هنا ذهبوا إلى ما ذهبوا إليه من عدّ القصص القرآنى من المتشابهات .

إن الأساس الذى يحسن بنا أن نسير عليه فى فهم الوحدة للقصة القرآنية إنما هو الأساس الذى جعله القرآن نفسه أساسا للمجموعات القصصية التى جمع بينها فى الصورة الواحدة ووحّد فيها بين البناء والتركيب . هو المقاصد والأغراض والموضوعات الدينية لا الأسماء ولا الأشخاص .

إن المشكلة التى تعالجها القصة هى الوحدة التى يقوم عليها فن التركيب والبنـــاء .

إن ذلك الفهم للوحدة القصصية هو الذى يتفق وقواعد الأصوليين ويجرى وصنيع القرآن ثم هو الذى لعله يفتح الطريق لإدراك معنى لهذا التشابه فى قصص القرآن . ولعله يرد عن القرآن مطاعن الطاعنين من ملاحدة ومستشرقين .

(١) أما إنه يتفق وقواعد الإصوليين فلأنهم يجعلون مدار البحث فى الآية القرآنية ما تصوره من حكم شرعى أو عقيدة دينية ولا يجعلونه لأشخاص الذين تدور حولهم هـ [illegible]

الأزواج فى مواطن كثيرة فجاء بعضه فى آيات النكاح وبعضه فى آيات الطلاق وبعضه فيما يقوم بين الزوجين من خصومات . كما جاء بعضه فى آيات النفقة وبعضه فى آيات الميراث . وهكذا .

ولا يستطيع باحث أن يجمع بين آيات الطلاق وآيات الميراث إذ هذه توضع فى باب الميراث وتلك فى باب الطلاق وهكذا .

وهذا هو ما يحسن أن يجرى عليه العمل فى القصة القرآنية فيحسن أن تكون الوحدة هى الغرض القصصى فتكون هذه القصة للتخويف وتلك للإنذار وهذه للعظة وتلك لتثبيت قلب النبي عليه أفضل الصلاة والسلام .

وواضح أنا لا نستطيع أن نجمع بين قصة للبعث كقصة إبراهيم والطير فى البقرة وقصة لتثبيت قلب النبي عليه السلام كقصة إبراهيم فى هود وقصة لمحاربة الأوثان كقصة إبراهيم فى الأنبياء لمجرد أن هذه القصص كلها تدور حول شخصية ابراهيم عليه السلام .

وكذلك لا نستطيع أن نصنع هذا الصنيع فى القصص الدائرة حول غيره من الأنبياء .

٥

(٢) وأما إنه يجرى وصنيع القرآن فلأنه الأساس الذى قام عليه الجمع فى الأقاصيص المختلفة من حيث الأسماء الواردة فى صورة واحدة من صور القرآن . وذلك هو الأمر الواضح من مجموعات القصص الواردة فى كل من سور القمر والأعراف وهود والشعراء وغيرها من السور التى وردت فيها أمثال هذه المجموعات .

ثم لأن هذا الأساس هو الذى قام عليه التشابه والاتفاق فى فن بناء

قصـــة وتركيبها فى كل من السور مهما تتغير الأسماء .

ولعل القصص التالية توضح لك صنيع القرآن وتبين لك السر الذى من أجله جمع بين هذه الأقاصيص فى سورة واحدة ووحد بينها فى فن بناء القصة وتركيبها مع الاختلاف فى الأسماء .

قال تعالى « كذبت ثمود المرسلين إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون إنى لـكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألـكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين أتتركون فيما ههنا آمنين فى جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم وتنحتون من الجبـال بيوتا فارهين فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفســدون فى الأرض ولا يصلحون قالوا إنما أنت من المسحرين ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين قال هذه ناقة لهـا شرب ولـكم شرب يوم معلوم ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم فعقروها فأصبحوا نادمين فأخذهم العذاب إن فى ذلك لآية وما كان أكـثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم . .

كـذب أصحاب الأيكة المرسلين إذ قال لهم شعيب ألا تتقون إنى لـكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألـكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العـــالمين ، أوفوا الـكيل ولا تـكونوا من المخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم ولا تبخسوا الناس أشـــياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين . قالوا إنما أنت من المسحرين وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الـكاذبين فاسـقط علينا كسفا من السماء إن كـنت من الصادقين قال ربى أعلم بما تعملون فـكـذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم . »

فهاتان القصتان جمع بينهما الغرض الذى ذكر فى أول هـذه السورة سورة الشعراء وهو حرص النبى على هدايتهم مع موقفهم منه موقف اللدد والخصومة حتى ليبخع نفسه ومن أجل هذا مضت القصـــة فى عرض الحوادث التى تبث الثقة والطمأنينة فى قلب النبى عليه السلام والتى ترد نفسه إلى الهدوء حينما يعلم من غيره من الرسل مثل هذا الحرص وبقاء أقوامهم على ماهم عليه من العناد .

ومن أجل هذه المقاصد أيضاً وحـّد القرآن بين هاتين القصتين فى فن البناء والتركيب حتى لقد جعل العبارات التى تجرى بهـــا الألسنة سواء من الانبياء عليهم السلام أو من أقوامهم الثائرين الساخطين واحدة فى كثير من الأحايين .

الوحدة القصصية كما ترى من صنيع القرآن تقوم على المقـــاصد والأغراض والمشكلات التى تستثيرها القصص وتحاول أن تضع بين يدى القارىء أو النبى عليه السلام لها حلا ولا تقوم على الاسماء أو الاشخاص بحال من الاحوال .

على أنا لو تتبعنا الآيات المختلفة التى يلفت القرآن بها الذهن إلى فوائد القصص القرآنى فى السور التى وردت فيهامجموعات من هذه القصص لوجدنا القرآن نفسه ينطق بهذه الاسس للوحدة القصصية القرآنية ، فقد قال تعالى فى سورة هود وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ماتثبت به فؤادك . وقال فى سورة الاعراف « فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » وقال فى سورة يوسف « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن الخ . » وكلها تنطق كماترى بأن القرآن يجعل القصد الحقيقى للقصص الاغراض الدينية . وإنه لتعطيل لمهمة القرآن الادبية الإعجازية والدينية الخلقية أن

نعرض عن هذه المقاصد التى يرمى إليها القرآن ونشغل عنها بما لم يقصد إليه من بحث فى قضايا الأزمنة والامكنة والاسماء والاشخاص .

* * *

(٣) ثم هو الذى يفسر التكرار فى القصص وهو الامر الذى دعا القدماء إلى القول بفكرة التشابه وإليك البيان .

يروى الطبرى نصوصا فى التشابه يلخصها كما هى العادة بقوله (المتشابه هو ما اشتبهت الالفاظ به من قصصهم عند التكرار فقصة باتفاق الالفاظ واختلاف المعانى وقصة باختلاف الالفاظ واتفاق المعانى [١] . »

ويقصد الطبرى من هذا الحديث التشابه الذى يقع فى صور التعبير عندما تختلف المعانى التى تجىء بها القصة أو الإختلاف فى التعبيرات عندما يكون المعنى واحدا . وهو يسمى النوع الأول قصة باتفاق الالفاظ واختلاف المعانى وهو يدل على النوع الثانى بقوله وقصة باختلاف الالفاظ واتفاق المعانى .

وقد ورد هذا الرأى مجملا فى كثير من كتب التفسير وأصول الفقه كتفسير أبى حبان وكإحكام الاحكام للآمدى وكمجمع البيان للطبرسى وغيرهم .

ولا يسعنا أن نعرض عليك فى هذا المقام جميع الصور التى يتحقق بها ما رواه الطبرى فهى كثيرة فى القرآن ولذا سنكتفى بعرض بعضها ملخصا فى مسائل بعينها تدل على ألوان من التشابه كما جمعها صاحب كتاب « درة

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ١٠٧

التنزيل وغرة التأويل فى بيان الآيات المتشابهات فى كتاب الله العزيز » ونرجو أن ننتهى منها إلى حل موفق .

(١) قال تعالى فى سورة الأعراف « لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » وقال فى سورة هود « ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إنى لكم نذير مبين ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم » وقال فى سورة المؤمنين « ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون . »

ويعلق الخطيب الإسكافى على هذه الآيات بعد إيراده لها بقوله « للسائل ان يسأل عن اختلاف المحكيات كقوله بعد مالكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم وإنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم وفى المؤمنين مالكم ن إله غيره أفلا تتقون . والقصة قصة واحدة .

الجواب أن يقال للأنبياء مقامات مع أممهم يكون فيها الإعذار والإنذار ويرجع فيها عودا على بدء الوعد والوعيد ولا يكون دعاؤهم إلى الإيمان بالله ورفض عبادة ما سوى الله فى موقف واحد بلفظ واحد لا يتغير عن حاله بل الواعظ يفتنّ فى مقاله والجاحد المنكر تختلف أجوبته فى مواقفه فإذا جاءت المحكيات على اختلافها لم يطالب وقد اختلف فى الأصل باتفاقها لأنه قال لهم مرة باللفظ الذى حكى ومرة بلفظ آخر فى معناه كما ذكر وكذلك الجواب يرد من أقوام يكثر عددهم ويختلف كلامهم ومقصدهم . ومصدق الخبر يتناول الشىء على ما كان عليه فلا وجه إذا للإعتراض بهذا ونحوه[١] . »

---

(١) درة التنزيل ص ١٢٨

هذا لون من التشابه يفكر فيه الخطيب الإسكافى ويحله على أساس أدبى نستطيع أن نلخصه فى أنه رأى أن هذا موقف وذاك آخر ومن هنا اختلفت الصور المعبرة فكانت هذه صورة وتلك أخرى .

ونعتقد أن هذا الحل الذى يذهب إليه الخطيب الإسكافى يسلم إلى رأى أدبى آخر لا نحجم عن ذكره لأنه الحق الأدبى .

ليس من شك فى أنه إذا تعددت المواقف واختلفت الأشخاص وقال النبى أو الرسول من أجل هذا التعدد فى المواقف ومن أجل هذا الاختلاف فى الأشخاص عبارات مختلفة تلائم المقام كانت النتيجة المنطقية لكل هذا إختلاف الصور المعبرة أو اختلاف الأقاصيص لإختلاف الصور البيانية والمواد القصصية واختلاف المقامات .

هذا حل يحسن بنا أن نحرص عليه لنستفيد به فيما يجىء من صور للمتشابه من آى القرآن .

☆ ☆ ☆

(ب) قال تعالى من سورة طه « هل أتاك حديث موسى . . . وما تلك بيمينك يا موسى قال هى عصاى » وقال فى سورة النمل « إذ قال موسى لاهله إنى آنست نارا سآتيكم ... وألق عصاك »

« للسائل أن يسأل فيقول قال الله تعالى « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » وهل الاختلاف إلا هذا الذى جاء فى سورهِ فى الإخبار عن قصة واحدة مرة أنه قال لأهله لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى . وفى الآية الأخرى سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون . وقال فى سورة القصص لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوه من النار .

ثم قوله فلما أتاها نودى يا موسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى إلى قوله وما تلك بيمينك يا موسى فأخبر عن أشياء قيلت لموسى عليه السلام ثم جاء إلى ذكر العصا فقال وما تلك بيمينك ياموسى . وفى السورة الثانية فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم وألق عصاك . وكذلك جاء فى سورة القصص فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى إنى أنا الله رب العالمين وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز .

الجواب أن يقال إن الله تعالى لم يخبر أنه خوطب موسى عليه السلام باللغة العربية بالفاظ إذا عدل عنها إلى غيرها مما يخالف معناها كان اختلافا فى القرآن قادحا فيه بل معلوم أن الخطاب كان بغير هذه اللغة وأنه تعالى أخبر فى بعض السور ببعض ما جرى وفى أخرى بأكثر مما أخبر به فى التى قبلها وليس يدفع بعضها بعضا [1] »

ونشعر نحن بأن تلك الإجابة لا تحل المشكلة مادام الموقف واحدا وما دام القصد هو الإخبار عن هذا الموقف .

إن رأينا فى حل هذه المشكلة نستمده مما لمحه الخطيب الإسكافى فى بيانه السابق ونقول بأن هذا موقف وذاك آخر وليس من اللازم أن يقوم هذا الاختلاف على أساس الذى وقع فعلا وإنما يقوم على أساس القصد الذى يرمى إليه القرآن من الصور القصصية فما دامت هذه القصة قد وردت لغرض ومقصد كالتسلية أو التسرية عن النبى عليه السلام وتلك لغرض آخر فهذه

---

(١) المصدر السابق ص ٢٣٢

قصة وتلك قصة إذ هذا العرض الأدبى لحادث واحد من جوانب مختلفة إنما يكشف عن موضع العبرة وموطن العظة دون قصد إلى تقرير خبر بعينه ومن هنا تكون هذه قصة وتلك قصة وعند ذلك لا تكون هناك مشكلة لأنا لن نربط بين القصتين حتى يقوم التعارض أو الاختلاف .

وليس من شك فى أنك ستذهب معى إلى أنه إذا اختلفت المقاصد القصصية اختلفت الصور المعبرة وأنه إذا اختلفت الصور المعبرة كانت هذه قصة وتلك قصة .

وليس من شك فى أنك لا تستطيع أن تغلب الاتفاق فى الشخصية على بقية العناصر القصصية من اختلاف فى المقاصد والأغراض واختلاف فى الصور والالفــاظ واختلاف فى النسق والترتيب واختلاف فى فن البناء والتركيب .

وهنا نحس أن الاختلاف القائم على أساس الأحداث أيضا يزول فتكون البشارة بالغلام مرة لساره وأخرى لابراهيم عليه السلام لا يعتبر من الاختلاف لان هذه قصة وتلك قصة . وكذلك غير هذا المثال من آيات القصص الذى يتغاير فيه التعبير .

إن هذا الوجه من الرأى يبطل ذلك القول الخاطىء الذى يقول به المستشرقون من تطور الشخصية القصصية فى القرآن الكريم بتطور اغراض النبى عليه السلام ودوافعه والظروف المحيطة به والمناسبات التى تدعوه إلى بعض المواقف . ذلك التطور الذى يمثلون له بما حدث فى شخصية ابراهيم عليه السلام (١) لأن أساس هذا القول أن الوحدة القصصية تقوم على وحدة

---

(١) راجع مادة ابراهيم فى دائرة المعارف الاسلامية .

الشخصيه وهو قول باطل يريحنا منه تقرير أن هذه الوحدة إنما هى وحدة الغرض والعبرة لاوحدة الشخص ومن هنا تـكون هذه قصه وتلك قصـة وتـكون أقاصيص متعددة لشخص واحد عن موقف واحد لتعدد الأغراض واختلاف صور العرض باختلاف المقصد والغرض .

وقريب من هذا ذلك الاختلاف الذى يلاحظ فى شخصية فرعون من أنه ظهر بمظهر المعبود فى قوله تعالى « ماعلمت لكم من إله غيرى » وبمظهر العابد فى قوله تعالى « ويذرك وآلهتك » إذ أن هذا القول إنمـا يقوم على أساس أن الوحدة القصصية تكون بوحدة الشخص لابوحدة المقصـد والغرض وهو مالا نرتضيه بل نقول كما ترى باختلاف القصـة لاختلاف المقصد والمغزى .

* * *

(ج) قوله تعالى فى قصة نوح من سورة هود : « قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم » وقال فى قصة صالح عليه السلام فى هذه السورة : « قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة » .

للسائل أن يسأل عن مخاطبة النبيين نوح وصالح عليهم السلام قوميهما باللفظين الذين تساويا إلا فيما إختلفا فيه من تقديم المفعول الثانى فى الآية الأولى على الجار والمجرور وتأخيره عنهما فى الآية الثانية (١).

* * *

(د) قوله تعالى فى قصة صالح عليه السلام من سورة الشعراء : « قالوا

---

(١) درة التنزيل ص ١٨٢

إنما أنت من المسحرين وما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين . » وقال فى قصة شعيب علية السلام : « واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين قالوا إنما أنت من المسحرين وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين » .

للسائل أن يسأل عن الواو فى قصة شعيب فى قوله وما أنت إلا بشر مثلنا وحذف الواو من مثله فى قصة صالح عليه السلام (١) .

وهنا نصرح بأنا لم ننقل إجابة الخطيب الاسكافى عن اللونين الثالث والرابع وذلك لسبب بسيط هو أنه أقام الإجابة عن أسباب الاختلاف وهو الأمر الذى يسأل عنه فى هذا الموطن لأن القصتين فى كل لون مختلفتان فهذه قصة لنوح وتلك قصة لصالح . وهذه قصة لصالح وتلك قصة لشعيب .

إن الأمر الذى يجب أن يسأل عنه فى هذا الموطن إنما هو سر التشابه فيما نطق به كل من النبيين فى السورة الواحدة إذ هو الأمر الذى يدعو إلى التساؤل فى هذا المقام .

إن الإجابة عن هذا التساؤل سهلة يسيرة على أساس ماتذهب إليه من فهم للقصص القرآنى ذلك لأن كلا من اللونين قد اتحد فيه القصد والغرض ومن هنا كان التشابه فى بناء القصة وكان الاتفاق فى العبارات .

نزلت قصص سورة هود لتثبيت قلب النبى عليه السلام واختار المولى سبحانة وتعالى من أحداث الأنبياء مع أقوامهم مايحقق هذا الغرض ومن هنا كان التشابه فيما ينطق به الأنبياء عليهم السلام .

ونزلت قصص الشعراء لتصوير اللدد فى الخصومة وتهوين وقع الأمر

---

(١) المصدر السابق ص ٢٦٨

على نفس النبى عليه السلام ومن هنا كان التوافق فى بناء القصة وتركيبها وكان الاتفاق فى العبارات التى تنطق بها الأقوام أو التى ينطق بها الأنبياء عليهم السلام .

وأعتقد أنك ستؤمن بهذا الرأى إيماناً جازماً لو رجعت إلى قصة لنبى واحد فى سورتين مختلفتين وقصتين لنبيين مختلفين فى سورة واحدة .

سبق أن وضعنا بين يديك قصتين من سورة الشعراء هما قصة صالح وقصة شعيب لتلاحظ ما بينهما من إتفاق فى بناء القصة وتركيبها وما بينهما من تشابه فيما ينطق به القوم من عبارات فى الجدل والحوار .

والآن نستطيع أن نفعل العكس فنضع بين يديك إحدى القصتين وقصة لنفس النبى الذى تدور حوله الأحداث من سورة أخرى لتدرك بنفسك لماذا نذهب إلى أن هذه قصة وتلك قصة ولتقف بنفسك على أسباب الأختلاف .

قال تعالى فى سورة الشعراء : « كذبت ثمود المرسلين إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون إنى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين أتتركون فى ماههنا آمنين فى جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون قالوا إنما أنت من المسحرين ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم فعقروها فأصبحوا نادمين فأخذهم العذاب إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم . »

وقال تعالى فى سورة القمر : « كذبت ثمود بالنذر فقالوا أبشراً منا

واحداً نتبعه إنا إذا لفى ضلال وسعر أألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر سيعلمون غداً من الكذاب الأشر إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر فكيف كان عذابى ونذر إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتضر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر »

إن الاختلاف بين القصتين هنا أقوى منه هناك وليس لذلك من سبب إلا أن المقاصد بين قصتى ثمود فى كل من القمر والشعراء قد اختلفت ومن أجل ذلك اختلف فن البناء والتركيب وأصبحت هذه قصة وتلك قصة على الرغم من تشابه المواد واتفاق الأشخاص .

على أنا لو نظرنا إلى المسألة من وجهة نظر أخرى وهى أن هذه الأجزاء لا يمكن أن تعتبر أجزاء قصة واحدة إلا على أساس أن صاحب النص قد أراد هذا وأنه حين أنزله إنما أنزله على أنه جزء من قصة موسى أو إبراهيم أو غيرهما من الأنبياء وذلك مالم يقل أحد به بل ذلك مايخالف أسباب النزول التى يذكرها المفسرون أحيانا عند تفسيرهم هذه الأجزاء وذكرهم أسبابا ومناسبات لنزولها .

إن هذه الأجزاء نزلت عندما نزلت لاعلى أنها تكميل لقصة سابقة بل نزلت لأغراض مختلفة باختلاف الظروف والمناسبات ومن هنا بنيت بناية مستقلة لتحقيق القصد من إيرادها .

ثم إن هناك سبباً آخر هو هذا التكرار الكثير لأقاصيص بعض الأنبياء عليهم السلام ونستطيع أن نأخذ قصة لوط مثلا أو قصة شعيب أو قصة صالح وأن تفكر فيها من حيث توزيع هذه الأجزاء فستجد أن الكلام لايستقيم لأن الأحداث هى الأحداث والأشخاص هم الأشخاص فى كل

قصة وفى كل مكان ولن يسلمك هذا إلى القول بتوزيع الأجزاء فى هذه المواطن بحال من الاحوال .

إن المنهج السديد فيما نعتقد هو أن ننظر إلى هذه الاقاصيص على أنها أقاصيص مستقلة وليست من قبيل الأجزاء فهى عرض أدبى للحادث تختلف ألوانه بإختلاف أغراضه . كما يكون الشخص التاريخى الواحد وأحداث حياته مادة قصص متعددة تصاغ صوغا مختلفا لكشف جوانب مختلفة ومعانى متعددة للشخصية وأحداثها وتلك ظاهرة رقى فنى كبرى قدم القرآن مثلا منها صح معها التحدى لهذا التكرار الذى لم يفهم على وجهه حتى لقد كان مما يعاب على القرآن ويلتمس له الوجه ويطلب عنه الرد فيختلف فى ذلك القدماء والمحدثون ولا يكادون يقفون على الوجه الفنى له بل يلتمسون لذلك أشياء وراء الصوغ البلاغى والنظم الأدبى والنسج الفنى . ولو جعلوا هذا وجه الرأى فى تلك القصص وتنوعها لكان وجها من الصواب فى فهم القرآن القرآن الكريم وإعجازه وإنه لوجه نسأل الله له ذيوعا وبه مثوبة .

وفى ختام هذا الفصل نستطيع أن نقول إن هذا الموقف هو الذى يتفق والقاعدة الأصولية وهو الذى يجرى وصنيع القرآن المنسق فى الجمع بين الأقاصيص المختلفة فى السورة الواحدة وفى الجرى على طريقة واحدة فى بنائها وتركيبها وفاء بما اتحد فيها من المقاصد والأغراض .

ونعتقد أن المسألة بعد كل هذا أبين من أن تسبب لبسا وأسمى من أن تكون مبعث اشتباه فلنتركها إلى الحديث عن شىء آخر هو الموضوعات والأغراض .

الفصل الثالث

« المقاصد والأغراض »

لا ننكر أن فى القصص القرآنى توجيهات دينية لكل ماجاء به الإسلام من مبادىء وعقائد ولكل ماأنكره الإسلام من خلق وعادات وآراء زائفة وعقائد وعبادات باطله . لكننا مع كل هذا لانستطيع أن نعد هذه الأمور أغراضا حين ندرس أغراض القصص القرآنى ذلك لأن هذه الأمور كانت تأتى بين طيات هذا القصص وفى ثناياه . وهى فى هذا الوضع أو من هذا الجانب تشبه تماما تلك الآراء المنثوره أو هـذه الصور المبعثرة التى تجيء أثناء العرض القصصى فى كل قصة تكتب أو تلق فتسمع دينيه كانت أو غير دينيه . ومن هنا آثرنا جمع هـذه الأشياء ودرسها دراسة مستقله وسجلنا كل هذا على أنه القيم التى استطعنا الوقوف عليها فيما درسنا للقرآن من قصص وجعلناها فى الباب الأول ولم نبقها إلى هنـا لنعدها من الأغراض الفنيه أو الأدبيه .

ولعل الذى دفعنا إلى ما تقـدم هو أنا استطعنا أن نميز بين أمرين الأول مجموعات الآراء والأفكار والصور المعروضـه فى القصه . والثانى النتيجة التى تنتهى إليها القصة الواحـده أو تنتهى إليها مجموعة من القصص وردت فى سورة واحده وكان لها مقصد واحد له أثره فى طريقة البناء والتركيب وفى أسـلوب العرض وطريقـة توزيع العناصر القصصيه من أحداث وأشخاص وحوار وذلك من أمثال مجموعات القصص فى كل من السور الآتيه . الأعراف . هود . الشعراء . الصافات .

وإذا كنا قد جعلنا من النوع الأول دراسة القيم فإننا قد جعلنا من النوع الثانى دراسة المقاصد والأغراض .

ونحدد الوضع فنقول إن الغرض هنا هو المقصد الذى من أجله نزلت القصة القرآنيه وهو الذى من أجله بنيت على صورة خاصه وعرضت بأسلوب خاص

وإلى جانب هذه الأغراض على هذا الوضع توجد الوظيفة الإجتماعيه التى تؤديها القصة فى المجتمع وتخدم بها الحياةو الأحياء وهى وظيفه تؤديها جميع الفنون من موسيقى ونحت وتصوير ... الخ .

هذه الوظيفة نستطيع أن نعدها غرضا عاما للقصةأدته فى المجتمع العربى على اختلاف نحله وألوانه وعلى ما فيه من مؤيدين ومعارضين .

هذه الوظيفة التى تؤديها الفنون جميعها ومنها الأدب تنتهى عند عملتى الإيحاء والأفاضه فتلك وظيفتها الاجتماعيه وذلك هو دورها الذى تلعبه فى الحياه . ويستوى فى هذين — الإيحاء والإفاضه — الخالق المبدع والمشاهد المستمع وإن وقف دور الأول فى الغالب عند عملية الإفاضه ذلك لأن الحياة نفسها هى التى تقوم بدور الإيحاء .

وقد يكون من فضل الرازى علينا أن نذكر له هنا صنيعه الحسن فى دلالته على وجود هذه الوظيفة الإجتماعيه للفنون جميعها فى القصة القرآنيه حتى لقد كرر الحديث عن هذه الوظيفه كما هى عادته فى كثير من المواقف ونستطيع أن ننقل هنا بعض حديثه الذى ذكره عند تفسيره لقصة نوح من سورة يونس فقد قال رحمه الله « وثانيها ليكون للرسول عليه الصلاة والسلام ولأصحابه أسوة بمن سلف من الأنبياء فإن الرسول إذا سمع ان

معاملة هؤلاء الكفار مع كل الرسل ما كانت إلا على هذا الوجه خف ذلك على قلبه كما يقال المصيبة إذا عمت خفت .

وثالثها . أن الكفار إذا سمعوا هذه القصص وعلموا أن الجهال وإن بالغوا فى إيذاء الأنبياء المتقدمين إلا أن الله تعالى أعانهم ونصرهم وأيدهم وقهر أعداءهم كان سماع هؤلاء الكفار لأمثال هذه القصص سببا لانكسار قلوبهم ووقوع الوجل فى صدورهم وحينئذ يقلّلون من أنواع الإيذاء والسفاهه[1] . »

وتلك هى عمليات الإفاضة والأيحاء التى يقول بها المحدثون من النفسيين والتى تحدثوا عنها حين تحدثوا عن عمل العقل فى الفن وعن الوحى العاطفى والوحى الفكرى الذى يوحيه الفن . ونستطيع أن ننقل هنا تعريب عبارتين لواحد من هولاء لنفهم المسألة الفهم الواضح ولنستعين بها على فهم كل ما نصور فى هذا الباب من قيم فنيه .

يقرل وردز وورث فى كتابه «الحياة العقليه» بصدد حديثه عن الوحى الفنى العاطفى مايلى «إنك إذا مررت صدفة بالقطعه الفنيه النفيسه أثناء اجتيازك متحف الفنون الجميلة قد تحرك عواطفك بل ربما أثارت دموعك . وكذلك يقال عن القطعة الموسيقية الجيده التى ليس من الضرورى أن تكون محزنه .

أما لماذا تثار هذه العاطفه الخاصه فأمر لم يتقرر بعد . وهو أمر لانستطيع تحليله غير أن وحى الفن للعاطفه فى غير هذه الأحوال قابل للتحليل . فإن الشىء المحزن يوحى لباعث الحزن مباشرة والمضحك لباعث الضحك والمؤسف للخوف والهرب . كما أن الدافع الجنسى

---

(١) التفسير الكبير ج ٥ ص ١٥

يستثمر فى الرسم والنحت فى أحيان كثيره كما يستثمر فى الآداب .[١] » .

كما يقول بصدد الوحى الفنى الفكرى ما يلى « إن الفن قد يرضينا لأنه يوحى إلينا وحيا فكريا كما يتضح عند ما نتذكر أن كثيرا من الأعمال الفنيه العظيمه تحتاج إلى جهود فكرية لكى نفهمها ونرتاح إليها فيجب أن تكون منتبها كل الانتباه لتتمكن من متابعة رواية من روايات شكسبير كما أنك تحتاج إلى إيجاد مغزى لصورة زيتيه قبل أن تتمكن من التلذذ بها جيدا .

وقد لانفتكر عادة عند ما نرى صورة فنيه جميله أو نسمع قطعة موسيقيه بديعه أنها مسألة طرحت أمامنا للحل والحقيقة أنها كذلك . ويرجع تأثير القطعة الفنية الفكرى إلى أنها مسألة تحتاج إلى حل ولا يخفى أن إدراكنا مغزى قطعة فنية يحتاج إلى جهود وانتباه وإذا كانت المسألة المطروحة أمامنا صعبة جدا كان العمل الفنى جافا وإذ كانت سهلة كان تافها .[٢] » .

على أن القرآن الكريم نفسه قد لفت الذهن إلى هذه الوظيفة الإجتماعيه حين تحدث عن أثر الأقوال فى النفوس وكيف تستثير العاطفة ومن هنا حرص القرآن على أن تكون الأقوال بليغة مؤثره فى النفوس ليقوى الأيحاء ويشتد وذلك هو الواضح تماما من هذه الآيات .

قال تعالى « وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالآخره وإذا ذكر الذين من دونه إذ هم يستبشرون » .

---

(١) الحياة العقلية ٦٢٢

(٢) المصدر السابق ص٦٢٣

وقال تعالى « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل افأنبئكم بشر من ذلك النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير . »

وقال تعالى « وإذا ماأنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون وأما الذين كفروا فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون . »

وقال تعالى « أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا . »

ولعله من هنا فرض القرآن على المؤمنين نوعا من الرقابه ففرض عليهم ألا يسبوا آلهة المشركين حتى لايسب هؤلاء آلهتهم . قال تعالى « ولاتسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانو يعملون . »

كما فرض على النبى عليه السلام ومن اتبعه أن يعرضوا عن الخائضين فى آيات الله بل جعل الذين يستمعون إلى هؤلاء الخائضين من المنافقين قال تعالى « وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره وإما ينسيك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين . وقال تعالى « وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جنهم جميعا . »

ولا يفهم كل هذا إلا على أساس واحد هو أساس الوظيفة الإجتماعية

للفنون جميعها ومنهـا الأدب وإلا فلمـاذا فرض القرآن على النبي والمؤمنين هذا النوع من الرقابة ؟

المسألة كما ترى فى غاية الوضوح . ونعتقد أن من السهل أن ننتهى من كل ما تقدم إلى القول بأن المقصد العام أو الوظيفة الإجتماعيه من القصة الأدبيه يكون عادة الأفاضه أوالتنفيس والأيحاء وهى الأمور التى توجدفى القصة القرآنية ايضا .

وإذا كنا فى حالة البحث وبخاصـــة الجامعى لا نكتفى بأمثال هذه العموميات كان من الواجب علينـا أن نفصّـل ما أجملنا وأن نتناول هذه الأشياء بالعرض كما لحظناها فى قصص القرآن .

(١) وأول هذه الأغراض وأهمها من وجهة نظر القرآن نفسه تخفيف الضغط العاطفى عن النبى عليه السلام وعن المؤمنين ولقد كان هذا الضغط قويا عنيفا وكانت أسبابه واضحة جليه فلقد كانت أقوال المشركين وكانت أعمالهم التى يكيدون بها للنبى عليـــه السلام والقرآن الـكريم والدعوة الإسلامية هى السبب فى كل هذا الذى دفع النبى عليه السلام إلى أن يضيق قال تعالى « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون » وقال تعالى « قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولـكن الظالمـين بآيات الله يجحدون . »

كان أثر هذه الأقوال فى نفس النبي قويا فعالا وكانت تلك الخواطر التى أخذت مكانها من قلب النبى عليه السلام أو من قلوب الأتباع . قال تعالى « فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤن الـكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تـكونن من الممترين . »

على أن هذا الضغط العاطفى لم يقف عند حد البلبلة النفسية بل تجاوزها إلى ما هو أبعد مدى وأنفذ أثرا حتى لنرى النبى عليه السلام يدعو ربه وهو محنق يكظم غيظه ويضغط عواطفه تلك التى أوشكت على الانفجار. قال تعالى « فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم » وقال تعالى « لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين » وقال « فلعلك تارك بعض مايوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل . »

كان تخفيف هذا الضغط أو كانت الإفاضة عما بنفس النبى عليه السلام ونفوس الأنصار والأتباع مقصداً من مقاصد القصص القرآنى حتى لا تتزلزل النفوس وتترك الدعوة الإسلامية ولو حدث هذا لما قامت لها قائمة .

كانت عملية القص فى مثل هذه الظروف من العمليات التى يقصد من وراءها القرآن تثبت قلب النبى عليه السلام وقلوب المؤمنين وردّ الثقة إلى أنفسهم وبث الطمأنينة فى قلوبهم وإزالة الهم والقلق . وكانت النتيجة التالية لكل هذا هى ذلك الصبر الطويل والثبات الذى وصل بهم فى النهاية إلى النصر على الأعداء والمعارضين .

على أن القرآن نفسه قد صرح بهذا الغرض حين قال « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل مانثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » وحين قال « نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحى نساؤهم إنه كان من المفسدين ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين

ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون . »

وهذا الأمر هو الذى فطن إليه الرازى فيما نقلنا عنه من حديث .

والقصص التى نزلت من أجل هذا كثيرة فى القرآن الكريم ومنها مجموعة القصص التى وردت فى سورة هود . ولقد لفت القرآن كما هى عادته الذهن إلى المقصود من هذه المجموعة فى مواطن كثيره من السورة . فقد قال فى أولها « فلعلك تارك بعض مايوحى ... الخ » وقال فى آخرها « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ... الخ . »

ومن هذه القصص أيضا قصة موسى فى سورة طـه ولعله من أجل ذلك بدأ المولى سبحانه وتعالى هذه السوره بقوله « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى الرحمن على العرش استوى له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى وهل أتاك حديث موسى ... الخ » . إذ يمضى القرآن فى سرد القصه مبينا العقبات التى لاقاها موسى عليه السلام والصعاب التى وضعها فرعون فى طريقه ثم الصعاب والعقوبات التى تعاون فى توجيهها إلى موسى كلٌّ من قومه وأخيه والسامرى إلى أن ينتهى القص بقوله تعالى « كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا .

ومن هذه القصص أيضا قصة موسى فى سورة القصص ومجموعة من قصص سورة الأنبياء وأخرى من قصص سورة الصافات .

وإذ أردنا أن نختار قصة تمثل نفسية النبي عليه السلام فى موقفه من قومه وفى فتره من فترات تاريخه أصدق تمثيل فلن نجد أقوى وأعنف من قصة نوح فى سورة نوح تلك القصة التى تعرض لمشكلات النبي عليه السلام أول عهده بالدعوة الإسلاميه مشكلة مشكلة والتى تتمشى فيها حركة الأسلوب مع حركة العاطفة والتى تمثل الضيق الذى ألمّ به كما تمثل اتجاهه إلى الخالق سبحانه وتعالى ليخفف عنه البلاء وينقذ المؤمنين من هذه الجماعه الضاله المضله وهى جماعة الكافرين .

قال تعالى « بسم الله الرحمن الرحيم .إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم قال ياقوم إنى لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائى إلا فرارا وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلو أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ثم إنى دعوتهم جهارا ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ما لكم لاترجون لله وقارا وقد خلقكم اطوارا ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا قال نوح رب إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا ومكروا مكرا كبارا وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد أضلوا كثيرا مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون

الله أنصارا وقال نوح رب لا تـذر على الأرض من الـكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا رب اغفرلى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا .

فهنا قصة لها قيمتها الأدبيه ولو حاول النبى عليه السلام تصوير حاله فى قصة لما صورها بقصة أحسن مما اختار له الخالق سبحانه .

والتشابه هنا تام بين حالة نوح فى القصـه وحالة محمد صلى الله عليه وسلم نلحظه فى عناصر الدعوة من عبادة الله وطاعته كما نلحظه فى طريقة الدعوة من حيث الجهر والإسرار . وفى مقابلة القوم لنبى الله ودعوته بالنفور والفرار ثم بالاستكبار وجعل الأصابع فى الآذان . ثم فى الأشياء التى رغب بها فى الإيمان من الإمداد بالمال والبنين والأنهار والجنات . ثم فى الأشياء التى تلفتهم إلى عظمة الخالق سبحانه وتعالى من خلقهم أطوارا ومن خلق السموات السبع الطباق ومن جعل القمر نورا والشمس سراجاومن إنباتهم من الأرض وجعلها بساطا ليسلكوا فيها سبلا فجاجا . ثم فى مناجاته لربه تلك المناجاه التى يخبره فيها أنهم اتبعوا الأغنياء ومن لم يزدهم ما لهم وولدهم إلا خسارا . ثم فى تصويره لمكر هؤلاء الأغنياء أو القاده حين طلبوا من قومهم البقاء على ما هم عليه من عبادة للأوثان .

وهنا لابد من لفت الذهن إلى أن الأوثان هنا هى بعينها تلك التى كانت تعبد فى الجزيرة العربيه أول عهـد الجزيرة بالبعثة وبمحمد عليه السلام « ود . سواع . يغوث . يعوق . نسر » .

وأخيرا يكون التشابه أيضا فى اتجاهه نحو ربه ودعائه على الكفرة من قومه وطلبه من المولى سبحانه وتعالى أن يستأصل شأفتهم حتى ينجو العالم

قال تعالى « ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملائه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هـذا ولا يفلح الساحرون قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لـكما الـكبرياء فى الأرض وما نحن لـكما بمؤمنين وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمـل المفسدين ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملأه أن يفتنهم إن فرعون لعال فى الأرض وإنه لمن المسرفين ... الخ ».

ففى هذه القصة التى لم نتم تسجيلها هنا عرض لمواقف فرعون من موسى وقومه ومن السحرة انتهى بالنتيجة التى تنتهى بها القصة الشعبية فى كثير من الآداب العالمية من انتصار البطل والقضاء على الظالم الطاغية .

ونلمس نفس الروح من موقف عاد من نبيهـا . قال تعـالى « فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون فأرسلنـا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعـذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون » .

وليس من شك فى أن نتيجة العرض القصصى لأمثال هذه المواقف يلقى فى النفس الخشية والرهبة ويبث فيها الخوف عنـد ما تحس أن النتيجة هى العقاب وليس من نتيجة للخوف سوى الهرب والابتعاد عن مصدر العقاب وعند ذلك تكون النفرة وتكون الـكراهية .

(د) ومنها عبادة غير الله فقد كثر استثارة الانفعالات ضدها وتنفير الناس عنها وكان إبراهيم هو البطل الذى دار حوله أكثر ما نزل من قصص يهدف إلى هذه الغاية ويستعين بالوسائل الفنية التنفير والاحتقار.

دار بعض هذا القصص حول عبادة النجوم ودار بعضه الآخر حول عبادة الأوثان وكانت وسيلة إبراهيم إلى غايته أن يشكك القوم فيما يعبدون ويضع بين أيديهم صورا لهذه الآلهة وهى عاجزة العجز التام عن أن تنفع أو تضر كما أطلعهم على أنهم يعبدون ما ينحتون فهم الذين يصنعون هذه الآلهة ثم يقومون نحوها بضروب التقديس والإجلال. وإذا أردنا أن نختار إحدى القصص التى تصور هذه الناحية فلن نجد خيرا من قصة إبراهيم فى الشعراء «واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ماتعبدون قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لى إلا رب العالمين ألذى خلقنى فهو يهدين والذى هو يطعمنى ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين والذى يميتنى ثم يحيين والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين واجعل لى لسان صدق فى الآخرين واجعلنى من ورثة جنة النعيم واغفر لأبى إنه كان من الضالين ولا تخزنى يوم يبعثون يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم وأزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود ابليس أجمعون قالوا وهم فيها يختصمون تالله إن كنا لفى ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين وما أضلنا إلا المجرمون فما لنا من شافعين ولا صديق حميم فلو أن لنا كرة

فنكون من المؤمنين إن فى ذلك لآيـة وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم . »

إذ فى هذه القصه نلحظ موقف إبراهيم من أبيـه وقومه وهو يسألهم عما يعبـدون وإنهم ليجيبونه بأن معبوداتهم هى الأصنام . لـكنه يعود فيسأل عما تقدمه لهم من خير وما تيسر لهم من منافع . وإنه ليتجه بالسؤال نحو حاستين ضروريتين للمخلوقات فضلا عن الخالق هما الوسيلة للاستجابه وهما السمع والبصر . ويعجز القوم عن الإجابه ويعرفون أنه التقليد وأنهم ما عبدوها إلا لأنهم وجدوا آباءهم الأقدمين على هـذه الحال يعبدونها ويقومون نحوها بضروب التقديس والإجلال . وهنا تثور نفس إبراهيم ويعلن العداوة إلا لخالقه الذى يطعمه ويسقيه وإذا مرض فهـو يشفيه والذى يميته ثم يحييه والذى يطمع أن يغفر له خطيئته يوم الدين . وشتان بين الصورتين وبين النوعين من الآلهة . نوع يستجيب فينفع أو يضر ونوع لا يستجيب بل لا يسمع ولا يبصر . وليس هناك من دافع يدفع إلى النفرة والـكراهية من الأوثان أفضل من هذا ؟

بعد ذلك نلحظ تلك المناجاه التى يتوجه فيها إبراهيم نحو خالقه يدعوه فيها بتلك الدعوات الصالحات رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين واجعل لى لسان صدق فى الآخرين واجعلنى من ورثة جنـة النعيم واغفر لأبى إنه كان من الضالين ولا تخزنى يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وتنتهى القصة بتصوير مشهد فى الآخره مشهد يذيب القلوب ويبعث

على النفرة من عبادة الأوثان . مشهد يصور ذلك الخصام العنيف الذى سيكون بين الأصنام وعابديها ويصور الحسرة والألم على ما أضاعوا من أعمار وما تركوا من خير كما يصور الندم على اتباع المجرمين والاستماع إلى القادة المضلين . قالوا وهم فيها يختصمون تالله إن كنا لفى ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين وما أضلنا إلا المجرمون فما لنا من شافعين ولا صديق حميم فلو أن لنا كره فنكون من المؤمنين .

ثم تكون تلك الفقره التقليدية التى يختم بها القرآن قصصه فى هذه السوره وهى إن فى ذلك لآيه وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم .

وكنا نستطيع أن نمضى فى الحديث عن تلك الأشياء التى أثار القصص القرآنى النفوس ضدها كصد الناس عن سبيل الله وكالحسد . وكنا نستطيع أن نمثل لذلك ببعض القصص كقصة شعيب ويوسف وابنى آدم ولكنا آثرنا أن نكتفى بما تقدم لأن القصد كان التدليل على وجود هذا الغرض وضرب الأمثلة التى تثبت وتوضح ونعتقد أن قد بلغنا من ذلك مانريد .

ثالثا — والقصة كما تقوم بعملية الإفاضه وعملية الإيحاء أو تكوين عواطف قوية وصادقه مع أو ضد القيم الخلقيه والدينيه والاجتماعيه الموجودة فى البيئه أو المراد فرضها عليها تقوم بعمليه أخرى لاتقل عن هذه أثرا فى حياة الإسلام والمسلمين تلك هى بث الثقة والطمأنينة أو بذر بذور الخوف والقلق والاضطراب النفسى .

والقصة القرآنيه لها خطرها من هذه الناحية فهى التى تولد هذه الاشياء بعرضها صورا من الحياة الدينيه انتصر فيها الدعاة ومن آمن بهم وحاق

الدمار والهلاك بالقادة المعارضين ومن اتبعهم . وهذه الأمور ملحوظة فى مجموعات قصص سور الأعراف والشعراء والقمر .

ونلحظ أن عملية الخلق الفنى فى هـذه المجموعات تقوم على أساس اختيار بعض العناصر المعروفة والمتداولة من أخبار الأمم السابقة ومزجها وإخراجها فى الثوب الذى يؤثر الأثر المطلوب من إشاعة القلق والاضطراب فى قلوب الـكفرة والمشركين أو رد الثقة والطمأنينة لنفوس المؤمنين ومن هنا قال شعيب لقومه « ياقوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد . »

ونستطيع أن نأخذ بعضاً من قصص سورة القمر ولتكن «كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنـون وازدجر فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونا فالتقى المـاء على أمر قد قدر وحملناه على ذات ألواح ودسر تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر ولقد تركناها آية فهل من مدكر فكيف كان عذابى ونذر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر إنا أرسلنـا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر تنزع الناس كـأنهم أعجاز نخل منقعر فكيف كان عذابى ونذر ولقـــد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر كذبت ثمود بالنذر فقالوا أبشرا منا واحـدا نتبعه إنا إذا لفى ضلال وسعر أألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر سيعلمون غـدا من الـكذاب الأشر إنا مرسلوا الناقة فتنـة لهم فارتقبهم واصطبر ونبئهم أن المـاء قسمة بينهم كل شرب محتضر فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر فكيف كان عذابى ونذر إنا أرسلنا عليهم صيحه واحدة فـكانوا كهشيم المحتظر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر . »

إنا نلحظ التشابه التام فى بناية القصة فى هـذه المجموعة كما نلحظ أنها تبتدىء وتنتهى بعبارات تقليديه كذبت ... بالنذر ، فكيف كان عذابي ونذر وتوجيها تقليديا ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر . ثم نلحظ قصر الفقرات وتعاقب الجمل بعبارات مسجوعة ذات رنين قوى وقد كان القصد فيما نعتقد أن تؤثر هذه الموسيقى على الحس فيتضاعف الأثر النفسى ويقوى . وإذا ما ضممنا إلى ذلك ما تقوم به عمليـة التكرار القصصى من عرض صور سريعة ومتلاحقة بحيث لا يكاد الإنسان ينتهى من مشاهدة واحدة منها حتى تهجم عليه الأخرى قدرنا مقدار ما تشيعه هذه الصور من اضطراب وفوضى وقلق نفسى خشيـــة أن ينزل بهم الضرر أو ينالهم الأذى .

وكذلك نلحظ نفس العمليه فى قوله تعالى « الحاقه ما الحاقه وما أدراك ما الحاقه كذبت ثمود وعاد بالقارعه فأما ثمود فأهلكوا بالطاغيه وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتيه سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاويه فهل ترى لهم من باقيه . »

أما قصة شعيب « وإلى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ويا قوم أوفوا المـــكيال والميزان بالقسط ولا تعثوا فى الأرض مفسدين بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ قالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا مانشاء إنك لأنت الحليم الرشيد قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيق إلا بالله عليه توكلت

وإليه أنيب وياقوم لايجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود قالوا ياشعب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز قال ياقوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا إن ربى بما تعملون محيط وياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إنى معكم رقيب ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحه فأصبحوا فى ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود . » انتهى

فهذه قصة تجرى هينة لينة ويبقى البطل هادئا رزينا واستحق بحق ما أطلقه عليه بعض المفسرين من لقب خطيب الأنبياء فهو يحاور القوم ويداورهم لكن لا نأمة ولا حركه ولا انفعالا قويا عنيفا يدفعه إلى العبارات القاسيه التى يقطر الدم من الفاظ التهديد والوعيد فيها . وتمضى القصه حتى تنتهى إلى تلك النهاية السعيده بالنسبه لشعيب والمؤمنين وتلك النهاية المؤلمه بالنسبة للكفرة والمشركين .

وهكذا أكثر القصص كقصة موسى فى القصص وقصة يوسف أيضا فيها شىء من هذا وقصص الصافات إذ كل هذه القصص تصور النتيجة الأخيره لكل صراع فى سبيل المبدأ والعقيده وهى انتصار المؤمنين وخذلان المنكرين المخالفين « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار . »

رابعا — ونستطيع أن ننتهى من هـذه الأغراض بغرض أخير هو الإيحاء بأن محمدا عليه السلام رسول حقا وأن الوحى ينزل عليه ويبلغه أخبار السماء .

وتقوم العملية الفنية فى بعض هـذه القصص على أن حالة محمد عليه السلام تشبه حال غيره من الأنبيـاء كموسى وإبراهيم « إنا أرسلنا إليكم رسولا كما أرسلنا إلى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول » , إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسبـاط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما لـكن الله يشهد بمـا أنزل إليك أنزله بعلمه والملائـكة يشهدون وكفى بالله شهيدا . »

وعلى أن ما طلب إليه أو ما أوصاه الله به هو ماأوصى به الأنبياء من قبل « شرع لـكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيـــه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب . »

وفى هذين نستطيع أن نقول إن العرض كان من قبيل عرض الأخبار العاديه التى لم يقصد بها إلا لفت الذهن إلى قضية من القضايا .

والقصة التى نستطيع أن نسميها قصـة فيما يخص نواحى هذا الغرض هى تلك التى عالجت الأمر الثالث أو الأخير وهو معرفة أخبار السماء وأن الوحى ينزل عليه بها وأنه ما كان يعرفها من قبل .

والقصص التى تمثل هذا النوع كثيره منها قصة موسى فى القصص وقصة نوح فى هود وإذا حاولنا انتقاء قصة تفى بالغرض وتدل على المراد فلن نجد أفضل من قصة مريم فى آل عمران وهى « إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يامريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب إن الله يبشرك بحيي مصدقا بكلمه من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين قال رب أنىَّ يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر قال كذلك الله يفعل مايشاء قال ربى اجعل لى آيه قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثرا وسبح بالعشى والإبكار وإذ قالت الملائكة يامريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين يامريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين . ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون . »

فى هذه القصه نلحظ معرض صور فهناك صورة امرأة عمران ونذرها وصورة زكريا ودعائه وصورة عيسى ورسالته وتدخل مريم فى كل صورة من هذه الصور ومع كل شخصية من هذه الشخصيات حسب ما يتطلبه الموقف من ظهور تام جلى أو ظهور ناقص خفى .

نلحظ صورة أمرأة عمران تلك المرأه المتدينه التى تنذر ما فى بطنها لله وفى سبيل الله . ثم نلحظ تلك المسحه الخفيفه من الألم والحسره التى تطوف بنفسها على أن كانت المولودة أنثى وتلك العاطفه النبيله أو تلك الرقة وذلك الحنان اللذان يتجليان فى توجهها إلى الله من أجل مريم وقولها له « إنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم . » واستجاب ربها فانبتها نباتا حسنا وتقبلها بقبول حسن وجعلها فى كفالة رجل من رجال المحاريب هو زكريا . وهنا نلمح أثر غير العادى فى القصة من حوادث خارقه ومعجزات فمريم ياتيها رزقها من السماء وزكريا ينجب فيولد له يحي وامرأته عاقر وتلك إرادة الله والله يفعل مايشاء .

ولقد كان هذا الموقف من زكريا بعد توجهه إلى ربه وطلبه منه ذرية طيبة واستجابة ربه له ثم تعجبه من تلك الاستجابه محيرا للرازى فيما شرح من تفسير للقصه .

وتمضى القصة بعد ذلك ويكفينا منها هذه التوجيهات الدينيه التى تتصل بمرادنا وهى قوله تعالى « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون . » وقوله « ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم . » وقوله « إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم . »

وهكذا نستطيع أن نختم هذا الفصل دون أن يفوتنا لفت الذهن أو تكرير القول بأن أمور الدعوة الإسلاميه شرح عقائدها وتوضيح مبادئها كانت ترد فى ثنايا القصة وبين طياتها فى كل ما جاء فى القرآن من قصص وأنها كانت غرضا لكنه ليس بالغرض الذى تنتهى عنده القصه ويكون منها النهاية أو الختام وإنه من أجل ذلك جعلنا هذه التوجيهات من الموضوعات لا من الأغراض

الفصل الرابع

مصادر القصص القرآنى

والبحث عن مصادر القصص القرآنى تتمثل فيه خطورتان . الأولى تتمثل فى رجال قد تعرفهم بسيماهم . هم أصحاب الثقافة الضحلة والعقل الضيق والنظر القصير . هم أولئك الذين ألقت المقادير بمقاليد الثقافة العربية فى أيديهم فظنوا أنهم كل شىء وماهم بشىء . وأنهم أحق الناس لأن يبينوا للناس مايصح وما لايصح وما يجوز وما لايجوز . ولعله من هنا أخذتهم العزة فتحكموا فى البحوث علمية وأدبية . وراعوا فى هذا التحكم مصلحتهم وأهواءهم ولم يراعوا مصلحة العلم والمعرفة ولم يراعوا جانب الحق والصواب .

ومن طبع أصحاب العقول الضيقة والنظر القصير — إذا خولفوا فى أمر من أمورهم — أن يستثيروا العامة ويستعينوا بالغوغاء ، وهم فى كل ذلك إنما يسيرون على هدى سلف لهم غير صالح هم أولئك الجاهليون الذين كانوا يقولون لقومهم : لاتسمعوا لهذ القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون

وأصحاب العقول الضيقة حين تأخذهم العزة فى هذا الموقف قد يقفون ويقولون لك : إن البحث عن مصادر القصص القرآنى أمر يجب ألا يكون وتسألهم عن السر فيتمشدقون ويقولون : أليس القصص القرآنى بعض القرآن ؟ وأليس القرآن قد نزل من عند الله ؟ وإذن فكيف نبيح لإنسان مهما يكن حظه من العلم والمعرفة ، ومهما يكن قدره من العلو والرفعة أن يبحث عن مصادر ما أنزل الله؟ إنها الفتنة فدعوها نائمة ولعن الله من أيقظها

أما الخطورة الثانية فتتمثل فى أقوال للمستشرقين والمبشرين تدور حول مصادر القصص القرآنى . وهؤلاء المبشرون يحتفلون للحديث عن هذه المصادر أكثر من احتفالهم لأية مسألة أخرى من مسائل القرآن وسر هذا الاحتفال أن هذه المسألة هى الباب الذى ينفذون منه إلى الموازنة بين ماجاء فى القرآن الكريم من أحداث وأخبار وما جاء منها فى التوراة والإنجيل وغيرهما من كتب التاريخ والاخبار .

والمستشرقون والمبشرون فى موازناتهم ينتهون حتما إلى القول بأن فى القرآن مخالفات تاريخية وأن هذه المخالفات هى الدليل على أنه من عند محمد ، لانه لو كان من عند الله لتنزه عن هذه المخالفات ولما كان فيه منها كثير أو قليل . وهم يعللون هذه المخالفات بقولهم لاقوامهم : إن محمدا كان يتعلم هذه الاخبار من العبيد والارقاء ، أولئك الاعاجم الذين كانوا يخدمون السادة من قريش والذين أشار القرآن إلى واحد منهم حين قال : « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر . لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى » . وهؤلاء ماكانوا يعرفون من التاريخ الدينى للرسل والانبياء إلا شائعات . ذلك لأنهم بحكم رقهم أو بحكم فقرهم ماكانوا يستطيعون الحصول على نسخ من الانجيل والتوراه وكتب الاخبار ، فلم تكن المطبعة قد وجدت بعد ، ولم تكن النسخ المخطوطة من الكثرة بحيث تقع فى أيدى هؤلاء . لقد كانت نادرة ، وكان الحصول عليها يتوقف على مقدار مايدفع فى سبيلها من نقد ومن هنا كانت وقفا على الاغنياء[١] . ومن هنا أيضا كانت معارف الفقراء ومعارف العبيد والارقاء وقفا على الشائعات وليس يخفى أن ماكانت وسيلته المشافهه يكون دائما عرضة للتحريف وعرضة للتغيير والتبديل وعرضة للزيادة والنقصان .

(١) راجع هنرى سمث الكتاب المقدس والاسلام ص ٦٠ — ٩٧
وراجع ريشارد بل مصادر الاسلام ص ١٠٤ — ١٠٥

إن أخطاء هؤلاء فيما يقول المستشرقون والمبشرون هى التى ظهرت بوضوح فى المخالفات التاريخية التى جاءت فى قصص القرآن

والخطورة الأولى لاتلبث أن تزول حين نبين للرجعيين والجامدين ومن على شاكلتهم أننا فى هذا الصنيع إنما نجرى على سنن سلف لناصالحهم العلماء الأجلاء من رجال الفقه والدين .

ما الذى فعله المسلمون حين أرخوا للتشريع الإسلامى ؟ ألم يبحث الأصوليون عن مصادر هذا التشريع ؟ ألم يذكر هؤلاء الأصول الأولى لكثير من الأحكام الشرعية الواردة فى القرآن الكريم ؟ ألم ينته الأصوليون من بحث صلة الإسلام بغيره من الأديان السماوية إلى القول بأن شرع من قبلنا شرع لنا مالم يرد فى شرعنا ما يخالفه ؟ ألم يعلل المسلمون سر الاتفاق بين الأديان السماوية الذى تشير إليه الآية الكريمه : «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب » . وسر الاختلاف الذى تشير إليه الآية الكريمة : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما أتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » بعلل اجتماعية هى من النواميس الثابتة المستقرة ؟ ألم يكن من بين هذه العلل ما يربط الأحكام الشرعية بالبيئة ويجعل تغييرها وتبديلها أو نسخها يتبع العقل البشرى فى تقدمه والبيئة الاجتماعية فى ترقيها ؟(١)

فعل المسلمون كل هذا وفعلوا ما هو أخطر من هذا حين ذكروا أن

---

(١) راجع اخوان الصفاء ص٣٢ ج ٤ .

من عناصر الدين الإسلامى ما يرجع إلى العهد الجاهلى وأن رجالاً ذكروهم قد سنوا ما أبقى عليه القرآن الكريم وجعله عنصراً من عناصر الدين الإسلامى ومن ذلك توريث البنات وجعل حظ الذكر مثل حظ الأنثيين وتحريم الخمر والسكر والازلام وغيرها من أمور ذكرها صاحب كتاب المحبّر فى فصل عنوانه « من حكم فى الجاهلية حكما فوافق حكم الإسلام . ومن صنع صنيعا فى الجاهلية فجعله الله سنة فى الإسلام . »(١)

إن علينا أن نبحث مصادر القصص القرآنى كما بحث الأصوليون مصادر التشريع . بل نحن هنا أولى بالرعاية ذلك لأنهم يبحثون عن مصادر العناصر الدينية وهى عناصر لاتتأتى معرفتها لما فيها من غيبيّة إلا عن طريق الرسل والانبياء . ونحن إنما نبحث عن مصادر العناصر القصصية وهى عناصر من الوقائع البشرية التى يمكن معرفتها والوقوف عليها من غير طريق الرسل والانبياء . وإن علينا أن نضع بين يدى الرجعيين والجامدين ومن على شاكلتهم هذه الآية الكريمة التى تشير فى صراحة إلى أن القرآن الكريم كان يرد بعض تشبيهاته وأمثاله إلى مصادرها الاولى أو إلى التوراة والانجيل . (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار) . وإن علينا أن ننشد الحقيقه الدينية وأن نضع بين أيدى الناس نظرية سليمة تقوم أول ماتقوم على ملاحظة الظواهر المختلفة الموجودة فى القصص القرآنى

(١) المحبر لأبى محمد بن المتوفى سنة ٢٤٥ ص ٢٣٦ — ٢٤٣ ط حيدر آباد سنة ١٣٦١

وتفسيرها تفسيرا صحيحا وهى نظرية تحل جميع المشكلات التى وقف عندها المفسرون وتخرج بالقصص القرآنى من دائرة التشابه وترد جميع اعتراضات المستشرقين والمبشرين ، أما ماعلى قومنا فهو أن يفهموا رأينا ومذهبنا ، وأن يعرفوا الحق للحق ، وأن يعلموا أن الدين الإسلامى يفتح أمام العقل الطريق وينير له السبيل ويمكنه من أن يضرب فى التقدم الفكرى بسهم وافر ، إن علينا ماتقدم وإن على قومنا ماتأخر فإن أبوا إلا المضى فى العناد وإلا دعاء الامة الاسلامية إلى ذلك القول الذى كان يقوله الجاهليون من قبل : (لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) عمدنا إلى الصبر وإلى الدفاع عن الحقيقة الدينية والله يرعانا بفضله لأنه القائل : (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد يوم لاينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنه ولهم سوء الدار .)

والخطورة الثانية لاتلبث أن تزول حين نبين للناس حقيقة ما أنزل الله وحين نؤكد للمبشرين والمستشرقين أنهم أقاموا موازناتهم على أساس لم يقصد إليه القرآن الكريم ولم يجعله غرضا من أغراضه وأنهم حين ذهبوا إلى ماذهبوا اليه قد تحكموا فى الوسائل وفى النتائج العلمية لأن المخالفات التاريخية على فرض وجودها لايمكن أن تكون الدليل على أن القرآن من عند محمد لم يجئه به الوحى ولم ينزل عليه من السماء .

ان موازنات المستشرقين والمبشرين بين ماجاء فى القصص القرآنى من أخبار وماجاء منها فى التوراة والانجيل وغيرهما من كتب الاخبار والتاريخ يجب ألا تتم ويجب ألا تكون حتى يثبت قطعا أن القرآن الكريم قد قصد من عرض هذه الاخبار معانيها التاريخية وأنه اختار ما اختار من الأشخاص والأحداث والحوار على أساس أن هذا هو الحق وأنه الذى

يتمشى مع المنطق التاريخى . أما اذا كان قصد القرآن من قصصه ليس نشر الوثائق التاريخية وليس تعليم التاريخ فإن صنيع المستشرقين والمبشرين يصبح لاقيمة له ولا خطر منه

والمسألة الأولى من مسائل هذا الفصل هى أن القرآن الكريم فى قصصه لم يسلك مسلك التوراه فلم يقص أخبار الأنبياء والمرسلين كما قصت هى وإنما اختار بعضهم ليقص قصصهم وأعرض عن الباقى « ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك » وهو حين اختار لم يعمد إلى أخبار هؤلاء جميعها وإنما اختار من هذه الأخبار مايتفق وحالة الدعوة الاسلامية وموقف النبى من قومه ومن هنا لم يكن ذلك التفصيل الموجود فى التوراه . ثم إن القرآن الكريم لم يعمد إلى الزمن فيجعله العامل الأساسى فى ترتيب هذه القصص كما عمدت التوراه . إن كل ذلك إنما يدل على الفارق الأكبر بين قصص القرآن الكريم وبين قصص التوراه وهو أنها قد قصدت إلى التاريخ أما هو فلم يقصد إلا إلى العظة والعبرة وإلى البشارة والإنذار وإلى الهداية والإرشاد وإلى شرح مبادىء الدعوة الإسلامية والرد على المعارضة وإلى تثبيت قلب النبى عليه السلام ومن اتبعه وزلزلة نفوس المشركين والكفره وإلى غير ذلك من مقاصد وأغراض ليس منها التاريخ على كل حال .

والمسألة الثانية هى أن هؤلاء الذين اختارهم القرآن الكريم ليقص قصصهم لم يكونوا جميعا من البيئة العربية وإنما كانت الكثرة الكاثرة منهم من غيرها من بلاد المصريين والعبريين والسبئيين ومن بلاد اليونان والرومان وأقاموا فيها وأرسلوا إلى أهلها ووقعت أحداثهم فى هذه البلاد وجرى الحوار فيما بينهم وبين من أرسلوا إليهم بلغات هذه الأقاليم بل جرى الحوار أحيانا بلغات قد لانعرفها وقد لا يستطيع عقلنا القاصر أن يتصورها وإلا فبأى لغة تحدث الخالق جل وعلا وإلى كل من الملائكة وإبليس فى قصة خلق آدم وبأى

لغة تحدث إبليس إلى آدم فى قصة الخروج من الجنة . إنها الأمور التى لا نعرف منها إلا الفروض الخياليّة [١]

هذه الكثرة الكاثرة من الرسل والأنبياء عليهم السلام من أمثال آدم ونوح وإبراهيم واسحاق ويعقوب وسليمان وداوود ويوسف وموسى وأيوب ويونس والياس وغيرهم لم يكونوا مجهولين فى بيئاتهم الأولى وإنما كانوا معروفين تعرف كلا منهم بيئته وتقص أخباره على بنيها وتنقل هذه الأخبار إلا الأمم المجاورة ونعتقد أن ليس هناك من يدعى أن الذى قد حدث غير هذا وأن هذه الأمور من المسائل التى استأثر الله بعلمها وأنها من الغيب الذى لايعرفه إلا من يطلعه الله عليه لأن هذا القول مما يخالف طبائع الأشياء .

كانت هذه الأشياء من الأمور المعروفة فى بيئات الرسل عليهم السلام وفى البيئات التى انتقلت إليها هذه الأخبار والذى نريده الآن هو الوقوف على الصلة التى كانت قائمة بين هذه الأقاصيص وبين البيئة العربية عامه والمكية بصفة خاصة قبل البعثة المحمدية وقبل نزول القرآن فهل كانت البيئة تعرف من أمر هؤلاء الرسل شيئا أو كانت تجهل من أمرهم كل شىء ؟ إن الإجابة عن هذا السؤال من الخطورة بمكان ذلك لأنها التى ستحدد لنا المسائل التالية .

(١) المصدر الذى صدرت عنه هذه العناصر القصصية التى استخدمها القرآن الكريم فى بناء القصص فهل كانت العقلية العربية أو كانت بيئات أخرى هى بيئات الرسل والأقوام ؟ إن هذا هو الذى سيبيّن لنا مذهب

---

(١) راجع المستصفى للغزالى ص٣٢٨ـ٩ ٣ جـ ١

القرآن الكريم فى بناء القصة من حيث صلة العناصر بالبيئة فهل كان يذهب إلى بناء القصة على ماهو المألوف من العناصر أو على ماهو الغريب النادر ؟

(٢) الصنيع البلاغى الذى قام به القرآن والدور الفنى الذى لعبه فى تاريخ الحياة الأدبية للأمة العربية وذلك بدوره سيمكننا من الوقوف على أسرار الأعجاز فى القصص القرآنى ويجعلنا نفهم الحكمة التى من أجلها تحدى القرآن العرب بالسور المفتريات .

(٣) الوصول إلى قاعدة أو نظرية يمكننا تطبيقها من حل المشكلات ورد الأعتراضات والخروج بالقصص القرآنى من دائرة المتشابه ،

والصلة بين هذه الأقاصيص وبين البيئة العربية تتحدد بما يلى

(١) نوع نستطيع أن نسلّم منذ اللحظة الأولى بأنه كان مجهولا بالبيئة المكية جهلا يكاد يكون تاما وذلك هو النوع الذى نزل ليثبت نبوة النبى عليه السلام والذى جاء إجابة عن تلك الاسئلة التى يتوجه بها المشركون من أهل مُكة إلى النبى ليعرفوا صدق رسالته وصحة نبّوته . ومن أمثلته قصص أصحاب الكهف وذى القرنين . والظاهرة الجديرة بالتسجيل فى هذا الموقف هى أن هذا القصص لم يرد إلا مرة واحده فهو لم يتكرر تكرر غيره ولم يجىء لأغراض كثيرة ومختلفة . والتفسير الذى نرى أنه الصحيح بالنسبة إلى هذه الظاهرة هو أن القرآن الكريم ما كان يذهب مذهب أولئك الذين يبنون أقاصيصهم على ماهو الغريب النادر من العناصر إلا حين تدعو إلى ذلك ضرورة ملحه كأن تكون الغرابة نفسها هى المقصد والغرض كما هو الحال بالنسبة إلى الأقاصيص السابقة . أما حين لا تدعو إلى ذلك ضرورة من الضرورات فأنه لم يكن ليبعد عن العقلية العربية .

(٢) ونوع نستطيع أن نسلم أيضا منذ اللحظة الأولى بأنه كان معروفا فى البيئة العربية وذلك من أمثال هذه الأقاصيص التى وردت إشارات عنها فى الشعر الجاهلى كقصص أحمر عادأو أحمر ثمودوقصص الجن مع سليمان. أو تلك التى بدأت بالتعبير القصصى ألم تر فيما يذهب إليه المفسرون . (١)

والظاهرة الجديرة بالتسجيل فى هذا المقام هى أن أقاصيص هذا النوع قد كررت وجاءت فى اكثر من موطن ولأكثر من غرض وتشهد بذلك أقاصيص عاد وثمود أو هود وصالح . والتفسير الذى نعتقده صحيحا فى هذا المقام هو أن القرآن الكريم كان يذهب مذهب من يبنى الأقاصيص على ما هو المألوف أو ما هو المشهور المتداول من مسائل التاريخ وقضاياه .

(٣) نوع ثالث وهو الكثره قد يشتبه فيه القارىء فلايدرى أهو من النوع الأول أم هو من النوع الثانى وأمثلته أقاصيص آدم مع إبليس وقصة الخلق وقصص لوط ونوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وداوود وأيوب وغيرهم . وهو نوع نستطيع أن نصل إلى حقيقة الأمر فى الصلة بينه وبين البيئة العربية وبخاصة المكية بأمرين الأول طريقة القص والثانى التكرار .

(ا) أما طريقة القص فتشعرنا بأنه كان معروفا ذلك لأن القرآن كان يجرى فى القصص أول الأمر على أسلوب موجز فكانت أقاصيصه أشبه بالأشارات إلى ماهو المعروف . أو كانت لفتات إلى أحداث تعرفها البيئة ولا تجهل من أمرها شيئا وذلك هوالواضح تماما من مجموعة أقاصيص سورة القمر . ولعل مما يؤكد هذا الذى نذهب إليه أن القصص القرآنى كان يقصد

---

(١) راجع تفسير سورة الفجر فى كل من الرازى والكشاف

منه أول الأمر إلى الإنذار وإلى العظة والعبرة وكلها من المقاصد التي تطلب من الأحداث المعروفة حتى يكون للأنذار خطره وللعبرة أثرها .

(ب) وأما التكرار فأنه يؤدى إلى نفس النتيجة حين يفيد أن القرآن الكريم كان يجرى على مذهب أدبى معين هو بناء القصة القرآنية من مواد معروفة ومشهورة ومتداولة فى البيئة ذلك لأنه على فرض أن هذه المواد التاريخية ماكانت معروفة فى البيئة العربية قبل البعثة المحمدية ونزول القرآن فأن ما نزل منها أولا كان يكفى بالتعريف بها وما نزل ثانيا وثالثا ورابعا ... الخ يعتبر من قبيل بناء القرآن للقصة على ماهو المعروف أو المشهور المتداول .

ومما يؤيد ماذهب إليه أن دوران هـــذه المواد فى القرآن كان يتبع الشهرة فالشخصية التى عرفت واشتهرت والأحداث التى شاعت فى البيئة كانت أكثر المواد استخداما فى بناء القصة القرآنية . وعلى العكس من ذلك الأحداث التى لم تعرف والشخصيات التى لم تشتهر . ولعله من هنا كانت شخصيه موسى أكثر دورانا من شخصية أيوب مثلا بل أكثر من أى شخصية أخرى . ذلك لأن موسى كان نبى اليهود ولقد كان اليهود فى ذلك الزمن يسيطرون على البيئه العربية من حيث التفكير الدينى حتى لقد كان العرب أنفسهم يستشيرونهم فى أمر محمد عليه السلام . وهـــذه السيطرة تجعلهم يقصون كثيراً أخبار موسى وفرعون وقليلا أخبار غيره من الأنبياء

إن مذهب القرآن فيما يتضح من الظواهر السابقة هو بناء القصه القرآنية على عناصر يستمدها من البيئة أو من العقلية العربية وليس ذلك إلا ليكون القصص أشد تأثيراً وأقوى سلطانا وإلا ليمضى القص بين المألوف العادى من الأحداث والأشخاص والغريب النادر من الأفكار والآراء .

مصادر القصص القرآنى فى الغالب هى العقلية العربية فالقرآن لم يبعد عنها إلا فى القليل النادر ومن هنا جاءت فكرة الأقدمين القائلة بأن القرآن ليس إلا أساطير الأولين ذلك لأنهم نظروا فوجدوا الشخصيات القصصية والأحداث القصصية مما يعرفون ومن هنا أيضا كان كل من الرازى والنيسابورى فى غاية اللباقة والدقة فى الفهم حين فرّقوا بين جسم القصة وهيكل الحكاية وبين ماجاء فيها من توجيهات دينية وحين قالوا بأن هذه التوجيهات هى المقصد الأول من القصص القرآنى أما الجسم والهيكل فليست له قيمة كبيرة لأنه ليس المقصد والغرض وليس هناك مايمنع من أن يكون الجسم أو الهيكل من أساطير الأولين . ولعلك لازلت تذكر نص الرازى الذى وضعناه بين يديك فى الفصل الأول من هذا الباب عند حديثنا عن القصه الأسطوريه . فإنه النص الذى نشير إليه فى هذا المقام .

يأخذ القرآن كما ترى عناصره القصصية من البيئة العربية ويبنى من هذه العناصر أقاصيص هى التى نراها فى القرآن الكريم وهى التى نريد أن نشرح مافيها من صنيع بلاغى أو من عمل أدبى لعل هذا الشرح أن يبصرنا بما فى هذا القصص من أسرار للأعجاز .

والعملية الفنية أو الصنيع البلاغى فى القصص القرآنى قد يكون فى أسلوب القرآن وطريقته فى رسم الأشخاص وفى تصوير الأحداث وفى إقامة الحوار كما قد يكون فى توزيع العناصر القصصية وفى تحريكها الحركات التى تجعل كل عنصر قادرا كل القدرة على القيام بالدور الذى قدر له أن يلعبه فى القصة بحيث تنتهى كل هذه الأشياء إلى المقاصد المطلوبة والأغراض المرجوه . وهذه الألوان من العمليات الفنية ستجدها مشروحة فى الفصلين التاليين فصل العناصر القصصية وفصل تطور الفن القصصى

فى القرآن الكريم .

وقد تكون العملية الفنية فى أخذ عنصر واحد أو عناصر بأعيانها ورسمها من جوانب عديدة وتصويرها من مواقع مختلفه لتنتج من ذلك رسوم عديدة للشخصية الواحدة وصور كثيرة للحدث الواحد بحيث يكون لكل رسم طابعه الخاص ولكل صورة شخصيتها المميزة ثم فى بناء الأقاصيص المختلفة على هذه الرسوم وهذه الصور . إن هذا الصنيع الأدبى هو الذى نراه فيما سماه المفسرون بتكرار القصص وما هو من التكرار فى شيء وإنه الصنيع الذى يدل على هذه القدرة القادرة والقوة الباهرة التى لايستطيعها إلا خالق مبدع والذى يعجز عن القيام به من لايملك ناصية الفن ومن لاتجرى الأمور على يديه فى سهولة ويسر ولعله من هنا تحدى القرآن العرب وتحداهم بالسور المفتريات ذلك لأنه بنى أقاصيصه على مايعرفون من عناصر ، وبنى أكثر من قصة على عنصر واحد هو شخصية النبى أو الرسول وجعل لكل قصة غرضها الخاص ومقصدها الذى تصل حتما بالقارىء إليه وكل ذلك من الامور التى لايستطيعها إلا من يقول للشيء كن فيكون .

وقد تكون العملية الفنية فى شيء غير ماتقدم فى تخليص العناصر التاريخية من أشخاص وأحداث من معانيها التاريخية ، وفى تحميل هذه عناصر بالعواطف الإنسانية أو البشرية وبالمعانى الدينية والخلقية والاجتماعية وشرح هذا العمل الفنى أو الصنيع الأدبى يضطرنا إلى أن نمس المسألة مسا خفيفا عند الأصوليين والبلاغيين .

يذهب الأصوليون إلى القول بالحقيقة اللغوية والحقيقة الشرعية وهم يقصدون بالأولى معانى الألفاظ كما هى اللغة . وبالثانيه معانيها التى وضعها لها الشارع . ويضربون لهذا الصنيع المثل بألفاظ الصلاة والزكاة فلكل منهما

معناها فى اللغة ومعناها فى الشرع . ويذهب الأصوليون فى الحديث عن هذا الصنيع إلى أبعد من هذا فيذكرون لنا أن دلالة هذه الألفاظ على المعانى الشرعية لاتحتاج إلى القرائن(١)

ويذهب البلاغيون إلى أن أسرار الإعجاز الأدبى لاتكون فى المعانى اللغوية أو النحوية وهى المعانى الأولى وإنما تكون فى المعانى الثانية وهى التى يحمِّلها الأديبُ اللفظ أو العواطف البشرية التى تمتلىء بها الألفاظ والتراكيب ومن هنا يجعلون للنظم الفضل والمزيه .

يقول ابن الأثير «... موضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة وصاحبه يسأل عن أحوالهما اللفظية والمعنويه وهو والنحوىّ يشتركان فى أن النحو ينظر فى دلالة الألفاظ على المعانى من جهة الوضع اللغوى وتلك دلالة عامة وصاحب علم البيان ينظر فى فضيلة تلك الدلالة وهى دلالة خاصة والمراد بها أن يكون على هيئة مخصوصة من الحسن وذلك أمر وراء النحو والإعراب ألا ترى أن النحوى يفهم معنى الكلام المنظوم والمنثور ويعلم مواقع إعرابه ومع ذلك فإنه لا يفهم ما فيه من الفصاحة والبلاغة ومن هنا غلط مفسروا الأشعار فى اقتصارهم على شرح المعانى وما فيها من الكلمات اللغويه وتبيين مواقع الإعراب منها دون شرح ما تضمنته من أسرار الفصاحة والبلاغة .(٢) »

وواضح أن ابن الأثير يرى الغلط كل الغلط فى الوقوف على المعانى الأولى وشرح الكلمات اللغويه وتبيين مواضع الإعراب . ويرى أن الفهم

---

(١) فواتح الرحموت جـ ١ ص ٢٢١ — ٢٢٢

(٢) المثل السائر ص ٣

الدقيق النصوص الأدبيه إنما يكون فى الوقوف على ما فيها من اسرار الفصاحة والبلاغه أو بعبارة أخرى على ما فيها من فن أدبى جميل .

ويرى النقاد والأدباء أن الفضل والمزية فى الأدب إنما يكونان بايحاءات أدبيه وإشارات فنيه يحملها اللفظ كما تكون فى مقدار ما يعبر عنه من انفعالات ومايصور من أحاسيس ومن هنا نراهم يقدرون آثار الاستعمال وهى شىء بعد المعانى اللغوية كما نراهم يبحثون عن تلك الروح التى بثها الأديب فى اللفظ ومنحه بها الحيويه .

يبحثون عن كل ذلك ومن هنا لايرون الأدب أدبا ولا الفن فنا إلا بما فيهما من صور صادقة التعبير قوية التأثير ولعل هذا أو قريبا منه هو الذى أراده ابن الأثير حين قال «وبعد هذا فاعلم أن الألفاظ تجرى من السمع مجرى الأشخاص من البصر فالألفاظ الجزله تتخيّل فى السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوى دماثة ولين أخلاق ولطافة مزاج . [1] »

يبحثون إذا فى الأدب والفن عن سر الأعجاز ويرون هـذا السر فى غير المعانى الأولى يرونه فى المعانى الثانية أو فيما تحمل هـــذه المعانى من عواطف وتستثير من انفعالات .

والمسألة الآن فيما يخص المواد الأدبية فى القصص القرآنى هى هذه .

أقصد القرآن من عرضه لهذه المواد ــ أحداثا واشخاصا ـ الدلالة الأولى أى فائدة الخبر كما يقول البلاغيون وهى معرفة هذه الأحداث

(١) المثل السائر ص ٦٩

والأشخاص كما يقصد اللغوى معرفة مدلولات الألفاظ الأولى . أم قصد شيئا آخر وراء ذلك وبعده هو المعانى الثانية . هو تلك الآثار الأدبيـة فى النفس عن عرض هذه الأحداث والأشخاص عليها عرضا أدبيا فنيا لتثير الإنفعال وتوحى بالعبرة والعظة .

إن دراستنا لما سبق من قيم تاريخيـة ومن ألوان قصصية ومن مقاصد وأغراض تدل على أن القرآن لا يقصد بقصصه إلى المعانى الأولى ولا يريد تعليم الناس التاريخ أو شيئا عن الأحداث وإنما يقصد إلى المعانى الثانية وهى المعانى الأدبية أو البلاغية وهى الاستثارات العاطفية والصور الفنية الأدبية وغيرها مما يعده أصحاب الفنون والآداب ملاك الأدب وغاية البلاغة .

وإذا كانت هذه العواطف والانفعالات التى تستثيرها المواد الأدبية فى القصص القرآنى وهذه الأحاسيس التى تصورها هذه المواد تختلف فى موطن عنها فى آخر كان معنى ذلك أن القرآن يصنع فى هذه المواد ما يصنعه الأدب والفن دائما بالألفاظ وأنه يستخرج من هذه المواد الأدبية القصصية معانى أدبية تشبه استخراجه المعانى المجازية من المعانى الحقيقية والصنيع هنا هو بعينه الصنيع هناك وأن هـذه المواد وهـذه الألفاظ فى الصنيع الأدبى القرآنى سواء .

كان هذا الصنيع الأدبى من القرآن محيرا للقدماء حين لم يتبينوا الاسرار الخفية للصور المختلفة التى يعرض فيها القرآن هذه المواد الجزئية حين يحدث أو يقص عن هذا النبى أو ذاك فى هذا الموطن أو ذاك ومن هنا شكوا من التـكرار واجتهدوا فى تعليله وأخذوا أنفسهم بقاعـــدة الترادف أو الاتفاق فى المعانى وهذا هو الأمر الذى لا نرضاه .. وإذا كنا قد ضربنا لك

بعض المثل فيما مضى من قصص موسى وغيره فإنا نضع الآن بين يديك هذا المثال .

جاء فى كتاب درة التنزيل وغرة التأويل مايلى قوله تعالى: قال مامنعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين » وقال فى سورة الحجر : « قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون قال فاخرج منها فإنك رجيم . »

للسائل أن يسأل فيقول إذا كان هذا فى قصه واحدة ووقع فى كلام الله حكاية عما قال إبليس وعما قيل له عندما كان يظهر من عصيانه فلماذا اختلفت الحكايتان والمحكى شىء واحد ؟

والجواب ما قلته فيما قبله وأقوله فيما بعده من أن اقتصاص ما مضى إذا لم يقصد به أداء الألفاظ بأعيانها وإنما المقصود ذكر المعانى فإن الألفاظ إذا اختلفت وأفادت المعنى المقصود كان اختلافها واتفاقها سواء[1]

ونعتقد أن الإسكافى قد أحس بأصل المعنى بعد إذ وضع يده على الإشكال ولكنه لم يتهيأ له من وضوح التفسير الأدبى وسر العمل الفنى فى دلالة الألفاظ والمواد الأدبية مايحل به الإشكال ففصل بين اللفظ والمعنى فصلا تحكميا .

إن الأساس الذى يفسر به الخطيب هذه الظاهرة هو الأساس الذى

---

(١) درة التنزيل ص ١١٩ .

سبق أن نقلناه عنه فيما مضى من أنه لا اختلاف هناك . وواضح أن الإمام الفاضل إنما ينظر حينما ينظر إلى المعانى الأولى فى هذه السور وهذه التعبيرات والمعانى الأولى ليست فيما نعتقد من الأمور التى يقصد إليها من قصص القرآن .

إن ما يسميه البيانيون بالمعانى الثانية وما يسميه المحدثون اليوم بإيحاءات الألفاظ ووقعها النفسى والصور الأدبية هو المقصود من الدراسة الفنية لأمثال هذه النصوص وهذا هو المقصد بعينه الذى لا شك فى أن القرآن المعجز قد جعله الأساس الأول فى بناء القصة وتركيبها وفى جمع الأقاصيص فى السورة الواحدة . أى أن ذلك كله من صنيع القرآن ذو مغزى أدبى فنى ثم هو سر الإعجاز النظمى .

لنقرأ سويا هذه الآيات من سورة النمل . قال تعالى : « ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون قال ياقوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون قالوا تقاسموا بالله لنبيتنّـه وأهله ثم لنقولنّ لوليه ماشهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ومكروا مكرآ ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنادمرناهم وقومهم أجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون . ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين وأمطرنا عليهم

مطرا فساء مطر المنذرين قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون . » (١)

ولعلك قد لحظت أن هذه القصص لاتقصد إلى تصوير ما حدث بين ثمود ورسولها وبين لوط وقومه فذلك ليس هو الذى يقصد إليه القرآن لأنه ليس إلا المعانى الأولى لهذه القصص

إن مقصد القرآن ليس إلاجعل هذه الصور مصدرا للانفعال والتأثير وباعثا للأمن والخوف والرجاء .

إن الذى نقوله هو الأمر الذى يدل عليه القصد القرآنى وهو الذى يتضح من تلك التوجيهات الدينية التى تنطق بها الآيات ، فقد قال تعالى « وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم علىهم » وقال تعالى « لا تخف إنى لا يخاف لدى المرسلون » حين وجه الخطاب لمحمد عليه السلام فى الأولى ولموسى عليه السلام فى الثانية .

وإنى لأعتقد أن هاتين القصتين نزلتا فى الوقت الذى كان يأتمر فيه المشركون بالنبى عليه السلام وهذا هو الواضح من مناسبة قصة صالح ومن الحديث عن المدينة وما فيها من تسعة رهط وعن التقاسم والتبييت لكل ما حدث فى مكة إذ هذه تكاد تكون صورة لما حدث من قريش ويذكره المؤرخون وأصحاب السيرة عند حديثهم عن أسباب الهجرة . ثم هذا هو الذى يتضح من حديث قوم لوط ومحاولتهم إخراجه من القرية .

إن المقصود من هذه القصص فيما نعتقد ليس إلا بث الثقة والطمأنينه فى نفس النبى عليه السلام وأن الله حافظه وناصره ومهلك أعدائه

للإنسان أن هذه الحادثة غير تلك لا أن هذه الصورة غير تلك وذلك من جراء الزياده والحذف أولا ثم من جراء العواطف والأحاسيس ثانيا .

انظر فى هذه المواد الواردة فى القصتين فتجد فى الأولى وجاءه قومه وفى الثانية وجاء أهل المدينه ونجد فى الأولى قال ياقوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم وقال فى الثانية قال هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين فحذف الحديث عن الطهر وحذف المنادى وهو القوم . وقال فى الأولى فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد،وقال فى الثانية إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون واتقوا الله ولا تخزون من غير سؤالهم ذلك السؤال الذى يدل على الضيق بهم والأسى والأسف أن وقفوا منه هذا الموقف وهو قوله أليس منكم رجل رشيد .

إن الحادثة كما قلت واحده فلماذا اختلفت الصور واختلفت التعبيرات الفنية والأدبية .؟

الإجابة سهلة يسيرة لو جرينا على القاعدة التى نجرى عليها فى الدرس وهى الإعـــراض عن المعانى الأولى والبحث عن المعانى الثانية . إن القرآن هنا لا يقص ليعلم التاريخ أو يملى أخبارا وإنما يقص لأمور أخرى هذه الأمور هى التى تلعب دورها فى تصـــوير الحادثة أو المادة القصصية كما تلعب دورها فى فن بناء القصة وأسلوب عرضها .

ما الغرض من قصص سورة هود ؟

لقد ذكرنا هذا الغرض سابقا ولا بأس من أن نعيده هنا وهو تثبيت قلب النبى عليه السلام كما حدث القرآن فى ختام السورة « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك » وكان هذا التثبيت مخافة عدم المضى فى

الدعوة الإسلامية كما حدث القرآن فى مبدأ السورة « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا ... الخ » .

كان هذا هو السبب فى إنزال قصص سورة هود . وكان أسلوب القرآن فى التثبيت هو الأسلوب الفنى الذى يعمد إلى الأيحاء والإفاضة وليس ذلك إلا بعرض صور فنية تشبه هذا الموقف الذى يقفه نبي الإسلام عليه السلام . وكان أن اختار الله ما يحدث للرسل ليريه كيف مضت الأمور وكيف وقف هؤلاء الرسل مواقفهم التى تذكر لهم مع شدة حرصهم على هداية قومهم وشدة أسفهم على أن يقف منهم قومهم هذه المواقف .

وأظنك الآن قد فطنت إلى السبب الذى من أجله كانت العبارات هنا من العبارات التى تدل على قوة الصلة بين لوط وقومه فكانت العبارات جاءه قومه . قال ياقوم . هؤلاء بناتى هن أطهر لكم . أليس منكم رجل رشيد.

إن هذة العبارات هى التى تحمل من المعانى الثانية ما يتلاءم وحالة النبي عليه السلام وقصد القرآن .

إن هذا الصنيع مؤلم لاسيما من قومه . وإن أطهر لكم تدل على حرص لوط على إبعاد قومه عن الضلال بترغيبهم فى بناته وترغيبهم عن ضيفه وإن أليس منكم رجل رشيد لتدل على متانة هذه الصلة وعلى الحسرة والأسف أن يكون من قومه هذا الذى يحدث له ولضيفه . ولم يكن شىء من ذلك فى قصة الحجر لأن قصص هذه السورة نزلت لتشفى قلب النبى عليه السلام بقص القصص التى تطلعه على ألوان العذاب التى تنزل بالمكذبين من أقوام الرسل عليهم السلام ومن هنا قال وجاء أهل

المدينة فكأن الأمر لا يعنيه وكأنه لن يحزن أو يأسف على ما ينزل بهم من عذاب . وكان هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين فكأنه قد ضاق بهم إلى الحد الذى يجعله غير مهتم بهم من حيث الترغيب والتنفير ولم يكن فى القصة ياقوم من أجل هذا كما لم يكن ذلك الاستفهام المؤلم أليس منكم رجل رشيد .

إن هذه الألفاظ التى تدل على العطف والحنان والتى تدل على حرصه على هداية قومه لم ترد فى القصة الثانية لأنها قصة العذاب .

وهكذا ترى أن المعانى الأدبية والفنية هى مقصود القرآن من القصص وهى الأمور التى يبحث عنها وهى الأمور التى تجعل الحادثة الواحدة تصور بصور مختلفة ويعبر عنها بعبارات متفاوتة حسب الظروف والمناسبات .

وإذا كان الأمر هو ماوصلنا إليه وكانت هذه العواطف والانفعالات تختلف فى موطن عنها فى آخر مهما تتحد المواد الأدبية وتتشابه الأقاصيص القرآنية فإن النتيجة الحتمية لكل هذا هى الاعتراف بأن القرآن الكريم كان يخرج بهذه الأحداث عن أن تكون معبرة عن معانيها الأولى وهى المعانى التاريخية أو الإخبارية إلى المعانى الثانية وهى المعانى العاطفية أو الأدبية البلاغية أو الفنية وليس وراء ذلك إلا أن القرآن الكريم لم يقصد من أقاصيصه إلى التاريخ .

ويبقى من العملية الفنية أو من الصنيع البلاغى للقرآن فى أقاصيصه أمر لا بد من الحديث عنه ذلك الأمر هو طبيعة هذه العناصر القصصية ومدى صلتها بالحقيقة والواقع . فهل كان القرآن الكريم يستخدم هذه العناصر من أحداث وأشخاص على الصورة التى كانت تعرفها عليها العقلية العربية فى زمن النبى عليه السلام أو كان يرجع بها إلى الصورة التى وقعت بها الأحداث وكان عليها الأشخاص فى الزمن الذى وجد فيه الرسل ووقعت فيه الأحداث .

هل كان القرآن فى حديثه عن أحداث الفراعنة مع اليهود مثـــلا واستخلاصه العظة والعبرة منها يعتمد على صورة فرعون فى الذهن العربى أو كان يعتمد على تلك الصورة التى كانت فى أزمان فرعون وموسى فى أذهان اليهود والمصريين ؟

إن الأجابة عن هذا السؤال تتطلب منا بحث مسألة أخرى هى الأساس الذى كان يقيم عليه القرآن الكريم أسباب اختياره لهذه العناصر . فهل هو أساس المؤرخين الذى يقوم دائما على اختيار الحق والواقع وما يثبته العقل والمنطق ويقوم عليـه الدليل والبرهان أو هو أساس البلاغيين الذى قد لا يعنيه الحق أو الواقع بقدر ما يعنيه أن تكون هذه العناصر مما يستهوى النفوس ويأخذ بمجامع القلوب ويسيطر على الأفئدة والألباب ؟

إن القـدرة على التأثير هى الأساس الذى كان يلحظـه القرآن دائما فى نفوس المعاصرين للنبى عليـه السلام حين يستمعون إلى القرآن أو ما يلقى عليهم من كلام . ثم إنها الأساس الذى كان يعتمد عليه القرآن دائما حتى فى غير القصص من آيات الموعظه والعبرة وآيات الهداية والأرشاد .

اقرأ معى هذه الآية . قال تعالى « وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون » وقال تعالى « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والأنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون » وقال تعالى « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون » فسترى القرآن يصور نوعين من الناس . نوع تبلد منه الحس فعجز عن أن يتأثر

بالقرآن الكريم ومن هنا صوَّرَه القرآن على أنه قد فقد أدوات الحس التى تنقل إليه المؤثرات . ونوع قد رهف منه الحس ودق الذوق فانفعل وتأثر حين استمع إلى ما يتلى عليه من كلام الله . وأعتقد أنك قد فطنت إلى أن القرآن الكريم يلفت منا الذهن إلى أن القدرة على التأثر أساس قوى من أسس الإستجابة وأن القدرة على التأثير سرٌ قَوِى من أسرار الأعجاز .

ثم اقرأ معى هذه الآيات . قال تعالى « وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنو فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون » .

وأظن أنك قد لمست أن النفوس التى تأثرت قد ذهبت مذهبين فقوم زادتهم الآيات إيمانا وقوم زادتهم كفرا وقوم استبشرت نفوسهم وقوم ماتوا وهم كافرون . ومعنى ذلك أن الاستعداد النفسى فى الجماعات له دخل كبير لا على التأثر فحسب بل على تحويل الانفعالات التى تستثار إلى انفعالات سارة أو انفعالات مؤلمة . وكل ذلك حسب الظروف والمناسبات أو حسب الأهواء والشهوات .

ثم أقرأ قوله تعالى « وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخره وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون » فسترى المسألة فى غاية الوضوح .

وهذه آية أخرى نحب أن نقف عندها . قال تعالى « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا » . وواضح أن القرآن هنا يصـــور قوة الانفعالات

المستثاره وأن هذه القوة تشتد حتى تصل إلى حد الخطر أحيانا فهؤلاء يعرف في وجوههم المنكروهم يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا . وليس من شك فى أن القرآن يعطينا الصورة القوية الواضحة لتلك القوة الساحرة التى تكمن فى الألفاظ والعبارات وفى الصور الأدبية وأن هذه العناصر الأدبية لها قوتها الساحرة فى تحريك الأفراد والجماعات وأنها سلاح قوى فى يد من يجيد إستعماله ولعله من هنا ذهب القوم إلى أن القرآن سحر مبين .

ولعلك الآن تستطيع أن تفهم لماذا نهى القرآن المسلمين عن سب آلهة المشركين حتى لا يسب هؤلاء الله عدوا بغير علم . ولعلك تستطيع أن تفهم أيضا لماذا نهى القرآن النبي عليه السلام أو طلب إليه الإعراض عن الذين يخوضو فى آيات الله . بل لعلك قد فهمت لماذا جعل القرآن المسلمين الذين يستمعون إلى الخائضين فى آيات الله مثلهم فى التهديد بالعقاب .

أعتقد أن السبب واضح بَيِّنٌ وهو أن القرآن يعرف للفن الأدبى قدرته القاهرة وقوته الساحرة وأنه من هنا يخشى على المسلمين خطر أحاديث المنافقين والكافرين . قال تعالى «ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذالك زينا لكم أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون » وقال تعالى « وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين » وقال تعالى « وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا » .

اعتقد الآن أنك لن تختلف معى فى كل ما تقدم وأنك تتفق معى على أن تأثير المواد الأدبية فى النفوس يستمد قوته من علاقة هذه المواد بالبيئة وباستعداد النفوس وأن كل هذا من الأمور التى صورها لنا القرآن الكريم.

على أن المسألة لا تقف عند هذا الحد فالأمر فى القرآن أبعد غورا وأكثر عمقا ذلك لأن القرآن الكريم كان يلحظ هذه العلاقة التى يفرضها المجتمع ويقيمها بين الألفاظ والنفوس أو بين الصور الأدبية والنفس البشرية عندما يختار هذه المواد ليعبر بها عما يريد .

انظر إلى الأساس الذى أقام عليه اختيار هذه المواد الأدبية قال تعالى « إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانا مريدا» وقال تعالى « فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون أصطفى البنات على البنين ما لكم كيف تحكمون أفلا تذكرون » أفلا ترى أنه اعتمد فى التنفير من عبادة الملائكة على ما كان معروفا فى البيئة العربية مما هو من مسلماتها من كراهية للأنثى .

أعتقد أنك تسلم بهذا وأنك تسلم أيضا بأن هذا الاختيار لمثل هذه المواد الأدبية لا يكون له هذه الجدوى فى بيئة ليست الأنثى فيها هذه المنزلة النازلة . تصور أنه هذا القول قيل فى بيئة تعرف للأنثى حقها وتقدرها قدرها وتعتقد أنها أجمل ما خلق الله .

ومثل ذلك تماما ما صنعه القرآن فى اختيار المواد الأدبية المنفرة من جهنم خاصة تلك التى تعتمد على الصفات البشعة لألوان الطعام والشراب .

قال تعالى « خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين فليس له اليوم ههنا حميم ولا طعام إلا من غسلين لا يأكله إلا الخاطئون » وقال تعالى « إن جهنم كانت مرصادا للطاغين مآبا لابثين فيها أحقابا لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا إلا حميما وغساقا جزاء وفاقا » وقال تعالى « ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم فمالئون منها البطون فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الهيم » وقال تعالى « أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم إنا جعلناها فتنة للظالمين إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم طلعها كأنه رؤوس الشياطين فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم » .

وأعتقد أنك قد لمحت أن بعض هذه الأدوات الأدبية منفر لا فى البيئة العربية فحسب وإنما فى غيرها من البيئات . ومعنى ذلك أن القرآن الكريم كان يختار من الصور الأدبية ما يمكن أن يكون من الصور العالمية التى تظل موحية والتى يظل لها فعلها القوى الساحر مهما تختلف البيئات وتتابع الأزمنة .

ولعلك أيضا قد لمحت أن هذا الأساس يقوم حتى ولو كانت هذه الصلة بين الأدوات الأدبية والنفس البشرية من الصلات التى تقيمها الجماعة على صور يخترعها الوهم ، يخلقها الخيال وإلا فما بال القرآن ينفرهم من شجرة الزقوم بتشبيهه طلعها برؤوس الشياطين .إن هذه الصورة من الصور الخيالية الوهمية باعتراف القدماء من المفسرين . جاء فى الكشاف ما يلى « وشبّه برؤوس الشياطين دلالة على تناهيه فى الكراهة وقبح المنظر لأن الشيطان مكروه مستقبح فى طباع الناس لاعتقادهم أنه شر محض لا يخلطه خير

فيقولون فى القبيح الصورة كأنه وجه شيطان . كأنه رأس شيطان . وإذا صوره المصورون جاءوا بصورته على أقبح مايقــدر وأهوله . كما أنهم اعتقدوا فى الملك أنه خير محض لاشر فيه فشبهوا به الصورة الحسنة قال الله تعالى ماهذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم وهذا تشبيه تخييلى[١] »

وجاء فيه أيضا مايلى : « لايقومون إذا بعثوا من قبورهم إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان . أى المصروع . وتخبط الشيطان من زعمات العرب يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع . والخبط الضرب على غير استواء كخبط العشواء فورد على ماكانوا يعتقدون[٢] »

وهنا نستطيع أن نضع بين يديك مرة أخرى هـذا القول من أقوال الأستاذ الإمام . قال رحمه الله : « وقد يأتى فى الحكاية بالتعبيرات المستعملة عند المخاطبين أو المحكى عنهم وإن لم تـكن صحيحة فى نفسها كقوله : « كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » وكقوله: « بلغ مطلع الشمس » وهذا الأسلوب مألوف فإننا نرى كثيرا من كتاب العربية وكتاب الأفرنج يذكرون آلهة الخير والشر فى خطبهم ومقالاتهم لاسيما فى سياق كلامهم عن اليونان والمصريين القدماء ولا يعتقد أحد منهم شيئا من تلك الخرافات الوثنية[٣] »

وأعتقد الآن أن المسألة قد وضحت فى ذهنك وأنها كادت أن تستقر فى نفسك وأنك لن تستطيع أن تنكر أن القرآن يجعل الأساس فى اختياره للمواد الأدبية من صور وألفاظ القدره على التأثير كما أنك لن تنكر أن هذه القدرة إنما تستمد قوتها وحيويتها من تلك الصلة التى يربط فيها المجتمع بين هذه

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٢٦٤

(٢) الكشاف جـ ١ ص ١٧٦

(٣) المنار جـ ١ ص ٣٩٩

الأدوات وبين النفوس وأن هـذا هو الأمر الذى فطن إليه القدماء من علماء البلاغة عند حديثهم عن الدلالات . جاء فى عروس الأفراح ما يلى : « أى لايشترط اللزوم العقلى الذى لايتصور انفكاكه بلى لو اقتضى العرف العام أو الخاص ملازمة أمر لآخر وأطرد ذلك بحيث صار استحضار أحدهما مستلزما للآخر كفى ذلك فى اللزوم الذهنى ...... وأعلم أن اللزوم العرفى هو اصطلاح البيانين لاحتياجهم إلى ذلك فى الاستعارة والكناية والتشبيه أما المنطقيون فإنما يعتبرون اللزوم العقلى [1] » . وجاء فى كتاب الإيضاح مايلى : « ولا يشترط فى هـذا اللزوم أن يكون مما يثبته العقل بل يكفى أن يكون مما يثبته اعتقاد المخاطب إما لعرف أو لغيره[2] »

وها هم القـدماء كما ترى يجعلون لاعتقاد المخاطب أثره فى بناء الجمل الأدبية ويقولون فى غير تحرج إن القرآن كان يجىء على مايعتقد الجاهليون وما يزعمون . وهو قول يشعرنا بأن مافى الأقاصيص القرآنيه من أحداث وأخبار لايلزم أن يكون هو التاريخ ذلك لأن القرآن الكريم قد يكتفى بما تزعمه العرب وما تعتقده فى صوره البيـانيه المعجزه وليس يخفى أن القصة صورة من صور البيان العربى وأن القرآن الكريم قـد اكتفى فى قصص أصحاب الكهف وذى القرنين بما كان يعتقده المخاطبون . ومن هنا لا يصح لمعترض أن يعترض على أن فى الأقاصيص القرآنيه مخالفات للحق والواقع أو مخالفات للتاريخ .

إن اختيار القرآن لبعض الرسل دون بعض ، وإطالته الحديث عن بعض الرسل دون بعض ، وتأخيره تصوير بعض الأحداث من حياة

(١) شروح التخليص ج ٣ ص ١٧٣ (٢) المصدر السابق ج ٣ ص ٣٧٢

الرسول وتعجيله بتصوير بعض ، واختياره لغة المرسل إليهم لتكون لغة الوحى والرساله . إن هـذا كله هو الدليل على أن القرآن لم يقصد من قصصه إلى التاريخ .

وإن الصنيع البلاغى للقرآن الذى يقوم على تخليص العناصر القصصيه من أحداث وأشخاص وأخبار من معانيها التاريخيه وجعلها صالحة كل الصلاحيه لاستثارة العواطف والانفعالات حتى تكون العظة والعبره ، وتكون البشارة والأنذار ، وتكون الهداية والإرشاد ، ويكون الدفاع عن الدعوة الأسلاميه والتمكين لها حتى فى نفوس المعارضه . إن هذا كله لهو الدليل القوى على أن القرآن الكريم لا يطلب منا الأيمان برأى معين فى هذه المسائل التاريخيه . ومن هنا يصبح من حقنا أو من حق القرآن علينا أن نفسح المجال أمام العقل البشرى ليبحث ويدقق وليس عليه من بأس فى أن ينتهى من هذه البحوث إلى ما يخالف هذه المسائل ، ولن تكون مخالفة لما أراده الله أو لما قصد إليه القرآن لأن الله لم يرد تعليمنا التاريخ ولأن القصص القرآنى لم يقصد إلا الى الموعظة والعبره وما شابههما من مقاصد وأغراض .

إن المخالفة هنا لن تكون إلا مخالفة لما تتصوره البيئة ولما تعرفه عن التاريخ ولم يقل قائل بأن ما تعرفه البيئة العربيـــه عن التاريخ هو الحق والصدق . ولم يقل قائل بأن المخالفه لما فى أدمغة العرب من صور عن التاريخ هى الكفر والألحاد . بل لعل هذه المخالفة واجبة حتى يكون تصحيح التاريخ وخلوه من الخيالات الأوهام .

أعتقد أنك قـــد فطنت إلى ما نريد تقريره من نظرية تحل مشكلات المفسرين وترد اعتراضات المستشرقين والمبشرين . وأعتقد أنك قد فطنت

إلى أن هذه النظريه ليست إلا القول بأن ما بالقصص القرآنى من مسائل تاريخية ليست إلا الصور الذهنيه لما يعرفه المعاصرون للنبى عليه السلام عن التاريخ ومايعرفه هؤلاء لايلزم أن يكون هو الحق والواقع. كمالايلزم القرآن أن يصحح هذه المسائل أويردها إلى الحق والواقع لأن القرآن الكريم كان يجىء فى بيانه المعجز على مايعتقد العرب وتعتقد البيئة ويعتقد المخاطبون.

وهنا قد تقول ما يقوله الكثيرون من أن هذا التفسير يعارض بعض نصوص القرآن. فهو يعارض وصف القصص القرآنى بالحق. ويعارض آيات الافتراء. ولذا يجب علينا أن نقف عند هـــذه الآيات لنريك أنه لاتعارض. ونستطيع أن نبدأ بأيات الافتراء فنقول: - (١) إن آيات الافتراء لاتتعلق بالمواد الأدبية القصصية ولا بما فى هذه القصص من صور للأحداث والأشخاص من حيث هى صور وإنما تتعلق بالقرآن كله من حيث هو كتاب دينى وصلته بالخالق سبحانه وتعالى أو بمحمد عليه السلام تتعلق بصاحب النص أهو الخالق أنزله على النبى عليـه السلام أم هو النبى وهو الذى يفترى حين ينسب هذا القرآن أو هذه القصص إلى الله.

ذلك هو الأمر الذى تدور حوله هـذه الآيات وهو الأمر الذى لم يغب عن بال القـدماء من المفسرين ثم هو الأمر الواضح من نصوص القرآن الكريم.

جاء فى الرازى عند تفسيره لقوله تعالى: «فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته .. الخ»، ما يأتى: «واعلم أن تعلق هذه الآية بما قبلها ظاهر وذلك لأنهم التمسوا منه قرآنا يذكره من عند نفسه ونسبوه إلى أنه إنما يأتى بهذا القرآن من عند نفسه ثم إنه أقام البرهان القاهر الظاهر على

أن ذلك باطل وأن هذا القرآن ليس إلا بوحى الله تعالى وتنزيله فعند هذا قال فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا . والمراد أن هذا القرآن لو لم يكن من عند الله لما كان فى الدنيا أحد أظلم لنفسه منى حيث افتريته على الله ولما أقمت الدلالة على أنه ليس الأمر كذلك بل يوحى من عند الله تعالى وجب أن يقال إنه ليس فى الدنيا أحد أجهل ولا أظلم على نفسه منكم لأنه لما ظهر بالبرهان المذكو وكونه من عند الله فإذا أنكرتموه كنتم قد كذبتم بآيات الله فوجب أن تكونوا أظلم الناس[1] » .

ثم هو واضح من نصوص القرآن الكريم الظاهرة فهم مثلا حين يقولون إن هو إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون يرد عليهم بقوله تعالى : « قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض . » ومعنى ذلك أن القرآن قد نزل على النبي عليه السلام من عند الله فلم يكن إفكا افتراه وأعانه عليه آخرون .

والقرآن حين يطلب إلى النبي عليه السلام أن يجيب عن شبهات القوم فى هذا الافتراء يقول له قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا ويقول قل إن افتريته فعلىّ إجرامى ومعنى هذا أن القرآن من عندالله ولا يستطيع النبي عليه السلام أن يفتريه لأن العقاب جزاء المفترين ولا يملكون هم له من الله شيئا .

والقرآن حين يتهدد النبي عليه السلام وخصوم القرآن الكريم يقول ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا وقال أوحى إلى ولم يوح إليه شىء .

---

(١) الرازى ج ٤ ص ٥٧١ .

والقرآن يصور قيلهم فى شأن النبى عليه السلام والآيات على هـذا الأساس : « ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل مايكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا مايوحى إلىّ » « وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها» « إنما يعلمه بشر » ... الخ

المسألة كما ترى تتعلق بهـذا الجانب فى مسألة القصص القرآنى وهو جانب إضافة هذه القصص إلى الله مع أنها من عند محمد عليه السلام . ورد القرآن عليهم ينصب على هذا الجانب أيضا وهو أن هذه القصص من عند الله وليست من عند محمد عليه السلام .

وهنا نستطيع أن نقول إن الواجب العلمى يفرض علينا ألا نعمم فى الحكم كما يفرض علينا أن نقف فى بحثنا عن هذه المسـألة فى القصص القرآنى عند الحد الذى أراده القرآن الكريم وقصد إليه . إن قصـة يوسف عليه السلام تكاد تكون القصة الوحيدة التى ختمت بآية يجرى فيها الحديث عن الافتراء . وهذه هى الآية . قال تعالى : « لقد كان فى قصصهم لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » . ومن البين أن القرآن يدل بهذه القصة وما فيها من أحاديث عن إخوة يوسف عليه السلام على أن القرآن قد نزل من السماء . ويحسن بنا أن نقف بالآيات عند هذا ولا تعـدوه إلى القصص وهل ما تصوره هو الواقع أو صور الأحداث . لا تعدوه إلى هذا لأنه أمر مسكوت عنه وأقل ما يجب هو التوقف حتى يأذن الله .

(٢) أما الآيات التى يصف القرآن فيها بعض القصص بهذه الصفة

« بالحق » من مثل قوله تعالى إن هذا لهو القصص الحق . وجاءك فى هذا الحق . فليس فيها مايدل دلالة قطعية على أن المقصود بهذه الصفة إنما هى الأحداث التاريخية . بل لعل رأيا آخر هو الراجح وهو أن هذه الصفة إنما تطلق على المقصود من هذه القصص من أمثال التوجيهات الدينية والأغراض القصصية.

ونعتقد أنه من المستحسن أن نضع بين يديك هذا النص الذى يشرح حال هذه الصفة حينما تجىء مع الأمثال . جاء فى المنار ما يلى « ثم ذكر تعالى أن الناس فى ذلك فريقان « فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم » لأنه ليس نقصا فى حد ذاته وقد جاء فى كلامه تعالى فهو ليس نقصا فى جانبه وإنما هو الحق لأنه مبين للحق ومقرر له وسائق إلى الأخذ به بما له من التأثير فى النفس » (١)

وأظنك توافقنى على أن وصف المثل بالحق لا يقصد منه بأية حال أن هذه الأمور التى يقصها المثل قد وقعت خارجا وحدثت فعلا وأن هذه الصور التى يقصها القرآن الكريم هى الصور التاريخية الكاملة لما يروى فى الأمثال . وإنما يقصد بهذه الصفة كما شرحها صاحب المنار أن الأمثال تشرح الحقائق وتقررها فى الأذهان .

وهذا هو الذى نريد منك ان تفهمه من الصفة حينما يوصف بها القصص القرآنى . جاء فى الرازى عند تفسيره لقوله تعالى «إن هذا لهو القصص الحق» ما يلى « والقصص هو مجموع الكلام المشتمل على مايهدى إلى الدين ويرشد الى الحق ويأمر بطلب النجاة »

---

(١) المنار ج ١ ص ٢٣٧

وجاء فيه أيضا عند تفسيره لقوله تعالى « تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين مايلى » واعلم أن قوله تلك إشارة الى القصص التى ذكرها من حديث الألوف ... الخ أما قوله بالحق ففيه وجوه أحدها أن المراد من ذكر هذه القصص أن يعتبر بها محمد صلى الله عليه وسلم وتعتبر بها أمته فى احتمال الشدائد فى الجهاد كما احتملها المؤمنون فى الأمم المتقدمين.

وواضح من النصين أن الصفة تتعلق بالتوجيهات الدينيه ولا تتعلق بالأحداث وجاء فى الرازى أيضا عند تفسيره لقوله تعالى وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق مايلى «... ثم انه تعالى بين أنه جاء فى هذه السوره أمور ثلاثه الحق والموعظة والذكر . اما الحق فهو إشارة الى البراهين الداله على التوحيد والعدل والنبوه » .

ويذهب القاضى عبد الجبار عند حديثه عن قوله تعالى « إن هذا لهو القصص الحق » إلى أنه يجوز هذا الوصف لا باعتباره وصفا لجسم القصه وهيكل الحكايه أو ما فيها من عناصر تاريخيه وإنما باعتباره وصفا لما فيها من انفعالات عاطفية تدفع إلى الأيمان بما هو الحق من مسائل الدين ولذا نراه يعلق على الآية الكريمه بقوله « لأن ما ينذر ويخوف يوصف بذلك » (١)

ونعتقد أن هذا القول من الوضوح بحيث لا يصعب إدراكه أو التسليم به . لا يقصد من هذا الوصف إذا ما فى القصص من جزئيات للأحداث وإنما يقصد منه وصف التوجيهات الدينيـــه الواردة فى القصة أو وصف المقاصد التى من أجلها نزلت الأقاصيص والأمثال .

ونستطيع الآن أن نلخص لك ما نريد الاتفاق عليه من مسائل هذا الفصل (١) المقصود من القصـــه هو استخراج الحقيقة الدينيه التى يرمى

(١) تنزيه القرآن عن المطاعن ص ٦٢

إليها القرآن الكريم من القصة الواحده أو من مجموعة القصص الواردة فى سورة واحده .

(٢) أن استخراج هذه الحقائق يحتاج إلى نوع معين من الفهم هو ذلك الذى يجرى عليه العمل فى تحليل القصص الآن تحليلا أدبيا . وهو الأمر الذى أشار إليه الزمخشرى عند حديثه عن التمثيل وعن القصة التمثيليه وذكرناه أول هذا الباب .

(٣) أن الأحداث والأشخاص فى القصص القرآنى من المواد التى يكون بها البناء وهى مواد قد تكون تاريخيه وقد تكون خياليه وقد تكون صورا لما فى الأذهان أى معتقدات ومسلمات .

(٤) أن هذه المواد كانت موجودة فى البيئة غالبا. وأن القرآن كان يعتمد على هذا الموجود كما هو وبحالته التى كان عليها لأن القصص القرآنى لم يجىء للتاريخ حتى يصحح الأوضاع وإنما جاء للعظة والعبره وفى هذه تكفى المعتقدات والمسلمات .

(٥) أن باب التأويل مفتوح لمن يعوزه مثل هذا التأويل إلى الاطمئنان .

الفصل الخامس

العناصر فى القصة القرآنية

وتوزيع العناصر فى القصة القرآنية يجرى على ما يجرى عليه التوزيع فى كل قصة أدبية قصيره أو فى كل أقصوصه . وهو يجرى فى أمثال هذه الأعمال الفنيه على أساس إبراز عنصر واحد وإلقاء الضوء القوى عليه حتى يحل مكان الصداره من القصة أو الأقصوصه وحتى يكاد ماعداه من عناصر أخرى أن يختفى أو يهمل . ومن هنا لن نجد عناصر الأحداث والأشخاص والحوار مجتمعة فى كل قصة قرآنيـة وموزعة التوزيع الذى يجعل لكل عنصر منها قيمته وخطره فى القصه بحيث لو اختفى لاختل التوازن الفنى وانهدّ ركن من أركان البنـاء القصصى . لأن هـذه الأشياء إنما تتطلب فى الروايه وفى القصة الطويله .

نعم قد نجد هذه العناصر مجتمعه وموزعة التوزيع الفنى فى قصة كقصة يوسف عليه السلام ولـكن ذلك لم يكن الـكثير الغـالب لأن القرآن كان يجرى فى قصصه على أساس الاقصوصة لا القصة الطويلة .

وتوزيع العناصر فى القصة القرآنيه كان يتطور بتطور الدعوة الاسلاميه ويجرى معها فى مضمار ومن هنـا كنا نرى عنصر الأحداث هو العنصر البارز فى الأقاصيص التى يقصد منهـا إلى التخويف والأنذار . وعنصر الأشخاص هو العنصر البارز فى الأقاصيص التى يقصد منها إلى الإفاضة والأيحاء أو إلى تثبيت قلب النبى عليـــه السلام ومن اتبعه من المؤمنين .

وعنصر الحوار هو العنصر البارز فى الأقاصيص التى يقصد منها إلى الدفاع عن الدعوة الأسلامية والرد على المعارضة وهكذا .

وتطور الفن القصصى فى القرآن له فصل خاص به هو الفصل التالى وهناك سنرى هذه المسائل مشروحة بتفصيل ولكنا فى هذا الموقف نريد أن نختار أقاصيص قرآنيه تدور حول شخص واحد لنرى منها كيف كانت عملية توزيع العناصر فى القصه تتبع الدعوة الأسلاميه فى تقدمها وترقيها .

والقصص التى وقع عليها الاختيار هى قصة صالح أو ثمود فلنقرأ أمنها سويا هذه الأقاصيص. قال تعالى « كذبت ثمود بطغواها إذ أنبعث أشقاها فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقباها . » وقال « كذبت ثمود بالنـــذر فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفى ضلال وسعر أألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر سيعلمون غدا من الكذاب الأشر إنا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر فكيف كان عذابى ونذر إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر »

فى هاتين القصتين الواردتين فى سورتى الشمس والقمر ـ وهما من أوائل ما نزل من القصص حول ثمود وصالح ـ أن العنصر القصصى البارز هنا هو تصوير الأحداث ، ذلك لأن القصـد من القصة تخويف المكذبين . وليس أبلغ من تصوير الأحـــداث ، التى تلم بالأمم والمصائب التى تنزل بالجماعات من بث الرعب وإشاعة الخوف ليعدل الإنسان عن موقفه ويترك العناد والتكذيب ، ومن هنا برز عنصر الأحداث واختفى ماعداه ، واختير لأنه الملائم لحال النبي أول عهده بالدعوة وإعلانه أنه رسول رب العالمين .

وإذا ما انتقلنا خطوة إلى الأمام وقرأنا قصص الأعراف والشعراء ، والأولى « وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هـذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الارض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون من الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا ياصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين »

والثانية ـ « كذبت ثمود المرسلين إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون إنى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين أتتركون فيما ها هنا آمنين فى جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين ألذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون قالوا إنما أنت من المسحرين ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم فعقروها فأصبحوا نادمين فأخذهم العذاب إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم » . لحظنا تطوراً فى فن البناء فنلحظ تعدد الشخصية . فهنا صالح وثمود وهناك ثمود فقط ، ونلحظ الحوار بين النبى وقومه حينا ، وبين بعضهم وبعضهم الآخر أحياناً ، ونلحظ المسرفين الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون وهم

الذين يصدون الناس عن الإيمان : ونلحظ إلى جانبهم الأحداث وتحديهم للنبي بطلب البينات .

نلحظ إذا تعدد العناصر وإن ظل بعضها مهملا كصور الأشخاص . ونلحظ أن العنصر الجديد القوى هو عنصر الحوار . ونلحظ أن موضوع هذا الحوار هو الأمور التى كانت تشغل الذهن العربى وقت إرسال محمد عليه السلام ونزول القرآن الكريم كما نلحظ أن الحالة الموصوفة من فرقة وانقسام وصد الناس عن سبيل الله أو اتباع النبى إنما هى بعينها التى كانت تعانيها الجزيرة العربية فى ذلك الوقت بالذات .

وإذا ما انتقلنا إلى قصة النمل وهى : « ولقد أرسلنا الى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون قال ياقوم لم تستعجلون بالسيئه قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون فانظر كيف كانت عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون » . تبين لنا إلى أى حد كان القصص يجارى الدعوة الإسلامية ويتغذى بلبانها ، إذ نلحظ هنا عنصرا جديدا هو عنصر الغرائز والعواطف وعنصر القضاء والقدر فقد بلغ الضيق حدّه بعد إذ تجاوزت الخصومة منتهاها وتطير القوم برسولهم إذ أصبح نذير فرقة وانقسام وكذب القوم الرسول وتحدوه ، فلم تأتهم البينه ولم ينزل بهم العذاب وإذا فليس هناك سوى طريق واحدة هى طريق الاغتيال ، ومن هنا كانت المؤامرة التى

يراد بها القضاء على الرسول وكان المتآمرون تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون . وهنا يتدخل القدر فينجو النبى عليه السلام ويحل بقومه العذاب .

وهكذا نستطيع المضى فى التدليل على الصلة بين الأثر الفنى والبيئة أو بين الدعوة الإسلامية وقصص القرآن ، وأن توزيع العناصر كان يتبع هذه الظروف فى كل قصة . ولكننا نكتفى بهذا القدر ونبدأ فنستعرض العناصر فى القصص القرآنى كله ونترك الحديث عن توزيعها فى القصة الواحدة إلى تحليلنا لقصة يوسف فى فصل تطور القصة فى القرآن .

ونبدأ فنعترف بأنا سنهمل الحديث عن الموضوعات من أفكار وآراء . فقد سبق أن تحدثنا عن كل هذا فى حديثنا عن القيم فى الباب الأول من هذا البحث ، ولذا نبدأ بالحديث عن الأشخاص .

أولا — الأشخاص

(١) الأشخاص .. ولن نقصد هنا بالشخصيات الأناسىّ من عباد الله فنقصر الحديث عليهم ، ذلك لأنا إنما نقصد إلى كل شخصية وقعت منها أحداث وصدرت عنها عبارات وأفكار أدت دوراً إيجابيا فى القصة وعلى هذا فسيكون من الشخصيات فى القصص القرآنى الملائكة والجن ، وسيكون منها الطيور والحشرات ثم الأناسىّ من رجال ونساء .

(٢) ونبدأ هنا بالحديث عن الطيور والحشرات ، ونلحظها فى قصة واحدة هى قصة سليمان من سورة النمل ، فنرى الهدهد ونرى النملة ونلحظ أنهما يقومان بما يقوم به الشخص العادى فى القصة .

أما النملة فتحذر أخواتها وتخيفهم من أن ينالهم الشر أو يصيبهم الأذى ولذا تطلب إليهم دخول المساكن حتى لا يحطمهم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين .

وأما الهدهد فيقف من سليمان موقف المطلع الذى يعرف من أخبار الممالك الأخرى ما يجهل النبى والذى يعرف من أمر الملكة وقومها ما يُعدّ بالأمر الغريب لدى سليمان ، حتى ليعتذر عن تخلفه أو غيابه بقوله أحطت بما لم تحط به وإليك المنظر من القصة . قال الله تعالى : « وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ماتخفون وما تعلنون ألله لا إله إلا هو رب العرش العظيم قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين إذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تولى عنهم فانظر ماذا يرجعون قالت ياأيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم ... الخ . »

فالهدهد هنا يقظ متنبه لكل مايدور من الملكة وقومها من الناحية الدينية وهو يعجب من عبادتها للشمس وسجودها لها من دون الله ويرى أن الشيطان هو الذى زين لها هذا العمل وصدها وقومها عن السبيل ، بل يمضى إلى أبعد من هذا فيلفت الذهن إلى الأسباب التى تدفع إلى عبادة

الله من إخراجه الخبء ومن علمه بما يخفى الناس وما يعلنون .

وهذا الموقف من الهدهد هو الذى أوقع الرازى وغيره من المفسرين فى حيرة فقد نالهم العجب من صنع الهدهد الذى يدل على رجاحة عقله ونفاذ بصيرته وفهمه الأمور وفطنته الى مالم يفطن اليه سليمان . يقول الرازى فى تفسيره للقصة : « البحث الأول إن الملحدة طعنت فى هذه القصة من وجوه ...... وثالثها كيف خفى على سليمان عليه السلام حال مثل تلك المملكة العظمية مع مايقال إن الجن والانس كانوا فى طاعة سليمان وأنه — عليه السلام — كان ملك الدنيا بالكلية ... ومن أنه يقال إنه لم يكن بين سليمان وبين بلدة بلقيس حال طيران الهدهد الا مسيرة ثلاثة أيام . رابعا من أين حصل للهدهد معرفة الله تعالى ووجوب السجود له وانكارهم سجودهم للشمس وإضافته الى الشيطان وتزيينه » .

ولو أن هؤلاء درسوا المسألة على أساس من الخلق الفنى للشخصيات ، وأنها ماوجدت الا لتؤدى أدوارها فى القصة لما وقعوا فى تلك الحيرة ، ولما كان دفاع واتهام .

على أن المسألة قد تحتاج — من الجانب الفنى — الى شىء من الإيضاح فنقول نلحظ فى القصص الحديث أن بعض الأدوار الرئيسية فى القصة تسند الى الحيوانات ويكون الحيوان فى مثل هذا القصص هو الشخصية الرئيسية التى تتوجه نحوها الأنظار وتلتفت اليها القلوب والأسماع . ولعلنا لم ننس بعد شخصية « لاسى » ذلك الكلب الذى يضطلع بالبطولة فى قصة « لاسى يعود الى منزله » وهى بطولة تتجلى فيما يرتسم على وجهه من انفعالات إنسانية ، وفيما يحركه من عواطف بشرية ، ويتحرك لاسى فى القصة كما

يتحرك الأنسان النابه الممتاز الذى يملك رقة عواطف البشر ودقة إحساساتهم ويمتاز بما يمتاز به النابهون من ذكاء .

على أن المسألة لاتقتصر على الأدب الحديث ، ففى الآداب القديمة ألوان وألوان . ويكفينا من الأدب العربى كتاب « كليلة ودمنه » ففيه المثل الصالحه للدلالة على ما يقوم به الطير والحيوان من عمل ، وما ينطقان به من حكم وأمثال .

أعتقد أن السبب فيما وقع فيه هؤلاء المفسرون من حيره هو اضطرابهم بين مايشاهدون ويلمسون، وبين مايذهب إليه بعضهم من حديث عن عقيدة الخوارق والمعجزات .

(ب) الأرواح الخفيه : والملائكة ناس من الناس يجيئون فى الصورة البشرية ولا يفطن إليهم غيرهم إلا بعد مرحلة من مراحل القصه ، كذلك كانوا فى قصة إبراهيم ولوط وكذلك كانوا فى قصة زكريا ومريم . ونعتقد أن قد كان ذلك فى قصة داود عليه السلام .

جاء الملائكه إبراهيم ولوطا فى زى الأضياف وقام كل منهما بما يعتقد أنه الواجب نحو ضيفه . أما إبراهيم فقد قام بواجب الإكرام ، فقدم الطعام وأما لوط فقد خشى المعرة وخاف العاقبه لولا أن هدأته الملائكة . وفى كلا الموقفين كان إبراهيم ولوط يجهلان القوم وأنكرهما الأول . وهذه قصة كل منهما مع الملائكه قال الله تعالى « ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ فلما رأى أيديهم لاتصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لاتخف إنا أرسلنا الى قوم لوط وامرأته قائمه فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب قالت

ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشى عجيب قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط إن إبراهيم لحليم أواه منيب ياإبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ولما جاءت رسلنا لوطا سىء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال ياقوم هؤلاء بناتى هن اطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم مانريد قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا اليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ماأصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد » .

وجاء الملك مريم فى زى البشر فاضطربت وخافت واستعاذت بالرحمن « واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا قالت إنى إعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا قال كذلك ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا . »

وهكذا يسمع زكريا النداء وهو فى المحراب ويدخل الملائكة على داود فيفزع ويقوم الملكان هاروت وماروت بما يقوم به البشر فيعلمان الناس السحر ويقولان لهم إنما نحن فتنه .

يوماً أو بعض يوم . قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير » .

ونستطيع أن نذكر حكماً عاماً فنقول : إن القصص الذى يقصد فيه إلى التأثير بالأحداث تبرز فيه الحادثة ويختفى ما عداها ومما يختفى الأسماء وصور الأشخاص .

(٢) فى القصص الذى يبرز فيه عنصر الحوار ، والذى يقصد فيه القرآن إلى بث الآراء والأفكار وتقرير الدعوة الإسلامية ، ثم هدم العقائد الباطلة ومحو أثرها من النفوس يسلك القرآن طريقين : فهو حيناً يهمل الأسماء إهمالا تاماً ويكتفى ببعض الصفات المبهمة أو العامة ، وذلك من مثل قوله تعالى : « واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون وما علينا إلا البلاغ المبين قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون . وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغنى عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون إنى إذاً لفى ضلال مبين إنى آمنت بربكم فاسمعون قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون ياحسرة على العباد ما يأتيهم من

رسول إلا كانوا به يستهزئون » وقوله : « ثم أنشأنا من بعدهم قوماً آخرين فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون . وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ماهذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مبعوثون هيهات هيهات لما توعدون إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين . إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً وما نحن له بمؤمنين قال رب انصرنى بما كذبون قال عما قليل ليصبحن نادمين فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعداً للقوم الظالمين » وقوله : « ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب . قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمنّ على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون . وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ » .

وهو حينا آخر يذكر الأسماء ولكنها فى هذا الوضع تشبه الرموز التى جىء بها ليتمكن القارىء أو السامع من متابعة الأفكار والوقوف على مجرياتها، ولذا نلحظ فى أمثال هذه القصص ذكر القوم أولا، ثم ذكر الألفاظ العامة المبهمة كلفظ المرسلين، ثم اسم البطل الرسول. وذلك هو الواضح تماما فى قصص سورة الشعراء : فتراه يقول كذبت عاد المرسلين، وهكذا. ونستطيع أن نكتفى هنا بمثل واحد لأنا نقلنا فى الفصول السابقة كثيرا من قصص هذه السورة. يقول الله تعالى « كذبت قوم نوح المرسلين إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون إنى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين فاتقوا الله وأطيعون قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون قال وما علمى بما كانوا يعملون إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون وما أنا بطارد المؤمنين إن أنا إلا نذير مبين قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين قال رب إن قومى كذبون فافتح بينى وبينهم فتحا ونجنى ومن معى من المؤمنين فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون ثم أغرقنا بعد الباقين إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم ».

وعلى الجملة فالذى نستطيع قوله فى مثل هذا القصص الذى يقصد فيه إلى الآراء والأفكار، والذى يتخذ فيه الحوار وسيلة إلى ذلك، إن عنصر الشخصية فيه يكاد أن يختفى لولا بعض الأسماء وبعض الصفات، وإن العنصر القوى الذى يسير جنبا إلى جنب مع عنصر الحوار إنما هو عنصر الأحداث وإن يكن العنصر الثانوى.

(٣) أما فى القصص الذى يقصد فيه إلى التنفيس والإفاضة فإن الأمر يتغير تماما لا فيما يتعلق بالأسماء فقط، بل فيما يتعلق بتوزيع العناصر،

إذ تبرز الشخصية بروزا قويا وإن تفاوت هـذا بتفاوت الظروف والأحداث . ونفصل هـذا الأمر فنقول ، قلنا فى تدليلنا على أثر البيئة فى اختيار الأشخاص ، وذلك عند حديثنا عن مصادر القصص القرآنى ، إن القرآن كان واقعيا فى اختياره لعنصر الأشخاص ، وإنه كان يكثر الحديث عن الأنبياء المعروفين ويدير حولهم القصص ، وذلك كموسى وإبراهيم ، وإنه كان يهمل الآخرين حتى ليكون الحديث أو القصة بضع جمل ، وذلك كقصص أيوب ويونس . وقلنا إن القرآن كان يختار من الأحوال ما كان معروفا ، ولكنه حين ينطق الأشخاص ينطقهم بما يتفق والدعوة الإسلامية. ومن هنا نستطيع أن نقول إن الأحداث التاريخية المعروفة هى التى تميز إحدى الشخصيات عن الأخرى وإنه كلما كثرت الأحداث تميزت الشخصية ، ووضحت الصورة ، وكلما قلت جرى الأمر على العكس ، وجاءت الشخصية مبهمة غامضة حتى ليصح أن يقال إنهـا شخصية كل رسول ، وإنها شخصية النبى العربى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى هذا الأساس نستطيع أن نميز صور موسى وإبراهيم وعيسى من أحداثهم ، وموقفهم من أقوامهم ، أو من أرسلوا إليهم فى سهولة ويسر . ونستطيع أن نميز شخصية نوح وصالح ولوط أحيانا ، ولا نستطيع أن نميزها أحيانا أخرى . والواقع أنه لولا بعض الأحداث المميزة ، كالطوفان والناقة والعجوز ، لأصبحت صور هؤلاء مبهمة غامضة .

أما صور هود وشعيب مثلا ، ومحاورتهم الأقوام فهى الصورة العامة التى تصلح لكل رسول كما قلنا ، وهى التى تصلح للنبى العربى عليه السلام .

ويجب ألا ننسى فى هـذا المقام ما سبق أن ذكرناه عن حرية الفنان فى حديثنا عن الصلة بين الأدب والتاريخ ، إذ قلنا هناك إن هذه الحرية تتسع

كلما أوغلنا فى القـدم ، أو اخترنا من الشخصيات ما كان مجهولا ، إذ عند ذلك لا تتعارض الصور الذهنية مع الصور الفنية ، فيكون الإيحاء أقوى ، والتأثير أشد ، وهذا هو الذى نلاحظه بالضبط فى تصوير القرآن لشخصيات الرسل والأنبياء فقد كان يعطى لنفسه الحرية التامة حين تكون المعلومات العامة عن الشخصية معدومة أو فى حكمها ، فيتحدث عن الأمور التى يقصد إليها فى الدعوة الإسلامية . ومن هنا كان يتجاوز الأسماء والصفات الحسية ويجنح إلى الإجمال والإبهام ليؤثر الأثر المطلوب .

فإذا كانت تصرفات الأشخاص حيال الأحداث التى تلم بهـم تدلنا على عقليتهم ومزاجهم ، كان من المتوقع أن نرى فروقا بين هـذه الشخصيات على هذا الأساس وهذا هو الذى حدث عند القدماء ، فنلحظ أنهم يقولون عن شعيب وموقفه من قومه فى تفسيرهم لسورة هود إنه خطيب الأنبياء ، ونلحظ شيئا مثل هذا من حديثهم فى أسباب النزول لآية « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض » عن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى حين يقولون — « أخبرنا أبو بكر أحمـد بن الحسين الحيرى قال أخبرنا حاجب بن أحمد قال حدثنا أبو معاوية عن الأعشى عن عمرو بن مره عن أبى عبيدة عن عبد الله قال : لما كان يوم بدر وجىء بالأسرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما تقولون فى هؤلاء الأسرى ؟ فقال أبو بكر : يارسول الله قومك وأصلك استبقهم واستأن بهم لعل الله عز وجل يتوب عليهم ، وقال عمر : كذبوك وأخرجوك فقدمهم فاضرب أعناقهم ، وقال عبد الله ابن رواحة : يارسول الله انظر واديا كثير الحطب فأدخلهم فيه ثم اضرب عليهم نارا ، فقال العباس : قطعت رحمك ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجبهم ثم دخل ، فقال ناس يأخذ بقول أبى بكر وقال ناس يأخذ بقول عمر وقال ناس يأخذ بقول عبـد الله ، ثم خرج عليهم فقال : إن الله

عز وجل ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن وإن الله عز وجل ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم قال من تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى قال إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الرحيم ، وإن مثلك يا عمر كمثل موسى قال ربنا أطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم ، ومثلك يا عمر كمثل نوح قال رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » .

إذ نلحظ وصفهم لإبراهيم وعيسى بالرقة والرحمة ، ووصفهم لموسى ونوح بالشدة والقسوة ، ولكننا لا نريد أن نسلم بكل هذا إذ هي اللمحات التي تلمح سراعا ثم يتركها الإنسان دون فحص وتدقيق ، إذ الواقع أن المشابهة بين تصرفاتهم وأقوالهم وقعت كثيراً وفي مواطن مختلفة ، حتى لقد لحظ الرازي هذه المشابهة بين شخصيتين قويتين وفي أكثر من موطن قال عند تفسيره لقوله تعالى : « أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً » ما يأتي : « أما قوله أن لا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً فهذا استدلال على عدم آلهيتها بأنها لا تتكلم ولا تنفع ولا تضر ، وهذا يدل على أن الإله لابد وأن يكون موصوفا بهذه الصفات وهو كقوله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً وإن موسى عليه السلام في أكثر الأمر لا يعوّل إلا على دلائل إبراهيم عليه السلام » . وقال عند تفسيره لقوله تعالى : « فلما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل » ما يأتي : « أما قوله عسى ربي أن يهديني سواء السبيل فهو نظير قول جده إبراهيم عليه السلام إني ذاهب إلى ربي سيهدين ، وموسى عليه السلام قلما يذكر كلاما في الاستدلال والجواب والدعاء والتضرع إلا ما ذكره إبراهيم عليه السلام ،

وهكذا الخلف الصادق للسلف الصالح صلوات الله عليهم » .

ولا نريد أن نعلل المشابهة بما عللها به الرازى من أن موسى يعول على دلائل جده ، وأن تلك سنة السلف الصالح ، وإنما نذهب إلى شىء آخر هو أن تلك المشابهه قامت لأن تلك الدلائل التى يرمى إليها القرآن لتقرير الدعوة وهدم الأوثان ، وإن الظروف المحيطة بالنبى العربى هى التى كانت السبب فى أن ينزل القرآن بمثل هذه الآيات . وسنشرح المسألة بتفصيل عند حديثنا عن القصص القرآنى ونفسية النبى العربى إن شاء الله .

ونستطيع أن نقول إن شخصيات الرجال فى القصص القرآنى تتميز بالأحداث التاريخية المعروفة ولا تتميز بالصفات الحسية أو الصفات المعنوية من خلق ومزاج ، وإنا لو حاولنا فهم ما يعرض لكل منهم من انفعالات نفسية وتأثرات عاطفية فلا بد لنا من فهم الظروف المحيطة بالنبى العربى ، والعوامل المؤثرة فى الدعوة الإسلامية إذ هى التى تفصح لنا عن المواقف التى توضح لنا شخصية البطل وتجلى صورته . وهذا هو الذى يتمشى مع القصد العام لهذا اللون من القصص وهو التنفيس وتخفيف الضغط العاطفى وإنه ليتحقق كل هذا لابد وأن تتشابه المواقف وتتماثل الظروف .

وإذا أردنا أن نختار إحدى الشخصيات لندرسها ونوضح صورتها فلن نجد خيراً من شخصية يوسف . ذلك لأنها شخصية فنية واضحة الصورة ، بارزة المعالم ثم هى شخصية واضحة المعالم بارزة السمات تصلح أن تكون نموذجا لرسم الشخصيات وتصويرها على أحسن ماجاءت فى القرآن .

ونلقى يوسف أول مانلقاه فتى صغير السن يجلس إلى أبيه ليقص عليه رؤياه « إذ قال يوسف لأبيه ياأبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين » ، ويسمع الوالد ثم يعلق بما يشاء ، ونفهم من

التعليق أن يوسف محل حسد إخوته وأنه من أجل هذا سيلقى عنتا وبلاء .

ونرى يوسف وهو فى غيابة الجب ، ونراه وقد التقطه القوم ونراه وقد بيع ، وهو فى كل هذا يقف موقفا سلبيا لا يفصح عن عقليته أو عن خلقه ومزاجه . وإن كنا نحس أن الحظ قد التفت إلى ذلك البدوى وأنه فى منزل سيد يريد أن يتخذه ولدا وأن عين الإله قد رعته فمكّنت له فى الأرض وعلمته من تأويل الأحاديث .

ثم نلحظ يوسف وقد بلغ أشده وأوتى العلم والحكمة وبدأ يتصرف التصرف الذى يدلنا على الخلق والمزاج .

ويوسف — قبل كل شىء — فتى تغيرت بيئته الاجتماعية فنزل الحضر بعدئذ كان باديا ، ونزل فى بيت تظهر فيه النعمة والثراء ، نزل فى بيت العزيز ، وهو من البيوت المرموقة من القوم فى ذلك الزمان . وحمل يوسف معه من البادية أخلاق البداة وصفاة الرعاة . ولاحظ يوسف — من غير شك — الفروق القائمة بين بيئته الأولى وبيئته تلك وأحدث له هذا — من غير شك — شيئا من الاضطراب .

ونلحظ من مقام يوسف فى بيت العزيز شيئا من الصلة بين السادة والأتباع فالعزيز يوصى به خيرا ، ويتوقع أن تكون منزلته بينهم منزلة الأبناء من الآباء .

ويوسف فتى مليح الوجه ، حلو القسمات ، جميل الصورة إلى حد الفتنة والإغراء . فتقع فى حبه أولا امرأة العزيز ثم بعدها جمع من كريمات النساء

ويوسف فتى فاضل ، يعرف للبيت حرمته ويحرص على الوفاء لسيده .

تراوده التى هو فى بيتها عن نفسه فتتنازعه العواطف ، ولكنه يكبت غرائزه ويميت شهواته لينتصر ما فى قلبه من حب للخير وصدق فى العهد وإيمان بحق البيت وحرمته ويتكرر الموقف ، ويحس الفتى بما فى نفسه من نزعات بشرية ويخير فيختار . يخير بين السجن أو التورط فى الإثم فيقول رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه وإلا كانت الصبوة وكان الجهل والهلاك .

ويوسف رجل متدين ، قد أوتى العلم والحكمة وتفسير الأحلام ، ثم هو رجل محظوظ يدخل السجن فيدخل معه من القصر فتيان ، ويطلبان إليه تفسير الرؤى ويحاول أن يفيدهم فيعقد بينه وبينهم عواطف الإلف والمحبة ويدعوهم إلى عبادة الواحد الديان ، ويطلب إلى واحد منهم — بعد تفسيره الرؤيا — أن يذكره عند ربه ولكن الزمن قد مضى دون ذكر أو انتباه . ويرى الملك رؤياه ، ويسعف الحظ يوسف فتتحول نحوه الأبصار والأسماع ، ويحرص يوسف على إزالة ما علق بسمعته من أدران وأقذار ، وتعاد المسألة مرة ثانية بين يدى الحاكم ، وهو فى هذه المرة رب البلاد وينتصر يوسف ويعرفه الملك فيختاره لنفسه ، ويطلب منه يوسف أن يجعله على خزائن البلاد ، ويستجيب الملك ويتصرف فى خزائن الأرض فينقذ البلاد وما جاورها من بلاء وأى بلاء .

ويوسف رجل حريص نهاز للفرص يحضر إليه إخوته فيعرفهم ويذكر ما كان بينهم وبينه من كيد ومكر ، ويحاول أن يحتال عليهم ويسعفه من طبعه الفطنة فيطلب إليهم أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم ، وبعدئذ يتحقق القصد حيث يكيد لهم بأن يجعل السقاية فى رحل أخيه ، ويبدأ بأوعيتهم قبل وعائه ، ويرى القوم الواقعة ، ولا يفطنون إلى الحيلة فيذكرون ما كان

بينهم وبين أبيهم من عهد وحرص على الوفاء ، وينتهى الأمر إلى المصارحة وإلى استحضار أبويه وأهله من بادية الشام .

ويستقبل يوسف أباه بما فى نفسه من عواطف البر والحنان وعواطف التقى والإيمان ويرفع يوسف أبويه على العرش ويتوجه إلى ربه بالدعاء والابتهال .

وأخيراً فإن شخصية يوسف تمثل شخصية كثيرين من الاسرائيليين الذين يتركون أوطانهم وينتقلون إلى غيرها فينبه شأنهم ويعلو صيتهم ، وينهضون نهضات اقتصادية تمكن لهم وتجعلهم أهلا لما تطلق عليهم من أنهم ملوك المال .

* * *

(د) شخصيات النساء :ـ وشخصيات النساء فى القصص القرآنى يجمعها والرجال صفات ، ويفرقها عنهم صفات ، وإن كنا نلحظ أن شخصيات النساء أكثر وضوحا وتعبيرا من شخصيات الرجال .

(١) والأمر الأول الذى يستوى فيه أولئك وهؤلاء هو العدول عن الصفات الحسية والجثمانية ، تلك التى تميز فردا عن فرد ، والتى توضح العلاقة بين المنظر الخارجى والصفات القلبية كالقصر والمكر والطول وعرض الأكتاف مع الغفلة والبلة وغير ذلك من علاقات .

(٢) وثانى الأمور هو العدول عن التسمية وإن اختلفت العلة هنا عنها هناك . فقد كنا نرى الأمر بالنسبة للرجال عدم الاهتمام بالشخصية كعنصر رئيسى فى القصة ونرى العدول عنها إلى غيرها من العناصر كالأحداث والحوار . ولكننا هنا نجد المسألة تعليلا آخر هو سلطان البيئة والحرص على مراعاة التقاليد المعروفة فى البيئة العربية إذ ذاك . والذى يدفعنا إلى

هذا التعليل هو مانلاحظه من أن هذه الشخصيات النسائية قد قصد إليها قصدا لتؤدى أدوارا بعينها فى القصـــة ، ولم يجيء بها لتكون رموزا أو كالرموز لتجرى على لسانها الأفكار والآراء .

قصد القرآن إلى هذه الشخصيات كما هو الواضح من قصصه لكن البيئة كانت تحرص على تقليدين . الأول أن تكون المرأة تابعة للرجل ، والثانى ألا يذكر إسمها عاريا حين تتناول بالحـــديث فى أى موقف وبين قوم كلهم من الرجال .

ويتضح الأمر الأول من موقف القرآن من حواء ، فهو لم يذكر إسمها ولا مرة واحدة وهو الأمر الذى قد يدعوا إلى العجب ، خاصة وهى أم البشرية ، وأول امرأة فى هذه الحياة . ثم هى التى ساعدت على إخراج آدم من الجنة حين أغوته ثم أغرته بالأكل من الشجرة كما تقول التوراه .

وعدول القرآن عن التسمية مقصود من غير شك . وعدوله عن أن تكون البطلة فى الغواية والإخراج مقصود كذلك من القرآن ، فقد صورها تابعة لآدم فى كل شيء . تابعة له فى النهى عن الأكل من الشجرة ، وتابعة له فى الأكل وفى الخروج . وتلك التبعية هى التى كان يحرص عليها فى البيئة العربية إذ ذاك .

وتتضح المسألة فى الأمرين من استعراضنا لشخصيات النساء الواردة فى قصص القرآن ، فنلحظ أنه يعبر عنهـا بالمرأة دائما ، وسـواء فى ذلك المتزوجات وغير المتزوجات . فهى إن كانت متزوجة امرأة فلان ، كامرأة نوح وامرأة لوط وامرأة إبراهيم وامرأة عمران وامرأة العزيز وامرأة فرعون وإن كانت غير متزوجة أطلقت من هذا القيد فملكة سبأ ، امرأة

تملكهم » « وابنتا الشيخ » ووجد من دونهم امرأتين تذودان . ومرة واحدة يعدل القرآن عن هذه الطريقة إلى التسمية المباشرة وذلك عند حديثه عن مريم ولم يكن ذلك إلا لظروف خاصة قاهرة . فقد كان القوم يعتقدون أن عيسى ابن الله . وكان القرآن يحاول القضاء على تلك العقيدة الباطلة ويثبت مكانها أمرا آخر هو أنه ابن مريم وأنه ولد من غير أب ، وأن مثله فى ذلك كمثل آدم عليهما السلام . ومن هنا صرح القرآن بالإسم عاريا ومن هنا كرره وكرره على أنه ابن مريم ومعنى ذلك أنه ليس ابن الله .

وفى غير هذين تختلف المرأة عن الرجل فى الدور الذى تلعبه وفى الصورة التى يرسمها لها القرآن . تختلف أولا فى أنها لم تأخذ دورا رئيسيا فى أية قصة من قصص القرآن ، فأدوار المرأة دائما أدوار ثانوية حتى مع مريم وحواء .

وتختلف - ثانيا - فى أن المرأة ولو أنها تلعب دورا ثانويا فى القصة ، إلا أنها واضحة الصورة متميزة المعالم ، ولكل منها طابعها الخاص .

فتذهب امرأة فرعون - مثلا - بما فى المرأة من حرص على الأمومة وما يصاحب هذه الأمومة من بر وحنان ، ونلحظ ذلك من موقفها من موسى عليه السلام - « وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون . »

وتذهب امرأة العزيز بما فى المرأة من أنوثة مكتملة ، وما يصاحب هذه الأنوثة من محبة للجمال وحرص على الفتنة والأغراء ، ونلحظ ذلك من موقفها من يوسف ذلك الموقف الذى صوره القرآن - « وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله

انه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء وإنه من عبادنا المخلصين واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر والفيا سيدها لدى الباب قالت ماجزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب اليم الخ وإن يكن إلى جانب هذه الأنوثة المكتملة التي يحوطها المكر والدهاء وسعة الحيلة حرص على أن يكون عندها شيء من عزة النفس والاعتراف بالأخطاء وبيان آن ماوقعت فيه كان من الأمور التي لم يكن لها إلى دفعها قدرة أو سلطان ونلحظ ذلك من سحر الجمال وفتنته حتى لقد خضع له عواذلها من النساء — «وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها فى ضلال مبين، فلما سمعت بمكرهن ارسلت إليهن واعتدت لهن متكئا وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن فلما رأينه اكبرنه وقطعن ايديهن وقلن حاشا لله ماهذا بشرا إن هذا الا ملك كريم قالت فذلكن الذى لمتننى فيهولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين .

لما نلحظه من حرصها على الفضل واعترافها بما اقترفت من إثم ومحاولتها تبرئة الفتى يوسف بين يدى المليك حين وجه إليها السؤال — «قال ماخطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاشى الله ماعلمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لايهدى كيد الخائنين وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا مارحم ربى إن ربى غفور رحيم»

وتذهب ابنتا الشيخ بما فى الأنثى من محبة للفتوة وإعجاب بها وبما فيها من خفر وحياء ونلحظ أن هذا الحياء يدفعهن إلى الحيلة فيحتلن على أبيهن

وعلى الفتى موسى حتى أقام بينهن وتزوج إحداهن ، ثم رحل بها إلى حيث أراد الله ويصور القرآن هذا فى هذه الآيات « ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم إمرأتين تذودان قال ماخطبكما قالتا لانسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير فجاءته إحداهما تمشى على استحياء قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لاتخف نجوت من القوم الظالمين قالت احداهما ياأبت استأجره إن خير من إستأجرت القوى الأمين قال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين قال ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على والله على مانقول وكيل »

وتذهب مريم بما فى المرأة من حرص على الشرف والعفاف ، فهى تخشى الفضيحة والعار وتخاف من رسول ربها حين يمثل لها بشرا فتستعيذه بالله ان كان تقيا وهى لاتفهم مطلقا أن يكون لها ولد ولم يمسسها بشر ثم هى ليست بالبغى التى قد يدور بخلدها شىء من ذلك « واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا فانتبذت من دونهم حجابا فارسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا قال انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم اك بغيا قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا فحملته فانتبذت به مكانا قصيا فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا .

وتذهب ملكة سبأ بما فى المرأة من ضعف مستحب ، وما فيها من سعة

الحيلة وحسن السياسة ، تلين إلى درجة تشبه الضعف ، وتستسلم إلى حد يكاد يكون خضوعا ، وهى المالكة لناصية الحال ، ترسل الهدية إلى الملك لتكتسب بها يدا عنده ، لكنه يرفض ويأبى عليها إلا أن تأتى إليه ، فتذهب إلى الملك كالمستسلمة وتعلن أمامه أنها قد ظلمت نفسها ثم تعترف بأنها قد أسلمت معه لله رب العالمين .

ولسنا بحاجة إلى الحديث عن امرأة عمران وعاطفتها الدينية ونذرها مافى بطنها محررا . ولا إلى الحديث عن إمرأة ابراهيم وعجبها من أن يكون لها ولد وبعلها شيخ وهى عجوز عقيم . ولا إلى الحديث عن موقف كل من امرأة نوح وامرأة لوط ، لأن كل هذه لفتات وصور واضحة لا تحتاج إلى وقوف طويل .

وننتهى من الحديث عن الشخصيات فى القصص القرآنى بقولنا

(١) إن مذهب القرآن فى رسمها وتصويرها كان المذهب الغير المباشر وهو الذى يذهب فيه القاص إلى عرض الشخوص فى تفكيرهم وأعمالهم وحركاتهم ، ويترك لنا نحن التعرف عليها من طرق تفكيرها ونهج أعمالها وسبحات روحها حتى لكأنها الشخص الذى نعاشره منذ زمن ، فعرفنا خلقه ومزاجه وطوايا عقله وخبايا فؤاده .

(٢) أن شخصيات النساء كانت تسيرها الغرائز والعواطف الأولية . أما شخصيات الرجال — من غير الأنبياء — فكانت تسيرها المصالح الخاصة والعقائد الباطنية والنزعات النفسية والإهواء . ومن هنا كانوا خليطا تخضع كل مجموعة منها لمؤثر من هذه المؤثرات . أما شخصيات الرسل فكانت تسيرها المثل العليا والمبادىء الدينية ومن هنـــا تشابهت صفاتهم العقلية وحركاتهم الفكرية وجرى على ألسنة الكثيرين منهم عبارات بعينها متحدة

الصورة أو متقاربتها ، وإن كانو - بين فترة وأخرى - يخضعون لما يخضع له غيرهم من الجنس البشرى فيغضبون ويفرحون ويتناولون الأعداء بالذم ويتوجهون إلى الله بالدعاء عليهم ، حتى لقد يصل الأمر أحيانا إلى درجة مخالفة المبادىء الدينية أو تعاليم العلى العظيم فآدم عصى ربه ونسى فلم نجد له عزما « ولقد عصى آدم ربه فغوى » - « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما »

ويوسف يحتال على إخوته ويجعل السقايه فى رحل واحد منهم - فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه ، ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون .

وسليمان يحتال لتكشف ملكة سبأ عن ساقيها فيقول « قال نكروا لها عرشها لننظر أتهتدى أم تكون من الذين لايهتدون فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنامسلمين وصدهاما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين قيل لها ادخلى الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير » .

(٢) أن تصوير الشخصيات فى القصص القرآنى - خاصة فى عهده الأول - لم يكن بالأمر الذى يعنى به ، ولعل القرآن فى هذا اللون يمثل المذهب الفنى فى رسم الأشخاص عند قصاص العربية فقد كان القوم يهتمون بالحادثة أكثر من اهتمامهم بالبطل ، ويهتمون بالفكرة والرأى أكثر من اهتمامهم بالأشخاص ، وهذا هو الواضح تماما فيما روى عن العرب من قصص . فنجد فى العقد الفريد بعض هذه النوادر التى وإن تكن إسلامية إلا أنها قد حافظت - إلى حد ما - على الشكل والصورة فى لون من ألوان القصص والنوادر .

(٤) أن القرآن فى حديثه عن الأشخاص كان يختار من مواقفهم ما يتفق وأحوال النبى العربى ليثبت نفسه ويسرّى عنها ما ألمّ بها من حزن وألم، كما كان يختار من أحوالهم، أو يجرى على ألسنتهم ما يشرح عقائد الدعوة الإسلامية ويؤيد مبادئها. ومن هنا كانت شخصية النبى عليه السلام هى الأساس أو العامل الأول فى الاختيار، ومن هنا أيضا تقاربت الصورة واتحدت فى كثير من الأجزاء. وهذا يلقى فى الروع أن شخصية النبى العربى قد وضحت فى هذا القصص أكثر من صورة غيره من الرسل والأنبياء، وذلك هو الذى سنشرحه بتفصيل عند حديثنا عن القصص القرآنى ونفسية الرسول عليه السلام.

ثانيا ـ الحوادث

والصلة بين الحوادث والشخصيات فى القصة أقوى من أن يدلل عليها أو يلفت الذهن إليها، ذلك لأنهما العنصران الرئيسيان فى كل قصة، ثم نحن لانستطيع أن نتصور شخصا من غير أحداث تلم به أو تقع عليه. نعم نحن لاننكر أن القصة فى القرآن لقصرها قد تجعل العنصر البارز فى تكوينها عنصر الحوادث، وقد تبهم عنصر الأشخاص وتجعله عاما غامضا لكن ذلك لايدفع الى التسليم بخلو القصة من هذا العنصر مهما يبرز العنصر الآخر ويقف وحده فى الميدان.

وطبيعة الأحداث فى القصص القرآنى مختلفة فهناك

أولا ـ ذلك النوع من الأحداث الذى يكون نتيجة تدخل عنصر القضاء والقدر فى القصة، فقد يجىء الرسول فيكذبه القوم ويطلبون إليه

أن يأتى بالآيات البينات التى تدل على صدق دعوته وصحة رسالته، وتأتيهم الآيات ، لكنهم ينصرفون عنها ويظلون عند موقفهم الأول من الكفر والعناد . وقد يصل الأمر أحيانا إلى الحجاج فى طلب الآيات والمعجزات، فتتعقد الأمور ويشق على الرسول ماوصل إليه الأمر خاصة إذا كان نصيبه منهم التهديد بالقتل والإغتيال إذ عند ذلك يتقدم الإله الذى تفضل عليه بالاختيار وعلى قومه بارساله إليهم هاديا وبشيرا ، فينزل عليهم غضبه ويصب عليهم نقمته جزاء ماقدمت أيديهم من مكر وكيد . وذلك من أمثال ماتصوره هذه القصة «كذبت ثمود المرسلين إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون إنى لكم رسول آمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين أتتركون فيما ها هنا آمنين فى جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين فاتقوا الله واطيعون ولا تطيعوا امر المسرفين الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون قالوا إنما انت من المسحرين ما انت الا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم فعقروها فأصبحو نادمين فأخذهم العذاب إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم »

وثانيا — ذاك النوع من الأحداث الذى يعتبر من الخوارق أو المعجزات وهى الأمور التى يجريها الله على أيدى الرسل أو يحدثها فى الكون إستجابة لدعوة أحدهم حين التحدى وطلب البينة وذلك من أمثال الأمور الواردة فى هذه القصة « إذ قال الله ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة

الطير بأذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا باذنى وتبرىء الأكمة والأبرص بأذنى وإذ تخرج الموتى باذنى وإذ كففت بنى اسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين واذ أوحيت الجواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمناواشهد باننا مسلمون · اذ قال الحواريون ياعيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله ان كنتم مؤمنين قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قدصدقتنا ونكون عليهامن الشاهدين قال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين قال الله إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فأنى أعذبه عذابا لاأعذبه أحدا من العالمين »

وإيراد هذين النوعين فى غير القصص القرآنى أو القصص الدينى يخرج به عن واقعيته ومألوفه ويجعله قصصا خياليا ، لكنه هنا يبقى على ماهو عليه من واقعى ومألوف، ذلك لأن القوم كانو يعتقدون بكل هذا فيطلبون المعجزات للتصديق ويؤمنون بغضب الآلهة حين المخالفة ، ومن هنا كانوا يتحدون الأنبياء حين لايطمئنون اليهم وحين يرونهم غير أهل للتصديق وذلك هو الواضح من قول قوم شعيب له — « قالوا إنما أنت من المسحرين وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين قال ربى أعلم بما تعملون فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم) ومن قول قوم محمد عليه السلام «واذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم »

وموقف القرآن من هذين النوعين موقف يدعو إلى الأعجاب ، فقد

وقف عند الأحداث المعروفة للرسل والأقوام ، وكان فى هذا الصنيع منه كسب عظيم للحيـــاة العقليه والفكرية فى ذلك الزمان وما تلاه ، فقد كان القوم يربطون بين تلك الأمور وبين كل دعوة يقصد منها الى الرقى الفكرى والتقـدم الإجتماعى حتى لكـأن كل رسـول فى عرفهم ملزم بإحـداث مر خارق أو إنزال عذاب ، وكان هذا الربط قليل النفع ، عديم الجدوى من حيث الاقناع والالزام ، والى هذا قصد القرآن الـكريم حين قال « ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبـلا ما كانو ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولـكن أكثرهم يجهلون » ولقد كان الامر يحتاج الى شىء من المهارة فى سـوق الجماعة نحو هذا الرأى فى ذلك الوقت الذى كان يمتلىء فيه العالم العربى بجو من الخرافات والأوهام ولذا عمد القرآن الى الوقوف من هذه الاحداث عند هذا الحد وأكتفى بالاعتماد على الواقع النفسى ، ولم يعمد الى الخلق الفنى أو الى الاخـتراع والابتكار ، وفصل بين الامرين فلم يجعل الرسالة متوقفة على المعجزات « ويقول الذين كفر لولا أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر ولكل قوم هاد »

وصرح بأنه قد منع هذه البينات حتى لا يكون تكذيب فعذاب وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الاولون وآتينا ثمود الناقه مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا

غير أنا مع اعجابنا منه بهذا الموقف من هذه الوجهة نلحظ أنه قد حدد الحرية وجعل العمل الفنى محصورا فى رسم الحادثة وعرض الصورة وهذا بدوره مع اعتماد القرآن على التـكرار كوسيلة من وسائل الاقناع دفع الى شيئين .

(ا) انطاق الأشخاص المختلفين بعبارات واحدة نحو قوله (إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون إنى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين) وقول صالح (إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون إنى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين)

(ب) التفنن فى العرض والتنويع فى الرسم ، فيصور الحادثة الواحدة بصور مختلفة ويعبر عن المعنى الواحد بالفاظ مختلفة . وكل تلك الظواهر لحظها القدماء وإن لم يوفقوا فى تعليلها ، وقد سبق لنا أن ذكرنا أشياء عنها فى حديثنا عن المعانى التاريخية

ثالثا ــ أما النوع الثالث والأخير فهو تلك الأحداث العادية أو المألوفة التى وقعت للابطال رسلا كانوا أم غير رســـل باعتبارهم أفرادا من الناس يأكلون ويشربون ويمشون فى الأسواق . والقصص القرآنى ملىء بهذا النوع من الأحداث ، ولعل خير ما يمثله قصة يوسف عليه السلام .

وهذا النوع لم يقف فيه القرآن عند حد رسم الحادثة وعرض صورتها بل جاوز ذلك إلى عملية الخلق الفنى الأدبى . وقد أشرنا إلى شىء من ذلك عند حديثنا عن القصه التمثيلية ويكفى هنا أن نلفت الذهن إلى امور أخرى من مثل حديث الهدهد والنملة ومن الالتفات الواقع فى ثنايا القصص القرآنى نحو أمور لم تقع بعد كالحديث بين عيسى وخالقه ، والحديث بين المستضعفين والمستكبرين مما صور على أنه سيحدث فى الآخرة إن شاء الله .

وننتقل الآن إلى أمر آخر غير طبيعة الأحداث هو الربط بينها أو تسلسلها ولن نعيد هنا مرة ثانية الحديث عن قيد الزمان وعدم اهتمام القرآن به

بعد أن وضحنا القصد القرآنى عند حديثنا عن القيم التاريخية، وبعد إذ وضعنا قصة لوط بين يدى القارىء لتدل على أن الزمان لم يجعل محوراً ترتبط به الأحداث، وإنما سنمضى إلى شىء آخر هو أن القصة القصيرة قد يهتم فيها بالحادثة من حيث تصويرها لتحدث أثرها فى النفس وتستثير من الناس الانفعال وذلك هو الواضح من هذه القصة (كذبت ثمود وعاد بالقارعة فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية)

وقد تتتابع الأحداث على هذا النسق فتجرى سراعا لتستثير الانفعال وتؤثر الأثر المطلوب من ألفه أو نفور وذلك من مثل قوله تعالى (وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الارض وما كانو سابقين فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) وليس معنى هذا أن الأحداث لا ترتبط أصلا برباط الزمن وإنما معناه أن تسلسل الأحداث فى القصة يخضع للغرض أو القصد الذى من أجله نزلت القصة، فإن كان التخويف فأنه يقصد إلى الحادثة من حيث هى ويصورها لتلقى الرعب فى القلوب وتبث الخشية فى النفوس.

اما إن كان تخفيف الضغط العاطفى أو تثبيت قلب النبى جعل المحور الذى تدور حوله الأحداث هو الشخص نفسه، وتصور الحادثة على أنها الحادثة التى وقعت له فلم تضعف نفسه ولم توهن عزمه، وانما مضى حتى كان النصر من عند الله وقصة ابراهيم - إلى جانب قصة لوط السابقة - تمثل لنا هذا

النوع من تسلسل الأحداث قال الله تعالى (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالو سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ فلما رأى أيديهم لاتصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفه قالوا لاتخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط وإمراته قائمة فضحكت فبشرناها باسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب قالت ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشىء عجيب قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط إن ابراهيم لحليم أواه منيب ياإبراهيم أعرض عن هـذا قد إنه جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود)

وقال تعالى (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين فقربه إليهم قال ألا تأكلون فأوجس منهم خيفة قالوا لاتخف وبشروه بغلام عليم فأقبلت امرأة فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم قالوا كذلك قال ربك انه هو الحكيم العليم قال فما خطبكم أيها المرسلون قالو إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين لنرسل عليهم حجارة من طين مسمومة عند ربك للمسرفين فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم)

وقد لاحظ الرازى الفروق بين القصتين من جوانب كثيرة وذلك عند تفسيره لقصة الذاريات وكان مما قال) المسألة الرابعة قال فى سورة هود فلما رأى أيديهم لاتصل إليه نكرهم فدل على أن انكارهم كان حاصلا بعد تقريبه العجل منهم وقال ههنا قال سلام قوم منكرون ثم قال تعالى فراغ الى أهله

فجاء بعجل ثمين فقربه إليهم بعد حصول الانكار لهم . . . . لكن الحال في سورة هود محكية على وجه أبسط مما ذكرة ههنافأن ههنا لم يبين المبشر به وهناك ذكر باسمه وهو اسحاق ولم يقل ههنا إن القوم قوم من وهناك قالوا قوم لوط وفى الجملة من يتأمل السورتين يعلم أن الحكاية محكيه هناك على وجه الاضافة أبسط فذكر فيها النكتة الزائدة ولم يذكرها هنا . . فإن قيل لم قال ههنا الحكيم العليم وقال فى هود حميد مجيد نقول لما بينا أن الحكايه هناك أبسط . . . .

المسألة الرابعة — هذه الحكاية بعينها هى المحكية فى هود وهناك قالوا إنا أرسلنا بعد ما زال عنه الروع وبشروه وهنا قالوا إنا أرسلنا بعد ماسألهم عن الخطب وأيضا قالوا هناك انا أرسلنا الى قوم لوط وقالوا ههنا انا أرسلنا إلى قوم مجرمين والحكاية عن قولهم فإن لم يقولوا ذلك ورد السؤال أيضا) انتهى

والأمر هنا — كما ترى — واضح كل الوضوح من أن الاحداث لم ترتب ترتيبا واحدا ولم يجعل الزمن هو المحور الذى تدور حوله ولم تصور الأحداث بصورة واحدة وأنطق الملائكة بألفاظ مختلفة وعبارات متفاوتة فى الحادثة الواحدة والمنظر الواحد .

والمسألة عندى — ترجع إلى القصد الذى من أجله بنيت القصة ففى هود كان القصد التسرية عن نفس محمد صلى الله عليه وسلم وتخفيف الضغط العاطفى ومن هنا عنى القرآن بالتفضل على ابراهيم بأمور وساق القصة هذا المساق فكان الحديث عن البشرى وذكر اسمه ، وكان الحديث عن قوم لوط لا المجرمين وكان الحديث عن الحميد المجيد .

وفى الذاريات بنيت القصة للتخويف وهنا كان الإنكار سريعا ، ومن هنا وصف قوم لوط بالمجرمين . ومن هنا أسرع إلى الحديث عن قوم لوط لينزل بهم العذاب .

وهنا يجب ألا ننسى أن القرآن قد يعمد إلى التنويع أحيانا حتى لايمل القارىء أو السامع من التكرار .

كان محور الربط اذا هو القصد الذى من أجله بنيت القصة وكانت الحبكة الفنية قائمة على أن هذا التسلسل يوصل الى هذه النتيجة أو تلك وكان اختلاف التسلسل قائما على هذا الأساس .

وننتقل الآن الى أسلوب القرآن الكريم فى رسم الصورة أو عرض الحادثة . ونلحظ أن القرآن لم يسلك طريقة واحدة وانما نوع فى قصصه ونلحظ من تنويعه هذه الظاهرات .

(١) كان القرآن يعتمد أحيانا على الألفاظ الفخمة الضخمة ذات الرنين القوى التى تؤثر بمبناها ومعناها ، كما تؤثر بموسيقاها . وكان يعمد أحيانا إلى الجمل المسجوعة القصيرة الفقرات ليزيد من قوة الرنين فتملأ موسيقى الألفاظ الأذن نغما والقلب خشية ورهبة أو غبطة وسرورا . وذلك من أمثال هذه القصص « كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر وحملناه على ذات ألواح ودسر تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر ولقد تركناها آية فهل من مدكر فكيف كان عذابى ونذر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر تنزع الناس

كأنهم أعجاز نخل منقعر فكيف كان عذابى ونذر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر » .

(٢) وكان يعتمد أحيانا أخرى على تتابع الأحداث تتابعا سريعا لتؤثر فى النفس وتهز الفؤاد وذلك من أمثال قوله تعالى « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانو قوما مجرمين» ولعل هذاهو الذى دعا أيضا إلى أن يجمع ألوانا من القصص فى سورة واحدة وذلك من أمثال قصص الأعراف وهود والشعراء والقمر .

(٣) وكان أحيانا أخرى وهو الغالب — يعتمد على الألفاظ السهلة اللينة التى تصدر عنه كما تصدر الألفاظ فى الاحاديث العاديه . يقص وكأنه يخاطب القوم بلغتهم العادية ويتحدث إليهم أحاديثهم المألوفة ويلاحظ فى مثل هذا اللون أن حركة الأسلوب كانت تتمشى مع حركة العاطفة ولعل خير ما يمثل هذه الخاصية هذا الجزء من قصص موسى « ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ماخطبكما قالتا لانسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فسقا لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير فجاءته إحداهما تمشى على استحياء قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لاتخف نجوت من القوم الظالمين قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين قال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين قال ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على والله على مانقول وكيل » .

فنحن نلحظ فى الجزء الأول وهو الخاص بورود موسى ماء مدين استعمال الفعلين المضارعين يسقون وتذودان للدلالة على الحركة ولتصوير الأحداث

حتى لكأنها حاضرة مشاهدة ، وليس ذلك الا لأنهما الفعلان الدالان فى هذا الجزء من الآية على ماسيقع وكأنهما ينبهاننا الى أن هذه الأحداث هى التى تهم موسى ولقد كانت هى التى استثارته فعلا ، فالناس يسقون وهاتان تذودان ولذا تقدم الى الفتاتين قائلا ماخطبكما . وأظنك تلحظ معى ما فى هذا اللفظ من عنف وجزالة وما فيه من دلالة على تلك الخواطر التى ألمت بذهن موسى ، وانى لأحسُّ منه الغضب على أولئك الذين يسبقون الفتاتين الى السقيا .

وتنطق الفتاتان بهذه الجملة التى تدل على ما فى الأنثى من ضعف وحياء يدفعانها إلى التخلف فى مثل هذه المواقف التى يكثر فيها التزاحم ويختلط فيها النساء بالرجال « لا نسقى حتى يصدر الرعاء » وبهذه الجملة التى تستثير الرحمة وتستمطر الحنان « وأبونا شيخ كبير » . إنها الألفاظ سهلة لينة تداعب رقتها الآذان والقلوب . وإنها الجمل التى تنطق بها الأنثى والأنثى ليس غير ما فى ذلك شك أو جدال .

ويأتى جزء آخر دال على الحركات الخاطفة السريعة التى يأتى بها الإنسان ليصل إلى ما وراءها « فسقى لهما ثم تولى إلى الظل » ونلحظ موسى هنا وفى هذا الظل متراخياً منهوك القوى مستسلماً ضارعاً « رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير » . وتمشى الجملة مع هذه الضراعة ويطل الشعور الدينى من وراء النداء ومن التصريح بالفقر والحاجة إلى الخير أمام الغنى الكبير .

على أن المقام بموسى لن يطول فقد جاءته إحداهما تمشى على استحياء . ألا ما أعذب هذه الجملة وما أخف وقعها على الأسماع والقلوب ، وما أقدرها على تصوير الحركة والانفعال ، تمشى وتمشى على استحياء . ثم ما أجمله من تعبير دال على خير ما فى الفتيات من جمال هو جمال الخفر والحياء .

جاءته فقالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ، وهل ينتظر موسى حتى يجيب إنه عجل لأنه فى حاجة إلى هذا الأجر وهو الغريب الفقير وإذاً فلتطو الإجابة وليطو معها الطريق وليلق موسى الشيخ وليقص عليه القصص وهل يفعل غير هذا الغريب الطريد .

ويفطن الشيخ إلى ما بنفس الفتى المطلوب للثأر فيقف منه موقف الشهم الكريم ويلقى إليه تلك العبارة التى ترد عليه الهدوء والطمأنينة وتشعره بأنه فى كنف شجاع كريم . « لا تخف نجوت من القوم الظالمين » . لا تخف هذه ينطق بها الرجل القوى الواثق حين يشمل الناس بعطفه وحنانه ، ونجوت هذه التى توحى إلى السامع باطمئنان النفس وراحة القلب وهدوء الخاطر ومن القوم الظالمين تلك التى تدفع عنه القلق النفسى وتأنيب الضمير .

وتبدأ مرحلة أخرى تصور الإعجاب بالفتى والاحتيال على لقاء الحبيب إذ تتقدم إحداهما إلى أبيها وتطلب إليه أن يستأجره . ومن يستأجر ؟ إن خير من يستأجر القوى الأمين . وكأن الشيخ قد فطن إلى المراد فأسرع إلى تحقيق رغبة الفتاة وأقدم على الفتى بهذا القول المؤكد الذى يقطع على المتردد كل سبيل « إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتىّ هاتين ... » ويستجيب الفتى وهو الشريد المقتفى ، وهو القاتل المستجير ويجيب بتلك الجملة التى تشعرنا باستسلامه وكأنه الطفل الصغير أمام الشيخ الكبير . « ستجدنى إن شاء الله من الصالحين » ويتم الاتفاق ويشهدان الله لأنه على ما يقولان وكيل .

وكان القرآن يعتمد فى أحيان كثيرة على تصوير الحركات لتدل بدورها على الانفعالات قوة وضعفاً أو عنفاً وليناً ، وذلك من أمثال قوله تعالى : « ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم جاءتهم

رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب » وقوله : « فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم » وقوله : « وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا » وقوله : « وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنا لنراها فى ضلال مبين فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئاً وأتت كل واحدة منهن سكيناً وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاشا لله ما هذا بشر إن هذا إلا ملك كريم » وقوله : « وامرأته قائمة فضحكت » .

كما كان يستعين أحياناً بالعبارات التصويرية والصيغ الدالة على الانفعال نحو قوله تعالى : « قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً » وقوله : « فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً » وقوله : « يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً » وقوله : « فلما وضعتها قالت ربى إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » وقوله : « وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم »

وعلى كل فيجب ألا ننسى أن أسلوب القرآن - فى الغالب - هو أسلوب التخاطب فقد كان القرآن يلقى على القوم إلقاء ، ومن هنا وضحت فى قصصه

اساليب الحديث والمشافهة خاصة فى مبدأ القصة نحو ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم . ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه . واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها الخ .

ثالثا — « الحوار »

الحوار — وليس من الضرورى أن يوجد الحوار فى كل قصة فقد تخلو منه القصة وتمضى على أنها صورة لشخص أو رسم لحادثة وهذا هو الغالب فى القصص القصيرة . ثم هذا هو الأمر الذى مضى عليه القرآن فى كثير من قصصه الذى يقصد فيه إلى التخويف ، بل مضى القرآن إلى شىء آخر فى دعايته للعقائد أو ضدها ، فأدار الحوار على أنه الخواطر النفسية التى تلم بالشخص والتى تنقله من طور إلى طور ليتخلص من عقيدة ويدخل فى أخرى ، وهذا هو الأمر الواضح كل الوضوح فى قصة إبراهيم من الأنعام : « إذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ، فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » .

لكننا — مع كل هذا — نجد كثيرا من القصص القرآنى كان الحوار فيه عنصرا مهما — إن لم يكن العنصر البارز — وهو موجود على كل حال فى كل قصة تعددت شخصياتها وذلك من مثل قصة يوسف وقصة موسى

فى طه وقصة آدم فى الأعراف ثم فى مجموعات قصص سورتى هود والشعراء وفى قصة إبراهيم فى سورة مريم وفى غيرها من القصص الذى يراد به التثبيت أو شرح مبادىء الدعوة الإسلامية . ونستطيع أن نضرب مثلا لذلك هذا الجزء من قصة موسى فى سورة طه « إذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى إذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ، قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ، قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ، قال فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، قال فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى . ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى ، قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى ، فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى ... الخ »

وموضوعات الحوار فى القصص القرآنى هى الموضوعات الدينية فى الغالب وهى الموضوعات التى بسببها قام بين النبى عليه السلام وقومه جدل عنيف وتلك من أمثال الوحدانية والبعث وكون الرسل من البشر وليسوا

من الملائكة وإحداث الأمور الخارقة أو المعجزات للدلالة على النبوة وغيرها . وقد سبق أن صورنا كثيرا من هذه الموضوعات فى الفصول الأولى عند حديثنا عن القيم الدينية والاجتماعية فلا داعى لذكرها هنا .

وطريقة القرآن فى تصوير الحوار تقوم على أساس الرواية ، فيحكى القرآن أقوال الأشخاص ويصدرها بقوله قال أو قالا أو قالوا .

هذا التصدير يلفت ذهننا إلى أمر خاص بالحوار فى القصص القرآنى هو أنه ليس من اللازم أن يقوم الحوار بين اثنين ، فقد يكون بين كثرة . وكل هذه الأمور ملحوظة فى القصص القرآنى ، فيكون الحوار بين اثنين كالحوار بين إبليس وآدم وبين إبراهيم وأبيه وبين موسى وفرعون . ويكون بين واحد من طرف واثنين من طرف آخر ، كما هو الواضح فى قصة موسى السابقة ، فقد كان موسى وهارون الركن الثانى من أطراف المحاورة . وقد يكون بين واحد من طرف وجماعة من طرف آخر كالحوار الواقع فى أكثر القصص القرآنى بين الرسل وأقوامهم من مثل قوله تعالى : « ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إنى لكم نذير مبين أن لا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم ، فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ، قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون ، ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون ، ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله

خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذاً لمن الظالمين ، قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ، قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون » .

والقضايا التى يعتمد عليها القرآن فى حواره ترجع فى الغالب إلى المسلمات الدينية أو المسلمات بحسب العرف والبيئة ، ومن هنا تقوم على أساس اللذة والألم أو المنفعة والمضرة وأنهما بيد الإله المتفضل يمن بهما على عباده كل وما يستحق .

والأسلوب الأدبى فى الحوار يخضع خضوعا يكاد يكون تاما لسمات الأسلوب القرآنى كله ولذا نلحظ فيه هذه السمات .

(١) إن لغة الأسلوب تختلف باختلاف الموضوعات والطور الذى نزلت فيه ، ومعنى ذلك أنه اسلوب فنى يجرى فى كل قصة من القصص على وتيرة واحدة ، ومعنى ذلك أيضاً أن القرآن كان لا يساير نفسية المتحاورين بقدر ما يساير نفسية محمد عليه السلام ونفسية معاصريه ، ومن هنا خضع أسلوب القصص لتلك المميزات العامة المعروفة عن أسلوب القرآن فى عهديه المكى والمدنى .

(٢) يلاحظ أنه فى القصص الذى نزل أولا ، كان يعتمد على الرنين الصوتى للألفاظ ، يعاونه فى ذلك الفقرات القصيرة المسجوعة ، وذلك لأن عاطفة النبى عليه السلام كانت فى ذلك الطور قوية جياشة مندفعة ، ومن هنا كانت الانتقالات الفجائية السريعة التى تظهر فى القصة الواحدة ، والتى تظهر فى مجموعة القصص الواردة فى سورة واحدة ، ولذا كان القصص قصيراً جداً فى هذه الفترة ، ويمثل هذه السمات قصص سورة القمر .

(٣) يلاحظ فى القصص الذى يوضح العقائد الجديدة، ويحاول أن يهدم القديمة أن السخرية بالأفكار والعقائد تدخل فيه كعنصر فنى، وهى سخرية مرة نافذة، إذ تحاول أن تضع الحقائق الواضحة المتميزة أمام كل ذى عينين ليستفيق من غشيته، وليحس إحساساً قوياً بما هو فيه من ضلال، وذلك الأمر يمثله قصص إبراهيم عن عبادة الأوثان، خاصة فى سورة مريم والشعراء.

كما يلاحظ فى هذا الجزء شيئاً من هدوء العاطفة عند الرسول، ونلمس ما تحمل الألفاظ من حنان حتى ليشعر القارىء أو السامع أنه فى كنف شخص عظيم يظله برعايته ويحاول أن يصرف عنه القسوة والعذاب، ويمثل هذا اللون قصص هود وصالح وشعيب من سورة الأعراف كما يمثله قصة إبراهيم فى مريم.

(٤) فى القصص الذى يأتى للتنفيس والإفاضة تكون العواطف جياشة قوية، وإن تكن أميل إلى الاستسلام، وذلك هو الأمر الذى تدفع إليه العلاقة القائمة بين الرسل والأقوام. ومن هنا تأتى الألفاظ هينة مسترسلة لتجرى مع طبيعة العاطفة وما فيها من يأس واستسلام. ومن هنا نلحظ من حين لآخر وجود العنصر الفنى الدينى الذى أسميناه فيما يأتى بالمناجاة، وهى عبارات أصبحت تقليدية فى بعض الأدعية الدينية.

وهنا قد نلاحظ اختلافا فى العاطفة بين المتحاورين، فيبقى المستكبرون على ما عرف عنهم من قسوة وجبروت، ويمضى الأنبياء بين بين وإن غلبت المسالمة، وذلك لما يكمن فى قلوبهم من محبة الأهل والعشيرة، ولما يبغونه من انتصار الدين، ولما يرجونه من إسعاد الأهل والعشيرة، أو إسعاد من تحمله الأرض أو تظله السماء.

وعلى الجملة فالأسلوب القرآنى فى القصص يساير نفسية النبى محمد عليه السلام ، وستظهر هذه المسايرة فى حديثنا المقبل عن القصص القرآنى ونفسية الرسول عليه السلام ، وإن كنا نجعل الحكم الأدبى فى هذه الجملة ، وهو أن أسلوب القرآن فى التعبير عن أفكار الأنبياء والمرسلين أو الأقوام لا يشاكل الواقع وإنما يمشى على وتيرة واحدة فى القصة الواحدة ، وهو الأمر الذى يحاول أن يمضى القصص على خلافه فى هذه الأيام ، إذ نرى الحوار يمثّل نفسية المتحاورين وأسلوبهما فى الحديث والمخاطبة وعقليتهما فى التفكير وفى الحركات الذهنية . كما قد يمثل الحرف والصناعات .

ومرات قليلة تلك التى نجد الحوار فيها يمثل شخصية المتحاورين وما فيها من قوة وجبروت وما لها من عظمة وكبرياء ، وتلك هى المحاورات التى يقصها القرآن الكريم على لسان فرعون أو على لسان إبليس حين يحاور كل واحد منهما شخصية الرسول الذى قام إلى جانبه فى القصة كشخصيات موسى وآدم عليهما السلام ، وهى مرات لا تجعلنا نطمئن إليها أكثر من اطمئناننا إلى الأمر الآخر وهو أن الحوار إنما يمثل أكثر من كل شىء الدعوة الإسلامية ونفسية محمد عليه الصلاة والسلام .

رابعا — « القضاء والقدر »

وقريب منهما الحظ وكل تلك عناصر وجدت وأدت دورها فى بعض القصص القرآنى وقد ضربنا لبعض هذا مثلا فيما مضى عند حديثنا عن النوع الأول من الأحداث ، وشرحنا كيف يدخل عنصر القضاء فينقذ الرسول عليه السلام من القتل والاضطهاد .

والآن نستطيع أن نضرب مثلا آخر يوضح لنا أهمية هذا العنصر فى بعض القصص وكيف يغير مصائر الأشياء. فى قصة إبراهيم من سورة صافات يرى إبراهيم رؤيا تكاد تودى بحياة ابنه لولا قضاء الله وقدره : « وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين رب هب لى من الصالحين فبشرناه بغلام حليم ، فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ، فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن ياإبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم وتركنا عليه فى الآخرين » .

وهو واضح كل الوضوح فى قصة يوسف وسنتناولها بالتحليل فى القريب العاجل إن شاء الله .

خامسا — « المناجاة »

المناجاة :

ومن العناصر الفنية فى القصص والتى وجدت قليلا فى القصص القرآنى عنصر المناجاة ، وهو فى القرآن يأتى على صورة غير تلك التى يأتى بها فى أغلب القصص الأدبى ، إذ هو فيه يقوم على مناجاة الشخص لنفسه ليسمعه غيره ، ولكنه يأتى فى القرآن كما يأتى فى بعض القصص المسرحى الغربى كقصة « قلوب سعيدة » مثلا ، إذ ترى البطلة فيها تتوجه إلى صورة العذراء ضارعة داعية ونحس نحن — كما تحس البطلة — بأن هذا الدعاء قد قبل ، وأن الله قد استجاب . كما نحس بأن هذه العبارات تكاد تكون تقليدية بما فيها من ألفاظ قد ألفت فى مثل هذه المواطن . وقد حملت بالعواطف الدينية القوية ، تلك التى تدفع بسريان الشعور الدينى بين النظارة والمتفرجين .

والمناجاة فى القرآن تأتى على هـذه الصورة ، فيتوجه النبى عليه السلام إلى خالقه ويتوسـل إليه أن يستجيب لدعائه . وهذا موجود فى قصة نوح حين دعا على قومه فقال « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا ، رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنـين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا » . وفى قصة إبراهيم : « وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم ، ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عنـد بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ، ربنا إنك تعـلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء ، الحمد لله الذى وهب لى على الـكبر إسماعيل وإسحاق إن ربى لسميع الدعاء ، رب اجعلنى مقيم الصـلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء ، ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » . وفى قصة يوسف : « رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السـموات والأرض أنت ولي فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين » .

هذه هى العناصر الفنية التى تقوم عليها القصـة فى القرآن قد صورناها كما لحظناها من القصص القرآنى المتفرق ، وسنتناولها بالحـديث فى تحليلنا لقصة يوسف فى نهاية الفصل المقبل إن شاء الله .

الفصل السادس

تطـــور الفن القصصي

قد يكون من اليسير على الباحث أن يمضى فى مثل هذا الدرس فى غير القصص القرآنى ، فيرتب عند الأدباء الذين يقصد دراسة قصصهم آثارهم الفنية ترتيباً تاريخياً ليلاحظ الظواهر الفنية وتطوراتها من حيث الكم ومن حيث الكيف ، وقد لا يجد الباحث حرجاً فى أن يصل إلى تلك النتائج التى تتوقع من أمثال هذه الأبحاث ، فيرى مثلا أن التطور الفنى كان يتبع المران والتجربة ، كما يتبع الموهبة الفنيـة والقدرة على الابتكار والاختراع ، ذلك لأنه من المسلم به عند النقـاد ورجال الأدب أن الفنانين يبـدءون حياتهم الأولى بتنمية ما فيهم من مواهب ومدارك فيقرءون أو يشاهدون اللوحات أو يستمعون إلى الموسيقى والغناء ، هم على كل حال يلتمسون المتعة واللذة فى كل أثر فنى يعرض لهم ، ثم يتقدمون خطوة فيتبعون الاستمتاع واللذة بالمحاولات الأولى التى تقوم على التقليد والمحاكاة ، ثم يكون التخلص شيئاً فشيئاً والدخول فى ميدان التجارب الخاصة ، وهـذا قد يبرز ما فى بعضهم من مواهب فيمثلون روح العصر ويظهر فى فنهم طابع البيئـة ، وقد تلمس عصا الفن السحرية ما فيهم من عبقرية فتتجلى قدرتهم على الخلق والإبداع ، فينسجون على غير منوال سابق ، فينشئون المدارس ويصبحون أصحاب مذاهب .

هذه الأمور واضحة كل الوضوح والسبيل إليها لا عوج فيها ولا التواء والنهاية لا حرج فيها ولا مشقة ما دمنا بصدد دراسة التطور الفنى فى القصص الأدبى فى غير القرآن . لكن المسألة حين تنتقل إلى ميداننا هذا تعسر وتشق وتكاد تتغير طبيعة الأمور ، ذلك لأن القرآن قد نزل من السماء على أنه معجزة العرب الكبرى وأوحاه خالق مبدع منزه عن كل ما يتصف به البشر من ضعف وقدرة يخضعان للتجربة والمران ، وإذاً فلا سبيل إلى الوصول إلى مثل هذه النتيجة ، ونحن لا نكاد نلمسها بالخيال حتى نرد عن القصد ونقف مكتوفى الأيدى حتى لا حراك ولا كلام . لكن ما العمل والتطور موجود لا شك فيه ؟

أعتقد أن الوصول إلى هذه النتيجة ميسر لو التمسنا الطريق إليها فيما خلف الأولون من رجال الفقه والأصول من حلول لمثل هذه المشكلات :

قال القوم بالنسخ ، وقالوا بالتدرج فى التشريع . ومعنى ذلك أن أحكام القرآن وشرائعه ومبادىء الدين وعقائده لم تنزل دفعة واحدة وإنما نزلت على دفعات وأن الزمن قد طال بها حتى شمل مدة البعثة وزمن الإرسال ، وهم يرون فى هذين حكمة أرادها الخالق هى أن تستعد النفوس وتتهيأ العقول والقلوب لتقبل الدين الجديد ، فلم يكن معقولا أن العربى الذى تسلطت عليه العقائد واستبدت به التقاليد يتخلى عن كل تراثه الروحى على ما فيه من زيف وبهتان فى يوم وليلة ، ولا أن يتسلل الدين الجديد إلى نفسه فيستقر فيها ويتمكن منها فى يوم وليلة كذلك . هكذا رأوا وإلى تلك الحكمة ذهبوا ، وهى الأمور التى تتفق وطبيعة الدعوات

ولن نذهب نحن إلى أبعد من قولهم حين ندل على ما بالقصص القرآنى من تطور داخلى هو بعينه ذلك التدرج فى التشريع فنحن نعلم أن القصص

القرآنى قد نزل لخدمة الدعوة الاسلامية شرح مبادئها ، وتوضيح عقائدها ، والدفاع عن النبى العربى والقرآن الكريم . على هذا جرى الواقع ، وبهذا نطق القرآن الكريم . وإذا كانت الدعوة الإسلامية قد نزلت فى فترة طويلة وجاء القرآن على قاعدة التدرج فى التشريع وإذا كان القصص القرآنى قد جاء لخدمة هذه الدعوة ، كان لابد من أن تصبح القصة صورة لهذه الدعوة تعبر عما يدور فى البيئة من آراء وأفكار وتصور ما يجرى فى البيئة من حركات عدائية أو سلبية وتدافع عن النبى عليه السلام والدعوة تدعو لهما لتثبت أركانهما وتمكن لهما من قلوب الكفرة والمشركين .

كان القصص القرآنى إذن يتطور من حيث الموضوعات أو من حيث الأفكار والآراء حسب قاعدة التدرج هذه ، وهذا هو التطور الداخلى لعنصر من عناصر القصة .

وكان فن البناء كما كان فن توزيع العناصر كما وكيفا يتأثر بهذا ، وهذا هو الأمر الذى سندل عليه هنا بعد إذ نتناول ظواهره وعلله بالشرح والتفصيل .

نلحظ القصص القرآنى أول ما نلحظه خبراً عاديا يصور حالة أو موقفا أو حادثة فنرى صحف إبراهيم وموسى « إن هذا لفى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى » ونلحظ حديث الجنود فرعون وثمود وما نزل بهم وبقوم عاد من المصائب « ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذى الأوتاد الذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد » .

وقد كان القصد الأول — أول عهد القرآن بالنزول — زلزلة المشركين وزعزعتهم من مواقف العناد ، ومن هنا نرى القرآن يعنى بالأقاصيص التى تبرز فيها الحوادث بروزا قويا ويهمل ماعداها من عناصر القصة . ومن هنا أيضا نلحظ أن الرنين الصوتى كان له أثره القوى من تصوير هذه الأحداث وكان مايذكر فى القصة ليس أسماء الرسل الذين أرسلوا وإنما اسماء الأقوام الذين نزلت بهم الكوارث وألمت بهم المصائب « الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة كذبت ثمود وعاد بالقارعة فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية »

وفى ذلك الوقت أيضا كان جدلهم عن نبوة محمد عليه السلام واتهامهم له بالسحر أو الجنون وأنه كذاب أشر وأنه يتلقى الوحى من الله وأنه بشر مثلهم وكيف يتبعون واحدا منهم مع أن الرسول لا يكون من البشر بحال من الأحوال . ويمضى القصص القرآنى على طريقته من تصوير الأحداث والاستعانة بالرنين الصوتى فى أسلوب مسجوع وتظل أسماء الرسل فى الغالب مختفية وإن ظهرت فى الحين بعد الحين . ويمثل هذا الطور قصص سورة القمر والذاريات « اقتربت الساعه وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ولقد جاءهم من الأنباء مافيه مزدجر حكمة بالغة فما تغن النذر فتول عنهم يوم يدع الداعى إلى شىء نكر خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم جراد منتشر مهطعين إلى الداعى يقول الكافرون هذا يوم عسر كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا

الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر وحملناه على ذات ألواح ودسر تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر ولقد تركناها آية فهل من مدكر فكيف كان عذابى ونذر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر فكيف كان عذابى ونذر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر كذبت ثمود بالنذر فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه انا إذا لفى ضلال وسعر أألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر سيعلمون غداً من الكذاب الأشر » .

« وفى موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم وهو مليم وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ماتذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم وفى ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون والأرض فرشناها فنعم الماهدون ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين ولا تجعلوا مع الله إلها آخر إنى لكم منه نذير مبين كذلك ماأتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون فتول عنهم فما أنت بملوم وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » .

وبعد ذلك بقليل — حين تشتد الخصومة وبعد أن يقبل بعض الناس على الدخول فى الدين الجديد — يدخل عنصر الحوار فى القصة ويكون موضوعه موضوعات الدعوة الإسلامية من بعث ووحدانية ، كما يكون

الدفاع عن النبي عليه الصلاة والسلام والقرآن الكريم .

وإذا كان هناك حوار فلا بد من وجود أشخاص يقومون به ويوجهون المسائل الوجهة التي يتطلبها الدين الجديد وهنا تظهر أسماء الرسل ، ويقف القرآن من هذا العنصر عند هذه الأسماء حتى لكأنها – كما قلنا سابقا – الرموز التي توجه سير الحوار وتعين أغراضه ومراميه .

وأطراف المحاورة هم الرسل وأقوامهم ، كما هو الحال فى قصص سورة الشعراء كما قد يكون المستضعفين والمستكبرين ، ويمثل النوعين قصص سورة الأعراف « وإلى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين قال ياقوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم من الخلق بصطه فاذكروا الآء الله لعلكم تفلحون قالوا أجئتنا لنعبد الله وحدة ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إنى معكم من المنتظرين فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا الآء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين قال الملأ الذين

استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون . قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين فتول عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رساله ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين » . وهنا نستطيع أن نسجل هذه الظواهر .

اولا — تعددت العناصر ، فأصبحنا نجد الموضوعات والأحداث والحوار والأشخاص ، ولا يزال عنصر الأشخاص أقلها بروزاً ، حتى لقد كان القرآن يتخلى عنه فى بعض قصص هذه الفترة ، كما هو الحال فى بعض قصص سور إبراهيم والمؤمنين .

ثانياً — بدأت هذه العناصر تتميز ويصبح لكل منها طابعه الخاص ، فالأحداث الآن تنزل بالمستكبرين أو المكذبين لا بقوم عاد أو قوم ثمود عامة ، كما هو الحال فى قصص الطور السابق . والرسول هنا يحاور القوم ليقنعهم وليست سبيله التهديد والوعيد كما هو الحال فى القصص السابق ، بل الأسباب الموجبة للعبادة والاستجابة لرسول الواحد القهار الذى ينعم عليهم . وموضوعات الدعوة التى يكفر بها القوم هنا معلومة ، وزاد عليها جديد هو تكذيبهم بما يتهددهم به من مصائب الدنيا وويلاتها . والبيئة التى يحيا فيها الأبطال واضحة كما هو الحال فى قصة عاد ، فهم يتخذون من السهول قصوراً وينحتون من الجبال بيوتاً ، ثم تقدم الدعوة واضح ، فقد استجاب لها قوم وإن يكونوا من الفقراء ، ونفر منها آخرون وإن يكونوا من الأغنياء المستكبرين ، وقام بينهما حوار .

ثالثاً — أخذ الأسلوب يبتعد عن السجع قليلا قليلا ، فهو فى الشعراء يشبه أن يكون سجعاً ، وهو فى غيرها — كالأعراف — بدأ يسترسل ويقترب من الأسلوب القصصى الذى يشبه أساليب الأحاديث والتخاطب .

رابعاً — يكاد قارىء القصة فى هـذا الطور يشعر بأن هناك شخصية مختفية وراء هذه الأسماء المبهمة العامة ، وأن الموضوعات التى يدور حولها الحوار هى الموضوعات التى تعنى بها هذه الشخصية . وذلك أمر سنشرحه فى الفصل التالى عند حديثنا عن القصص ونفسية الرسول .

بعد ذلك أو فى أثنائه يألم النبى عليـه السلام ، ويحس بضيق شديد من جراء تلك العداوة التى قد تؤدى إلى التهديد بالنفى والإخراج من الأرض أو الاغتيال والتقتيل ، وينزل القرآن ليصوّر هذه الأحوال ويذهب عن نفس النبى ما ألمّ بها من ضيق ، ويمثل هـذا اللون من القصص قصص سورة هود وطه والقصص والأنبياء ويوسف .

ويلاحظ فى هذا الطور أن الشخصية القصصية بدأت تتميز بعواطفها الخاصة وأحداثها التاريخية ، وأن البناء القصصى قد بدأ يتكامل ، وأن الحوار قد استقر وظهرت آثاره الفنيـة لا فى توضيح الفكرة فحسب ، بل بما تستثيره الأفكار من عواطف وانفعالات تؤثر فى مجرى الأحداث وحياة الأشخاص . وأعتقد أن خير قصـة يجب أن نقف عندها لنحللها ، ونبين ما فيها من عناصر قصصية وظواهر فنية هى قصة يوسف .

وقصة يوسف قصة إنسانية ، تلعب فيها العواطف البشرية الدور الأول فتؤثر فى سير الأشخاص وتوجههم نحو الخير أو نحو الشر فى حياتهم ، ثم هى قصة رحبة واسعة تتعدد فيهـا الشخصيات وتتلون الأحداث ، ويجرى فيها الحوار هيناً ليناً رقيقاً ، وتتوزع فيهـا العناصر التوزيع الذى يتطلبه

الفن القصصى ، فهى موزعة بمقدار تظهر وتختفى حسب الظروف الطبيعية وحسب ما يحيط بالأبطال من أحداث .

ثم هى — من حيث البناء القصصى — أجود قصة فى القرآن . ولعله من أجل هـذا عدّها القرآن من أحسن القصص حين قال : « نحن نقص عليك أحسن القصص بمـا أوحينا إليك هـذا القرآن وإن كنت من قبـله لمن الغافلين » .

تبدأ القصـة بتمهيد هو رؤيا يوسف : « إذ قال يوسف لأبيـه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين ، قال يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للانسان عدو مبين ، وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبـل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم » . ونفهم نحن من هـذا التمهيد ما سيدور فى القصة من أحداث تلم بيوسف فنعلم أنه سيكاد له ، ونعلم أن هذا الكيد لن يقضى عليه فسينجيه ربه ويعلمه من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليـه ويجعله نبيا كما أتمها على أبويه من قبل .

والتمهيدات تظهر بكثرة فى هـذا الطور من القصص فنلحظها فى قصـة موسى فى القصص : « نتلو عليـك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ، إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين ، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمـكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحـذرون » . كما نلاحظها فى قصص عيسى فى مريم وفى آل عمران ، والتمهـيدات هنا قصص بأكملها ، فقصة يحيى أو زكريا فى سورة مريم تمهـد لقصة عيسى وتهيء لها

الأذهان . وقصة مريم فى آل عمران توحى بقصة ولادة يحي ، وهى بدورها أيضا تمهد لقصة عيسى عليه السلام .

تبدأ القصة بعد هذا التمهيد فى شكل مؤامرة لاغتيال يوسف أو التنكيل به يدفع إليها الحسد والغيرة ، ونسمع حديث القوم حول الطريقة التى يريدون سلوكها ، ونراهم وهم يرددون الأمر بين جانبين : جانب القتل ، وجانب الإلقاء فى الجب ، ونفهم أن قد رجح الأمر الأخير . ثم نلحظ الجريمة وقد بدأت تأخذ شكلها العملى ، فهم يحتالون على أبيهم وهو يخشى أن يأكله الذئب وهم يؤكدون له أن هذا لن يكون ، وكيف يقع وهم عصبة وماذا يكون موقفهم لو أكله الذئب وهم غافلون إنهم إذا لخاسرون . وأخيرا يمضون بأخيهم إلى حيث أرادوا ويجيئون أباهم عشاء وهم يبكون .

ونلحظ هنا نوعا من السذاجة يلائم العقل العربى أو العقل البدوى ، فقد كان خوف أبيهم من أن يأكله الذئب ، وكانت حيلتهم للتعمية والتضليل إخبار أبيهم أن قد أكله الذئب ، والتجاوب بين الخوف والاعتذار سذاجة فى البناء القصصى تلائم طبيعة البداوة فيما اعتقد .

ونلحظ بعد ذلك تلك السحابة الرقيقة من الحزن التى تغشى نفس يعقوب ونسمع حديثه إليهم وإيمانه القلبي بأن أنفسهم قد سولت لهم أمرا ونرى استسلامه للقدر فصبر جميل والله المستعان على ما يصفون .

ثم نمضى مع يوسف حين يلتقط من الجب وحين يشرى بثمن بخس فنترك أرض فلسطين إلى أرض مصر ونترك البادية إلى المدينة ، ونستقر فى بيت من أعظم بيوتها هو بيت العزيز ، ونستمع إليه وهو يوصى به خيرا لعله أن ينفعه أو يتخذه ولدا . وهنا نحس أن يد العناية قد لمسته فمكنت له فى الأرض وعلمته من تأويل الأحاديث ، ثم أخذت تدفع به إلى الأمام

لينتصر على الكيد والحسد ويفوز على من أرادوا التخلص منه لتستقيم لهم الأمور وتستقر فى نفوسهم أسباب المودة والسعادة ويكونوا من بعده قوما صالحين .

وفى بيت العزيز تتعقد الأمور ، فيكون الصراع بين العقل والعاطفة وينتصر العقل لدى يوسف الفاضل ، وتحس المرأة بالهزيمة فيملؤها ذلك حقدا وغيظا ، ويبدأ — بالنسبة إلى يوسف — كيد جديد وتتهمه امرأة العزيز بأنه قد أراد بها السوء وأن جزاءه يجب أن يكون السجن أو العذاب الأليم . وهنا يدخل القصة عنصر جديد هو عنصر الكشف عن حقيقة الجريمة ، ويستدل العزيز على أن فتاه لم يخنه من أن قميصه قد من دبر .

وتتوالى الأحداث وهى طبيعية متساوقة إذ يسمع النسوة بالمدينة عن الحادث فيأخذون — كما هى عادتهن — بإكثار الحديث عنه ، وتسمع امرأة العزيز بما يدور حولها وتفكر فى مخرج من هذا المأزق ، فتهديها فطرتها إلى ذلك الاجتماع الذى ينقلب فيه العاذلات عواذر ، إذ يؤخذن بجمال الفتى ويرون أنه ليس من البشر وأنه ليس إلا الملك الكريم . وتحس امرأة العزيز أن قد ملكت ناصية الموقف فيعاودها حرصها على إشباع رغبتها الجنسية وتعلن أمامهن أنها قد راودته عن نفسه فاستعصم ، وأنه إن لم يفعل ما تأمره به ليسجنن وليكونا من الصاغرين . ويختار يوسف الفاضل السجن ويرى أنه أحب إليه مما يدعونه إليه ويخشى أنه إن لم ينصرف عنهن أن تتغلب فيه النزعات البشرية والعواطف الجنسية فيصب إليهن ويفعل ما يفعله الجاهلون . وهنا تلمس يوسف يد العناية فتستجيب لدعائه وتصرف عنه كيد النساء .

وندخل مع يوسف السجن ونلحظ ما أفادته العناية الإلهية ، كما نلحظ ما فيه من شعور دينى ، فهو يعبر الرؤيا لصاحبيه ، وهو يدفعهم إلى التوحيد

وعبادة الواحد القهار ، وهو ينهاهم عن عبادة الأوثان ، وهو يطلعهم على أن ذلك من فضل الله عليه .

ثم يُحَمِّل الناجي من صاحبيه أمانة ويطلب إليه أن يذكره عند ربه وإن يكن الشيطان قد أنساه . ويعاود الحظ يوسف وتلمسه يد العناية حين يرى الملك رؤياه وحين يعجز الملأ عن تعبير تلك الرؤيا ، إذ عند ذلك يذكر الناسي من صاحبي يوسف يوسف ويذهب إليه مستفتيا ويجيبه يوسف إلى ما طلب ويعبّر له الرؤيا ويدل على القصد من البقرات السمان والعجاف والسنبلات الخضر واليابسات .

ويطلب الملك يوسف ويأبى هذا حتى يحقق الملك مبتغاه وحتى يرسل إلى النسوة ويقف منهن على الحقيقة فيما كان من أمره مع امرأة العزيز ، وتأتى هذه وتعلن أنها هى التى راودته ، وأنه صادق فى كل ما قال ، ويأتى يوسف ويطلب إلى الملك أن يجعله على خزائن الأرض ويستجيب الملك وينال يوسف مبتغاه .

وفى مدة السجن هذه نلحظ أثر العنصر النبوئى أو الغيبى والدور الذى لعبه فى القصة . نلحظه كما لحظنا من قبل أثر العنصر الجنسى فى توجيه حياة يوسف من الكيد له فى أثناء مقامه فى بيت العزيز إلى أن انتهى به ذلك الكيد إلى إلقائه فى السجن حتى أنقذته يد العناية وخرج من السجن بسبب رؤية الملك .

وتعود بنا القصة إلى بعض الذكريات السابقة فتجمع بين يوسف وإخوته مرة ثانية فيعرفهم وهم له منكرون ، ويحتال عليهم حتى يأتوه بأخ لهم من أبيهم ويحتالون هم بدورهم على أبيهم ليرسل معهم ذلك الأخ ، ويحتاط والدهم كما احتاط أولا ، ولكن القدر الذى يوجه القصة يدفعه إلى القبول

ويذهب الأخ إلى أرض مصر حيث يقيم يوسف . فآواه إليه وقال إنى أنا أخوك فلا تبتئس .

واحتال يوسف عليهم مرة ثانية حين جعل السقاية فى رحل أخيه وحين أذن المؤذن بأنهم سارقون ، وحين سألهم عن جزاء السارق ، فقد كان هذا الجزاء هو كل ما يطلب يوسف وما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله . ويحاول هؤلاء الإخوة دفع أحدهم مكان السارق ويأبى يوسف ويستعيذ بالله أن يكون من الظالمين ويرحل الإخوة ويبقى كبيرهم فلن يبرح الأرض حتى يأذن له أبوه أو يحكم الله . ويطلب إليهم أن يخبروا اباهم بكل ماحدث ، وأن يدفعوه إلى السؤال عن صحة الحادثة بسؤاله أهل القرية التى كانوا فيها . أو العير التى أقبلوا فيها . وهنا تعاود الرجل أفكاره السابقة ويخبرهم بأن قد سولت لهم أنفسهم أمرا ، ويستسلم للقدر كما استسلم له أولا ويصبر ذلك الصبر الجميل الذى يحوطه الأمل بأن الله سيأتيه بهم جميعا .

وتغشى الرجل سحابة حزن قاتمة حتى ليكاد أن يكون من الهالكين . وتطوف بنفسه خواطر ملهمة فيدفع أبناءه إلى الذهاب للتحسس من يوسف وأخيه ويطلب اليهم الا ييأسوا من روح الله فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون . ويذهب هؤلاء ويلتقون بيوسف للمرة الثالثة وهنا يعيد إلى أذهانهم ما ألم بها من حيل المكر والكيد ، ويسألهم عن فعلتهم التى فعلوها وهم جاهلون . ويعرف القوم الحقيقة ويسألونه عن نفسه فيقدم لهم نفسه وأخاه وينبئهم بأن ذلك جزاء الصبر والتقوى وان الله لا يضيع اجر المحسنين ويعترفون بالخطيئة ويعترفون له بالفضل وإيثار الله له عليهم . ويحس يوسف بما فى انفسهم من إحساس باللوم والتعنيف فيخفف وقع ذلك عليهم فلا تثريب عليهم . اليوم يغفر الله لهم وهو ارحم الراحمين .

ويعود الإخوة بقميص يوسف ويلقونه على وجه ابيهم فيرتد إليه البصر ويقبل الأب والأبناء ويستقبلهم يوسف استقبال الإبن البار والأخ العطوف ويفيض الحنان من قلبه ، وتجرى عبارات الشكر على لسانه ويذكر اباه بما كان بينه وبينه من حديث « فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . ورفع ابويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا ابت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا وقد احسن بى إذ اخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد ان نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم » .

فأنت ترى هذه القصة بنيت بناء محكما من حيث فن البناء القصصى . ففيها وحدة الموضوع ، وإحكام التصميم وفيها جودة الحبكة . وفيها الانتفاع بالحوادث الاستطرادية .

وشخصية يوسف هى الشخصية الرئيسية التى تدور حولها الحوادث . أما غيره من الشخصيات فتظهر وتختفى كلما دعت الحوادث ، فيظهر الإخوة فى أرض فلسطين حيث كان يقيم معهم ويختفون حيث رحل . وتظهر السيارة كوسيلة لانتقال يوسف من البدو إلى الحضر . ويمضون إلى غير رجعة حين باعوه للعزيز . ويظهر العزيز وامرأته وواحد من أهلها ونسوة المدينة . كل يؤدى دوره المنوط به حين يكون مسرح الحوادث بيت العزيز . ثم يختفون حين ينقل يوسف إلى السجن . وهنا يظهر صاحباه ويتركه احدهما إلى غير رجعة حين يصلب . ويعود إليه الثانى مرة ثانية حين يرى الملك رؤياه . ويظهر الملك على مسرح الحوادث حين نسمع رؤياه ويبقى حتى يسلم خزائن الأرض ليوسف بعد إذ يبرئه من دعواه ، ويحضر النسوة ليعترفن بما قدمت أيديهن من شر لهذا الفتى . ويختفى الملك والنسوة ويظهر

اخوة يوسف مرة ثانية ويبقون على المسرح حتى ينقلون إلى مصر ومعهم ابوهم ومن شاء .

فأنت ترى أن الشخصية الرئيسية هى شخصية يوسف وأن الشخصيات الأخرى شخصيات ثانوية تظهر وتختفى حسب الخطوط أوحسب مايؤدون من أدوار . وقد حللنا فيما مضى شخصيتين من هذه الشخصيات هما يوسف وشخصية امرأة العزيز .

والأحداث فى هذه الشخصية أحداث عادية تقع لكل شخص وفى كل زمان ومكان فليس يبعد أن يرحل إسرائيلى من بلد إلى آخر وهو فقير معدم فتصير إليه مقاليد بيت المال ، وليس يبعد أن تقع كل هذه الأحداث لشخص فيكون موقفه منها موقف يوسف حتى حادث المراودة ، ولا تستغرب إلا حالة إلقاء القميص على وجه أبيه وارتداده بصيرا فتلك قد تكون من خصائص الأنبياء .

وأمكنة الأحداث هنا متميزة بعض التميز ، فهى حينا أرض فلسطين التى كان يسكنها يعقوب ، وهى حينا أرض مصر . بيت العزيز أو السجن أو بيت المال .

والآراء والأفكار عادية ، وكذا ما كان يمضى بين الشخصيات من حوار والانفعالات القوية والغرائز المؤثرة فى مجرى الحوادث من الأمور التى تؤثر أثرها فى كل لحظة من لحظاتنا فى الحياة ، فالحقد والحسد والحب أقوى العواطف والغرائز فى القصة ، وهى الأمور التى تلمس فى كل مجتمع منذ خلق الله الأرض والسماء .

وعنصر الرؤى هو الذى يجرى قليلا مع الاتجاهات الدينية حيث تفسر على أنها الأمور القريبة من أمور الوحى ، وإذاً فلابد من أن تصدق وتقع فى الحياة . وتفاوت الحظوظ موجود واختلافها على يوسف واضح حتى لا يحتاج إلى تفسير أو إيضاح .

وعلى كل فقصة يوسف من القصص الفنى المحكم البناء . وقد اجتمعت فيها كل العناصر القصصية التى توزعتها القصص المختلفة فى القرآن .

وأخيرا نصل إلى الطور المدنى ونحس أن القصة فيه قد بدأت تكون فى الغالب معرض صور أو آراء ، فلا مقدمات ولا نتائج ، وإنما الأحداث تصور لتهز النفوس وتستثير العواطف . والآراء تذكر لتأخذ مكانها من القلب وتستقر فى طوايا الفؤاد .

والقصة فى هذا الطور تمثل أيضا الصراع القائم بين النبى عليه السلام وأهل الكتاب ، ومن هنا كانت موضوعاتها دائرة فى الغالب حول ما نزل باليهود من مكر وكيد . وكيف سامهم فرعون سوء العذاب .

كذلك كانت تدور حول عيسى وما دار حوله من جدل بين أهل الكتاب والنبى عليه السلام فى قتله وصلبه . وأنه ابن أو ليس إبنا لله . وخير ما يمثل هذه الألوان من القصص قصة موسى عليه السلام فى البقرة وعيسى فى آل عمران .

وقبل أن نختم هذا الفصل نذكر أننا نلاحظ وجود قصص فى هذا الطور تصور أحداثا لكنها لا تصورها بقصد استثارة الانفعالات والعواطف . خاصة تلك التى تخيف وترعب ـ وإنما التى تصور الأحداث

وكأنها التجارب البشرية التى أخذت مكانها فى الحياة وكان القصد هو استقرار الفكرة فى النفوس ، وإزالة تلك الغرابة التى تحسها العقول وأكثر ما كان يدور القصص فى هذا الطور من تلك الناحية حول مسألة البعث وخير ما يمثله قصة إبراهيم والطير وقصة الذى مَرَّ على قرية وهى خاوية على عروشها وهما من قصص سورة البقرة ، وسبق أن نقلناهما فى غير هذا المكان .

الفصل السابع

نفسية الرسول وقصص القرآن

ومما تقدم ، ومن نصوص القرآن الصريحة نستطيع أن نسجل بعض الحقائق لتكون العون والسند فى الحديث عن نفسية الرسول عليه السلام.

(١) وأول تلك الحقائق تلك الوحدة ، أو ذلك التشابه التام القائم بين الأديان كلها فى الكثير من عناصر الدعوات ، لاسيما ذلك الجزء الخاص بالوحدانية ومحاربة الأوثان ، أو بعبارة أعم فى الجزء الخاص بالمعتقدات وذلك هو الأمر الواضح من قوله تعالى « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدِّين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب » .

(٢) وثانى تلك الحقائق ذلك التشابه التام القوى بين حالة النبى عليه السلام وأحوال غيره من الرسل من حيث الاختيار والاصطفاء ونزول الوحى،ومن حيث عمومية الإرسال فى كل أمة سبقت الإسلام « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » .

(٣) وثالثها ذلك التشابه التام الواضح من عمومية النص فى الآيات الكثيرة المصورة لمواقف الأمم المختلفة من رسلها العديدين ، وذلك من مثل قوله تعالى « ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانو به يستهزءون » . ومن مثل قوله « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحرا أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون » .

إلى غيرها من الأشياء التى سجلناها فى حديثنا عن المعانى الاجتماعية فى القصص القرآنى .

ومعنى ما تقدم أن الجو القصصى الذى يمثل هذه الحقائق يمثل إلى جانبها نفسية كل رسول فى كل عصر من حيث الجانب الفكرى الواضح فيما يدعو إليه من آراء ومعتقدات ، كما يمثلها من حيث الجانب الاجتماعى من وجود القادة والنذر أو الرسل والعظماء .

ومحمد عليه السلام لم يكن إلا واحدا من هؤلاء، وإذا فهذا الجو الفكرى والاجتماعى فى القصص القرآنى يمثله كما يمثل غيره من الرسل عليهم الصلاة والسلام .

وإذا تركنا هذا الجانب الذى توجد فيه الوحدة ، ويقوم فيه التشابه بين الدعوات والرسل إلى غيره من الجوانب التى لا تقوم فيها أو عليها هذه الأشياء التفت ذهننا إلى أمر آخر هو السبب الذى من أجله اختيرت أحداث بعينها من حياة بعض الرسل فى القصص القرآنى دون أحداث . والقرآن نفسه يدلنا على هذه الأسباب حين يقول « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق... » وحين يقول (فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) وحين يقول «نحن نقص عليك أحسن القصص أوحينا إليك هذا القرآن ...... » .

ومعنى كل هذا أختيار أحداث بعينها من تاريخ هؤلاء الرسل أو قصصهم كان مقصودا ، وأن هذا القصد لم يكن إلا التنفيس والإفاضة عن النبى عليه السلام والمسلمين وإلا خدمة الدعوة الإسلامية . وإذا فالقصص القرآنى من هذا الجانب الذى تتفاوت فيه حيوات الرسل ويمضى فيه كل منهم إلى

نوع من الأحداث تلائم ظروفه وتتفق وطبيعة الدعوة وأحوال البيئة يمثل نفسية النبي عليه السلام من حيث أنها العامل الأول فى الاختيار .

غير أننا يجب أن نأخذ حذرنا ونحتاط وأن نتذكر ماقلناه سابقا من أن الفروق المميزة لشخصيات الرسل فى القرآن تقوم أول ماتقوم على هذه الأحداث المعروضة لكل واحد من هؤلاء . فتقوم مثلا على حادثة إلقاء إبراهيم فى النار أو التقام الحوت ليونس ، أو إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بالنسبة لعيسى عليه السلام كما تقوم على فرق البحر بالنسبة لموسى وحادث الطوفان بالنسبة لنوح والناقة بالنسبة لصالح ومعنى ذلك أيضا أنه يجب علينا أن نعرى هذا القصص القرآنى من تلك الوقائع الخاصة إذا اردنا أن تبقى لنا الوقائع العامة التى قد تتكرر فى أكثر من قصة ولأكثر من مناسبة لأنها التى اختيرت أكثر من مرة ، ومن هذا الباقى نستطيع أن نلمس صورة تلك النفسية التى عقدنا من أجلها هذا الفصل « وهى نفسية محمد عليه السلام ، ولكن ليس معنى هذا أن تلك الوقائع الخاصة لاقيمة لها فذلك أمر لاأستطيع القول به ، ذلك لأنى لاأستطيع أن أنكر قيمة هذه الأحداث من حيث عملية الإفاضة أو الإيحاء ، ثم هى تدل على ماكان يعانيه الواحد من الرسل من ألم أو شقاء لكن هذه القيمة تقف عند هذه الدلالة وعند عرض الصورة التى قد تسرى عن نفس النبي عليه السلام ولاتعدوها إلى مايجرى خلفها من آراء وأفكار أو عواطف وانفعالات تستفيد منها فى هذا الميدان بالذات .

والذى نستطيع أن نلحظه بعد عمليات التعربة هذه ، وبعد استبعاد الأجزاء العامة التى تمثل نفسية كل رسول لما فيها من وحدة أو تشابه تام هو مايأتى :

أولا ـ نلحظ أن بعض عناصر الدعوة الإسلامية قد توزعته القصص المختلفة فثبت بعضه عند رسل بأعيانهم ، ومضى غيره إلى أكثر من رسول وإن تميز هذا للرسول دون ذلك . فنلحظ مثلا أن قصص شعيب تلتزم الحديث عن بخس الناس أشياءهم ، وتطفيف الكيل فى كل موطن وردت فيه من القرآن . ونلحظ أن قصة لوط قد التزمت الحديث عن إتيان الذكران من العالمين . وسبق أن سجلنا بعضا من قصص لوط وشعيب فلا داعى لذكرها فى هذا المكان. ونلحظ أن قصة صالح فى النمل تصور فكرة اغتيال النبى محمد عليه السلام قال الله تعالى « ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فإذاهم فريقان يختصمون قال ياقوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ماشهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون » ثم هى التى تتمشى مع هذه الآيات المصورة لنفسية النبى عليه السلام وأحواله مع قومه . قال تعالى « وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا سنة من أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا » وقال « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » .

ولعل من متممات هذه الصورة التى تؤذن بما كان فى مكة من حرص على الانتقام والاغتيال والتى نعتقد أن قصة صالح تمثله أن نذكر هنا أطرافا من قصص موسى تلقى ضوءا على مانحس أنه قد وقع فى البيئة المكية فى ذلك الزمان .

وأول هذه الأطراف محاولة بعض الناس الدفاع عنه وصرف الناس عن قتله واغتياله ، وتلك يمثلها جزء من قصة موسى فى سورة غافر . قال تعالى « وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد وقال موسى إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب ...... وقال الذى آمن ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب . وياقوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ماليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار لا جرم أنما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد فوقاه الله سيئات مامكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » إذ ليس من شك عندى فى أن الجزء الأخير يحمل فى طياته خصائص من الدعوة الإسلامية فى مكة . خاصة الحديث عن عبادة الأوثان وعبادة ماليس لهم به علم وعبادة من ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة .

وثانى هذه الأطراف ذلك الذى جاءه يسعى ليخبره عن تلك المؤامرة التى تدبر لقتله واغتياله إذ هى فى هذا الوضع تشبه حال النبى عليه السلام وليس من شك فى أن النبى قد علم بمؤامرة قتله واغتياله ، وأنه من أجل

هذا هاجر إلى ديار أخواله بنى النجار . هاجر إلى المدينة . وهذا الجزء من قصة موسى هو المذكور فى سورة القصص قال تعالى «وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجنى من القوم الظالمين .

ونص القرآن صريح فى أن النبى عليه السلام قد علم بما يضمرون له من مكر وكيد . وذلك هو الواضح من الآيات التى ذكرناها هنا بعد قصة صالح فهى آيات مكية حتى الأخيرة الواردة فى سورة الانفال وهى من السورة المدنية إذ نص على أنها من الآيات المكية .

وإذا فهذه القصص لصالح وموسى تفسر هـذه المؤامرة التى حبكت لاغتيال النبى عليه السلام وتكشف عما كان يدور فى مكة بين الأعداء والأصدقاء وكيف عاونه منهم لآخرون بالعمل على إحباط هذه المؤامرة.

أما الأمور التى تمضى فى أكثر من قصة وإن تميز بها رسول بالذات فهى من أمثال : —

(١) عبادة غير الله وسواء فى ذلك الكواكب والأوثان وعبادة الأرواح الخفية وأفراد من بنى الإنسان ، فهذه تمضى فى أكثر من قصة وتكرر فى غير آية ولكن إبراهيم وحده يتميز من بين سائر الرسل بنفيه عبادة الكواكب وتحطيم الآلهة من الأصنام ، وتتميز شخصيته كل التميز فى موقفه من عبادة الكواكب والقمر والشمس فى سورة الأنعام ، وتحطيم الآلهة فى سورة الأنبياء . وهو فى هذه المواقف يكاد يخفى شخصية غيره من الأنبياء .

(٢) يتكرر عرض مواقف المستكبرين من الرسل والأنبياء أو من المستضعفين والفقراء وتجد آثارهم فى قصص كل من شعيب وصالح مثلا .

ولكن بطلين يكادان ينفردان بالموقف فى هذا الميدان ، أولهما إبليس فى بعض قصص آدم ، وثانيهما فرعون المتعالى الجبار . وما ظنك بشخص يدعى الألوهية ويخاف من طغيانه وجبروته الرسل والأنبياء إن فرعون لعال فى الأرض وإنه لمن المسرفين .

ثانيا — وهذا الأمر هو الذى يعنينا أكثر من غيره فى هذا الفصل من الكتاب وهو أن الشخصيات تتساوى فيما عدا ماتقدم فى تمثيل نفسية النبي عليه السلام .

نلحظ الصورة المعروضة للواحد من الرسل فنحس لساعتنا كأنها صورة محمد عليه السلام وكأن الحوار القائم وكأن الأحداث البارزة هى التى تلم به أو تقع بينه وبين من يدعوهم إلى الدين الجديد من مشركين وأهل كتاب .

ولن أعمد هنا إلى عرض شخصيات الرسل واحداً واحداً لأبين لك القصد وأوضح لك المراد فذلك أمر قد يكفى فيه المثال أو الشاهد ، يستغنى بهما عن كل شاهد ومثال . ولذا سأختار إحدى الشخصيات أتتبعها فى جميع مراحلها وسنلحظ سويا أن هذه المراحل هى التى مرت بالدعوة الجديدة وبنبي الإسلام .

ولن أختار موسى و إبراهيم فقد تحدث الناس كثيراً عما بينهما وبين النبي عليه السلام من صلات ، وإنما سأعمد إلى شخصية أخرى أعتقد أنها شخصية فذة فريدة فى هذا المقام .

سأختار شخصية نوح . وأعتقد أنك ستطالبنى بتعليل هذا الاختيار . ولقدكان من الممكن أن أصبر عليك أو أطلب منك الصبر حتى أعرض

عليك الصورة النفسية لنوح ، ثم أدلك على وجه المـــوافقة أو التشابه التام بينها وبين نفسية نبينا عليهما السلام . ولـكنى لاأريد أن أفوت عليك قصدا رمى إليه القرآن .

لنقرأ سويا هذه الآيات من القرآن . يقول الله تعالى : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين ومن بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا » . ويقول تعـالى : « شرع لـكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ماتدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب » .

أو لست ترى أن هذه هى الشخصية التى أراد القرآن أن يعقد بينهـا وبين النبى محمد صلات ؟ وأفلا تعتقد أن ذلك هو الأمر المتوقع مادمنا نعتقــد أن نوحا هو الأب الثانى للبشرية ، ومادام القرآن يرمى إلى أنه لافضل لقوم على قوم ولا رعاية لجمــاعة دون أخرى من حيث النبوة والرسالة وإيتاء الحـكمة وإنزال الـكتاب فالله يجتبى إليه من يشاء ويهـدى إليه من ينيب .

ونبدأ فنقرأ قصص نوح على أساس هذه المجموعات .

المجموعة الأولى قصص القمر ونوح والشعراء والأعراف ويونس والمؤمنون وهى القصص التى تمثل بدءالدعوة ، كما تصور موقف المـكذبين، وهى القصص التى غلب عليها التخويف أو شرح مبادىء الدعوة ، وما يتبع كل ذلك من حوار وتصوير أحداث .

المجموعة الثانية قصص هود والصافات والأنبياء ، وهى القصص التى تمثل القلق النفسى والاتجاه إلى المولى القدير ، والقصص الذى يقصد به إلى التنفيس والتطهير .

أما المجموعة الثالثة فنستطيع الإعراض عنها لأنها من الأمور العامة التى يجمع القرآن فى الحديث عنها بين نوح وبين غيره من الأنبياء .

ونعود إلى المجموعة الأولى فنقول قال الله تعالى فى سورة القمر « كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . . . » . وذلك بعينه هو الذى حدث من قوم محمد عليه السلام . ولعل هذه القصة لا توضح الوضوح الكافى صورة محمد عليه السلام من الجانب النفسى ، ولذلك ننتقل إلى غيرها ، وهى قصة نوح فى نوح . ولن أنقل إليك هذه القصة ، فقد سبق أن وضعتها بين يديك فيما مضى ولذا سأكتفى بلفت الذهن إلى هذه الأشياء .

(ا) الدعوة فى السر والعلن وفى الليل والنهار وتصوير موقف المعارضة من الدعوة إذ هو بعينه موقف النبى عليه السلام « قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائى إلا فرارا وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ، ثم إنى دعوتهم جهارا ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا » .

(ب) إن عوامل الترغيب فى الدخول فى الدعوة هى بعينها تلك العوامل التى صورها القرآن من حيث ترغيب النبى عليه السلام لقومه ثم هى هى التى تلائم البيئة العربية فى الجزيرة . قال تعالى « فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات

ويجعل لكم أنهارا مالكم لاترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا فيها سبلا فجاجا .

(ج) موقف المعارضة هو هو بعينه إذ يطلبون إليه البقاء على دين الآباء والأجداد ، دين الوثنية ، ويذكرون الأصنام العربية بأسمائها . والمعارضون هم الأغنياء الذين ينفقون أموالهم لصد الناس عن سبيل الله واتباع الدين الجديد . قال تعالى : « قال نوح رب إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا ومكروا مكرا كبارا وقالوا لاتذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد أضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين إلا ضلالا » .

(د) الأمر من حيث النفسية يجرى بين الضيق بالقوم والاستسلام لله وهو بعينه الذى يلحظ عند النبى عليه السلام ، وتتبيّن هذا الضيق من الدعاء عليهم بقوله : « وقال نوح ربّ لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا » . كما تتبين الاستسلام من قوله : « رب إنى دعوت قومى . . . رب إنهم عصونى . . . رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنين ولا تزد الظالمين إلا تبارا » .

ونمضى بعد هذه القصة إلى قصص نوح فى المؤمنين والأعراف فنلحظ نفسية النبى عليه السلام هى الواضحة ، كما نلحظ أنا لانزال فى الطور الأول من أطوار الدعوة الإسلامية . يقول الله تعالى فى سورة الأعراف : « لقد

أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين قال ياقوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله مالا تعلمون أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين » . ويقول فى سورة المؤمنين « ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين قال رب انصرنى بما كذبون » .

فنحن نلحظ من هاتين القصتين أن عناصرهما تصور الحياة العربية المعاصرة للنبي عليه السلام ونزول القرآن . فهم يرونه فى ضلال ويرون به جنة ويعتقدون أن لو شاء الله لأنزل ملكا فما سمعوا من قبل بأن الرسول يكون من البشر وليست المسألة - إلا أنه واحد منهم يريد أن يتفضل عليهم . وكل هذه الأشياء هى التى حدثت فى البيئة العربية بين العرب وبين النبى عليه السلام .

والذى يصح أن نلفت إليه الذهن فى هذا المقام هو أن الضيق بالرسول قد بدأ يستقر فى نفس الجماعة ، وأن الرغبة فى التخلص منه قد أفصحت عن نفسها ولكنها رغبة لينة لم تستكمل عناصر القوة بعد ، ولذا فهى تكتفى بالتربص . وليس ذلك إلا ما ذكره القرآن عن نبينا عليه السلام . قال الله تعالى « فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون أم يقولون شاعر

نتربص به ريب المنون قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين » .

وننتقل بعد ذلك إلى القصة فى يونس فنرى الضيق قد بدا يشتد ، والرغبة فى التخلص منه قد أخذت تقوى ، وهو لا يزال قوى العاطفة رابط الجأش يعتمد على ربه فى الصغيرة والكبيرة من أمره . ثم هو فى الوقت نفسه حريص عليهم شديد الرغبة فى هدايتهم يظهر شيئا من الحنان نحوهم . يقول الله تعالى « واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه ياقوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ، ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلى ولا تنظرون فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين » .

على أننا نلحظ هنا عناصر أخرى غير السابقة هى عدم سؤالهم الأجر ثم إعلانه لهم بأنه أمر أن يكون من المسلمين وليس من شك عندى فى أن هذه التفاتة من القرآن واضحة صريحة نحو الدعوة الإسلامية ، خاصة إذا كنا نعلم من القرآن نفسه أن إبراهيم أول من سمانا المسلمين وأن إبراهيم قد جاء بعد نوح فى الترتيب الزمنى حتى فى القرآن .

ولم يبق من هذه المجموعة غير قصة نوح فى الشعراء ، وهى تمثل عناصر مختلفة من الدعوة الإسلاميه . يقول الله تعالى (كذبت قوم نوح المرسلين إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون إنى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين فاتقوا الله وأطيعون قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون قال وما علمى بما كانوا يعملون إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون وما أنا بطارد المؤمنين إن أنا إلا نذير مبين قالوا لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين قال رب إن قومى كذبون فافتح بينى وبينهم فتحا ونجنى ومن معى من المؤمنين .

فهنا نلحظ غير ما تقدم فى القصص السابقة التهديد والوعيد وأنهم سيرجمونه إن لم ينته عما يقول أو عن دعوتهم للدين الجديد كما نلحظ عنصرا آخر هو الحديث عن الأراذل ، وعن أنهم العقبة الوحيدة فى سبيل دخولهم إلى الدين الجديد ، وأنهم من أجل ذلك يطلبون إليه أن يطردهم ولكن أنى له أن يبعد عنه الأنصار والأعوان ، وليس من عمله إلا الإنذار أما ماعدا ذلك من ثواب أو عقاب فأمر يملكه الواحد القهار .

وأظنك لست فى حاجة إلى أن أدلك على أن هذا الصنيع بعينه هو الذى كان من الأغنياء ومن مشركى قريش ، وأنه الذى من أجله نزلت بعض آيات القرآن . « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ماعليك من حسابهم من شىء ومامن حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين » .

وننتقل إلى قصص المجموعة الثانية ، وهى القصص التى يراد بها إلى التنفيس فنجد قصة هود ، وهى القصة التى سبقها حديث عن الحالة النفسية للنبى عليه السلام وكيف كان يضيق صدرا بالمعارضة حتى ليهم بترك الدعوة من جراء حديثهم عنه من أنه يفترى على الله كذبا ويجىء بالقرآن يقول الله تعالى « فلعلك تارك بعض مايوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أوجاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شىء وكيل أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » .

وهذه الأمور هى التى نلحظها فى قصة نوح من هذه السورة ، كما نلحظ إلى جانبها عناصر قصصية من القديم والجديد . يقول الله تعالى « ولقد أرسلنا

نوحا إلى قومه أنى لكم نذير مبين أن لا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم اراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون وياقوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون وياقوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذا لمن الظالمين قالو يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلى إجرامى وأنا برىء مما تجرمون وأوحى إلى نوح إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون . . . ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ... ونادى نوح ربه فال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين قال يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألنى ماليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ماليس لى به علم وإلا تغفرلى وترحمنى أكن من الخاسرين قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم » .

فهنا كما ترى بعد حذفنا للعنصر القصصى الخاص بأحداث الطوفان نجد العناصر القصصية الباقية تصور الحالة العربية فى زمن النبى عليه السلام وموقفه منها . ونستطيع أن نهمل شرح كونه نذيرا وأنه بشر وأن الذين اتبعوه هم الأراذل ، وأنه لن يطردهم . وأن أجره على الله ، وأنه لا يطلب منهم مالا فتلك عناصر قد تكررت ، وتبقى بعد ذلك أمور دالة ، منها البينة ، تلك التى عميت عليهم والتى لا يريد أن يلزمهم بها وهم كارهون . أليست هذه هى الحال المشابهة تماما لحال النبى عليه السلام حين طلبوا منه الآيات البيّنة على صدق الرسالة وصحة الدعوة ، والتى كان يجيب القرآن عليها بمختلف الإجابات . ولقد كان من أوضح إجاباته تلك التى وردت فى سورة العنكبوت من قوله تعالى « وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » . ومنها أنه لا يدعى أنه يملك خزائن الله أو يدعى علم الغيب أو يقول إنه ملك . ومنها ذلك التحدى القائم على تكذيبه بأن يأتيهم بالعذاب إن كان صادقا فيما يذهب إليه . ومنها مسألة الافتراء ، وهى من غير شك التفاتة إلى الأمور المعاصرة فما نعلم أن نوحا قد نزل عليه كتاب . ولعل هذا هو الذى دفع بعض المفسرين إلى القول بأن هذه الآية ليست من قصة نوح وأنها خاصة بمحمد عليه السلام . ومنها تلك السخرية التى يقومون بها حين يمرون عليه وهو يصنع الفلك .

ونستطيع أن نضيف إلى الأمور السابقة موقف ابنه منه ، وما كان من فرقة دينية بينهما كما نستطيع أن نضم إلى ذلك موقف زوجته منه فهى الأمور التى تمثل الوضع العربى ، وإن مثلته على أنه القاعدة العامة أو الناموس النفسى الذى لا يتخلف . وقد أشرنا إلى هذه النصوص عند حديثنا عن

الأسس النفسية والاجتماعية فى الفصل الثانى من الباب الأول من هذا البحث .

ويبقى بعد ذلك قصص الصافات والأنبياء ، وهى جميعها تمثل الحديث عن النصر الذى يمن الله به على الأنبياء . وتلك أيضا قاعدة عامة ، أو ناموس نفسى يحدث لكل نبى وفى كل زمان .

ونستطيع أن نفعل ذلك فى قصص كل نبى نحذف منه الوقائع المعروفة. ولن نجد بعد كل هذا إلا نفسية محمد عليه السلام .

على أن أمرا آخر يبين الصلة بين هذا القصص ونفسية النبى عليه السلام هو أن النبى هو الذى كان يلقيه . وليس من شك فى أنه كان يعبر بصوته عما يصوره النص من معانى ، وعما يحمله اللفظ من أحاسيس وعواطف . القصص القرآنى يمثل نفسية النبى ويمثلها فى أدق مراحلها وفى أعنف صورها وليس بنا من حاجة بعد ماتقدم من شرح إلى إقامة أى دليل أو برهان :

الخاتمة

هذه هى رسالة الفن القصصى فى القرآن الكريم ، وهى رسالة تنتهى بالقارىء إلى هدفين رئيسين : الأول منهما درس أدبى أو بلاغى فنى للقصة القرآنية ، وهو درس يكشف عن بعض أسرار الإعجاز ، لأنه يبين لنا مذهب القرآن الكريم فى بناء القصة ، فيبين الألوان القصصية من تاريخية وتمثيلية وأسطورية ، وكيف كان القدماء يفهمون كل لون ويفسرونه ، وإلى أين انتهى بهم هذا الفهم وهذا التفسير . ويبين أيضاً طريقة القرآن الكريم فى توزيع العناصر القصصية أى فى هندسة القصة ، وكيف كان هذا التوزيع للعناصر يتبع الظروف والمناسبات ، ويتأثر إلى حدّ كبير بالدعوة الإسلامية فى تدرجها وترقيها . ثم يبين مذهب القرآن الكريم فى رسم الأشخاص وتصوير الأحداث وإقامة الحوار ، وكيف كان يجعل العنصر الواحد من الأحداث والأشخاص محوراً تدور حوله أكثر من قصة . وأخيراً هو درس أدبى بلاغى يكشف عن مذهب القرآن القصصى . وعن العوامل النفسية التى كان يقيم عليها القرآن أسس الاستهواء ، وعن النواميس الإجتماعية التى كان يرد إليها القرآن السبب فى قوة الدعوة الإسلامية وفى صحتها وسلامتها .

أما الهدف الثانى فقد كان الانتهاء من هذا الدرس إلى قاعدة أو نظرية تفسر لنا مواقف الكفرة والمشركين من القصص القرآنى ، وتحل لنا هذه المشكلات الكثيرة التى وقف عندها المفسرون ، ثم تعمد فى النهاية إلى

ردّ جميع الاعتراضات التى يتقدم بها المستشرقون والمبشرون ، ومن لفّ لفهم أو نحا نحوهم من الزنادقة والملاحدة ، وكل طاعن على النبى ، أو فى القرآن الكريم .

وتفسير موقف المشركين يقوم على ذلك الأساس الذى قال به الرازى ثم النيسابورى عند تفسير كل منهم للآية الكريمة « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولمّا يأتهم تأويله » من سورة يونس ، وهو الأساس الذى يقول بأن هؤلاء الكفرة قد نظروا من القصة إلى هيكلها ، ومن الحكاية إلى جسمها ، ولم ينظروا منها إلى الجوهر : إلى التوجيهات الدينية والخلقية وإلى الأسس النفسية والنواميس الإجتماعية ، ولو أنهم نظروا هذه النظرة الأخيرة ، لما وقفوا عند الأحداث والأخبار من حيث هى تاريخ ، ولما دفعت بهم هذه الوقفة إلى القول بأن القرآن أساطير الأولين ، ولما عارضوا القرآن حين عارضوه بالقصص التاريخى ، قصص رستم واسفنديار وملوك الفرس ، ولعرفوا فى النهاية أن القصص القرآنى لا يقصد إلا إلى التوجيهات الدينية والخلقية ، وإلى تقرير الدعوة الإسلامية ، وإقامة هذا التقرير على الأسس النفسية والنواميس الإجتماعية ، وعند ذلك كانوا يعترفون حتما بأنه وحى الله وأنه تنزيل الحكيم الحميد .

وحل مشكلات المفسرين يقوم على ذلك المذهب الذى لفت الأستاذ الإمام إليه الذهن عند تفسيره لقصص آدم وهاروت وماروت من سورة البقرة ، وهو المذهب الذى يقرر بأن القصص القرآنى يصح أن يفهم فهماً أدبياً بلاغياً ، وأنه لا يجوز أن يفهم فهماً تاريخياً ، ولقد كان المفسرون يذهبون هذا المذهب فى كثير من المواقف ، وكانت المشكلات تحل عندهم على هذا الأساس ، ومن ذلك تفسيرهم لقصة داود والملكين من

سورة ص . وتفسيرهم لقول اليهود عن عيسى إنه رسول الله . وغير هذين مما سبق أن ذكرناه .

أما الرد على الملاحدة والزنادقة ، وعلى المستشرقين والمبشرين فيقوم على أساس أن القرآن الكريم كان يقيم بناء القصة على ما يعتقده المخاطب ، وعلى ما تتصوره الجماعة من مسائل التاريخ ، وليس ذلك إلا لأنه يريد الهداية والإرشاد ، ويقصد إلى العظة والعبرة ، ولا يقصد إلى تعليم التاريخ أو نشر وثائقه بحال من الأحوال .

والمذهب الذى جرى عليه القرآن الكريم مذهب أدبى مقرر ، تعرفه جميع اللغات ويجرى عليه العمل عند جميع الأدباء ، ثم هو مذهب التفت إليه كثير من المفسرين ، فقال به بعض القدماء ممن روى الطبرى أقوالهم عند تفسيره لقصة أصحاب الكهف ، وقال به الأستاذ الإمام عند حديثه عن قصة هاروت وماروت ، وقال به علماء البلاغة من المسلمين حين اكتفوا باللزوم العرفى أى بالعرف والعادة ، واعتقاد المخاطب فى مسائل البيان ، ولم يتطلبوا اللزوم العقلى أى الحق والواقع .

ذلك هو مذهب القرآن القصصى ، وهو مذهب يرد على هؤلاء جميعاً اعتراضاتهم ، ذلك لأنهم يبنون هذه الإعتراضات على أساس المخالفات التاريخية ، مخالفات القصص القرآنى لما أثبته الكشف التاريخى وقال به المؤرخون من غير المسلمين ، وهو بناء لا يستقيم مع هذا العرف الأدبى الذى قررناه ، ذلك لأن الذى يعاب على القصاص هو المخالفة التاريخية الصادرة عن جهل بمسائل التاريخ وقضاياه . أما تلك التى تصدر عن مذهب أدبى هو تصوير اعتقاد المخاطب ليتخذ وسيلة إلى ما وراءه فأمر لا يعاب ، وبخاصة إذا كان هذا الكشف التاريخى قد جاء بعد قرون وقرون . إن

المخالفات مع فرض ثبوتها وإقامة الدليل عليها ، إنما هى مخالفات لما كانت تعرفه البيئة من تاريخ ، وأمثال هذه المخالفات لا تضير القرآن فى شىء ، لأنه لم يدل على أنه قد قصد إلى التاريخ وإلى تعليمه للناس ونشر وثائقه بينهم . هذا هو رأينا ، لك أن تخالف فيه ولك أن تقره ، وليس بينى وبينك إلا هذه الآية الكريمة : قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله . . .

فهرست

	صفحة
المقـــدمة	
تمهيد . أسباب اختيار الموضوع والمنهج	٣ — ٢٢

الباب الاول

المعانى التاريخية والإجتماعية والدينية

الفصل الأول : (١) المعانى التاريخية .	٢٣ — ٥٤
(ب) الأدب والتاريخ .	٥٥ — ٧١
الفصل الثانى : القيم الإجتماعية والنفسية .	
(١) إيضاح .	٧٢ — ٧٨
(ب) الأنبياء والبيئة .	٧٨ — ٨٢
(حـ) ظاهرة الانقسام وأسبابها .	٨٣ — ٩٤
(ء) نفس المؤمن لاتطيق المخالف .	٩٥ — ١٠٦
(هـ) الرسول لا يشك فى مستقبل دينه .	١٠٧ — ١١٣
الفصل الثالث : القيم الدينية والخلقية .	١١٤ — ١٣٠

الباب الثانى

الفن فى القصة القرآنية

الفصل الأول : القصة القرآنية وألوانها .	
(١) تعريف بالقصة .	١٣٣ — ١٣٨
(ب) القصة التاريخية .	١٣٨ — ١٧٤
(حـ) القصة التمثيلية .	١٧٥ — ١٩٥
(ء) القصة الأسطورية .	١٩٦ — ٢١٠

	صفحة
الفصل الثانى : الوحدة القصصية .	٢١١ — ٢٢٦
الفصل الثالث : المقاصد والأغراض :	٢٢٧ — ٢٥٢
الفصل الرابع : مصادر القصص القرآنى .	٢٥٣ — ٢٩١
الفصل الخامس : العناصر فى القصة القرآنية :	
(ا) إيضاح .	٢٩٢ — ٢٩٦
(ب) الأشخاص .	٢٩٦ — ٣٢٣
(ح) الأحداث .	٣٢٣ — ٣٣٦
(د) الحوار .	٣٣٦ — ٣٤١
(ه) القضاء والقدر .	٣٤١ — ٣٤٢
(و) المناجاة .	٣٤٢ — ٣٤٣
الفصل السادس : تطور الفن القصصى .	٣٤٤ — ٣٦٠
الفصل السابع : نفسية الرسول وقصص القرآن .	٣٦١ — ٣٧٦
الخاتمة :	٣٧٧ — ٨٠

الخطأ والصواب

س	ص	الخطأ	الصواب
٣	٣	التى	الذى
١٤	٣	الأصولين	الأصوليين
٥	٤	الأصوليني	الأصوليين
٧	٧	جرمهما	جرمها
٨	٩	الأصولين	الأصوليين
٤	١٢	ما فيها قيم	ما فيها من قيم
١٢	١٥	التشيارات	التيارات
الأخير	١٦	دفعنى	دفعتنى
٢٠	٣٣	أو أحسن	وأحَسَّ
٩	٣٨	عل	على
٣	٤٢	فكان القرب مكان ود	فكان ود
٨	٤٦	كيب	كيف
١٨	٤٦	لا تشمل	لا تشتمل
١٠	٥٥	سحر	سحرا
٢	٥٦	التاريخه	التاريخية
١٧	٥٩	أحدث	أحداث
٢	٦٢	من شاطىء الأيمن	من شاطىء الواد الأيمن
١٠	٦٧	رسول	لرسول
١٧	٧٠	أضح	وضح
١٦	٧٣	وآيتنا	وآتينا
١٩	٧٣	من	لمن
١١	٧٥	القصصاص	القصاص
١٥	٧٦	ليخروجوك	ليخرجوك

س	ص	الخطأ	الصواب
١٥	٧٧	النوميس	النواميس
العنوان	٨٣	الاقسام	الانقسام
٦	٨٧	ما عليه	ما هم عليه
١٨	٩٩	وإن	وأن
١	١٠٠	بنايا	بنيانا
الأخير	١٠٢	ما استعطت	ما استطعت
٥	١٠٣	وتخلصهم	وتخليصهم
٨	١٠٤	أرجامكم	أرحامكم
١٠	١٠٤	وبذا	وبدا
١٧	١٠٤	يحرجوكم	يخرجوكم
١٦	١٠٩	دخلية	دخيلة
١٦	١١٠	شعرا	شعر
١٣	١١١	وتجمع	وتجمح
١٨	١١٦	تقول	نقول
١٣	١١٨	نصر	نصرا
١٤	١١٨	ينصرن	ينصرون
١٧	١١٨	آذن	آذان
١٨	١١٨	ولىّ	وَلِييّ
٢٠	١١٨	لا يسمعون	لا يسمعوا
١٠	١٢٠	والاستقام	والاستقسام
١١	١٢٤	بامه	أمه
٣	١٤٦	ومر	ومن
٩	١٥٣	العاصرين	المعاصرين
١٠	١٦٣	خبرا	خبر

س	ص	الخطـأ	الصـواب
١٠	١٩٩	ما صنعنا	ماصنعاه
٧	٢٠١	آيات	الآيات
١٢	٢١٣	الصوره	السورة
١٦ ، ١٧	٢١٤	صورة . وصور	سورة . وسور
٣	٢٤١	ولباس من التقوى	ولباس التقوى
١٣	٢٤١	بالدخول	بالخلود
٢١	٢٤٩	العنه	اللعنة
٧	١٥٩	إلا	إلى
٢١	٢٦٤	كما هى اللغة	كما هى فى اللغة
٣	٢٦٧	عن	عند
١	٢٦٩	لاختلاف	لا إختلاف
١٧	٢٧٠	الحجرة	الهجرة
٤	٢٧١	معانى	معانٍ
١	٢٧٤	ولعله	ولعلّ
٩	٢٨١	مريد	مريدا
٥	٢٨٢	ولا شربا	ولا شرابا
٦	٢٨٧	المذكو وكونه	المذكور كونه
١٤	٢٨٨	قصصهم لأولى	قصصهم عبرة لآولى
١٧	٢٩٣	أن العنصر	نرى أن العنصر
١٨	٣٠٠	ربك	قال ربك
٧	٣٠٣	كثرهم	أكثرهم
١١	٣٠٣	من الناصحين	لمن الناصحين
٥	٣١٢	الرحيم	الحكيم
٢	٣١٩	وإنه	إنه

س	ص	الخطأ	الصواب
١٠	٣٢٠	سجدنى	ستجدنى
٤	٣٢٦	مر	أمر
١٣	٣٢٩	امرأة	امرأته
١	٣٣٠	ثمين	سمين
١	٣٣٤	ما سيقت	ما سقيت
٣	٣٤١	نجعل	نجمل
١٢	٣٤٤	وهذا	وهنا
١٢	٣٤٧	يتلقى	لا يتلقى
٦	٣٤٩	المحاوة	المحاورة
١١	٣٥٤	فيأخذون	فيأخذن
١٤	٣٥٤	ويرون	ويرين
٩	٣٥٩	ووتستشير	وتستثير
١٧	٢٦٢	أوحينا	بما أوحينا
١٨	٣٦٢	اختيار	أن اختيار

297.2088:K45fA:c.1
خلف الله ،محمد احمد
الفن القصصي في القرآن الكريم
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01010757

American University of Beirut

297.2088
K45fA

General Library